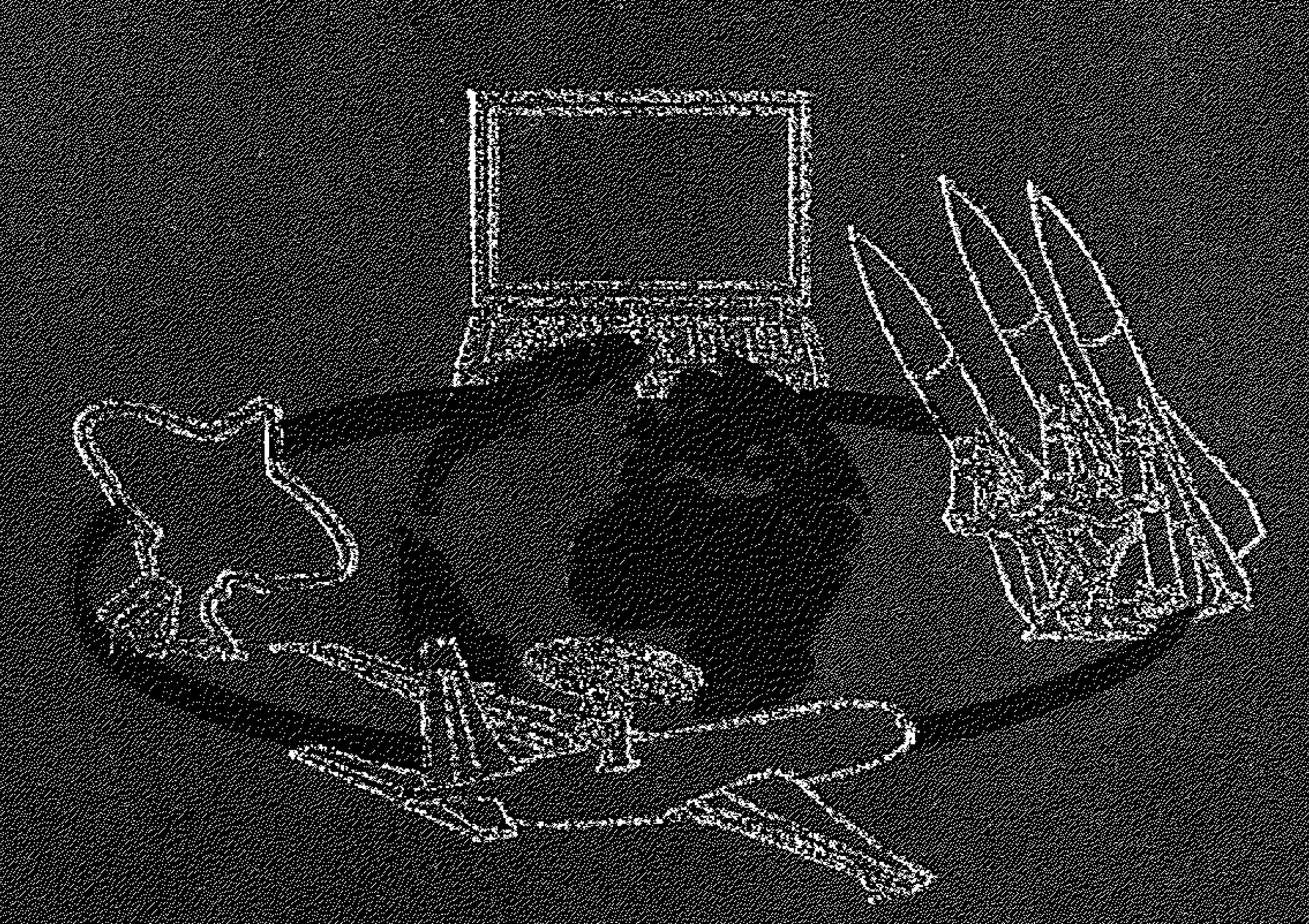
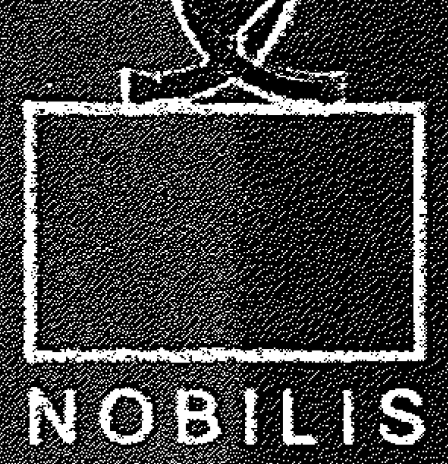
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS



موسوعة عالم المخابرات

كلّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الجاسوسيّة في حقبة الحرب الباردة (٢)

أسعَد مفرِّج

ولجَنة من البَاحثين

موسُوعَة

عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَة والاستخبارات في العَالَم

الجزء التَّاسع عشر

الجَاسُوسيَّة في حقَبَة الحَرب البَاردَة (٢)



إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : الجَاسُوسيَّة في حقَبَة الحَرب البَاردَة (٢)

الجِزء : التَّاسع عشر

المؤلِّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مكَان النَّشر : بيروت

دار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

نشاطات الـ CIA في المجر

تحوز وكالة المخابرات المركزيّة CIA في ترسانتها على مآثر تقنيّة في مضمار الحرب العلميّة. ويكفي أن نذكر منها النتائج التعيسة لحادث الطيّار باورز عام ١٩٦٠، الذي تسبّب في فشل مؤتمر القمّة في باريس. لكنّ طائرته الـ U-2 كانت قد أمّنت التحليق في الأجواء السوفياتيّة والصينيّة من كافّة الجهات على ارتفاع أربعة وعشرين كيلومترًاk وكانت تصوّرها من كافّة الاتّجاهات أيضًا، ووضعت خريطة كاملة لحرب الغرب. تلك هي وكالة المخابرات المركزيّة. وبالرغم من انهيار قيمة الطائرة U-2، إلاّ أنّ وكالة المخابرات المركزيّة هي التي أوحت بالجهد العلميّ العظيم الذي سمح للرئيس كينيدي بأن يثمّن المقدرة والإمكانيّات السوفياتيّة التي جعلته يربح الجولة الثانية في كوبا، عندما حاول الروس تحويل كوبا إلى قاعدة ذريّة. ولقد أبرزت وكالة المخابرات المركزيّة ذلك بمظهر دعائيّ مشبوه كان يبدو على شكل استعراض مسرحيّ. ذلك التصريح الذي حُرّر صباح أيّام الآحاد عن طريق الناطق الصحافيّ للبيت الأبيض: "إنّ عيننا على ثقب باب الكرملين، ولقد ذهب الرئيس البارحة مساء لينام وهو يعلم بأنّ صاروخًا عابرًا للقارّات سينطلق عند الصباح التالي". وكلمة حقّ تقال، لقد تبيّن أنّ الصاروخ انطلق فعلاً في الموعد المذكور.

إنّ وكالة المخابرات المركزيّة هي آلة كاملة التلاؤم مع الحرب العلميّة، لكن بصورة عامّة، إنّ الحرب التي كانت سائدة هي الحرب الثوريّة التي كانت تواجهها وكالة المخابرات المركزيّة. وسنرى بالتفصيل كيف تصرّفت وفقًا لذلك المزيج من

الفكر والعمل الخاصَّين بالأميركيّين، وذلك ما لم تقدّر نتائجه تمام التقدير... وبما أنّ وكالة المخابرات المركزيّة وريثة لأفكار روزفلت، فإنّها ساهمت بوضع بذور الشقاق بين المستعمِرين والمستعمَرين. وهي ترى في المستعمِرين "ممدّنين" لكنّها لم تترك لهم الزمن الكافي ليكملوا تطوّرهم، فكان بإمكانها أن تساعد على نموّ علاقات أفضل بين أفريقيا وأوروبّا فتساعد بذلك على توازن أفضل في العالم، وتزيد من فرص السلام فيه، وذلك وفقًا لوجهة النظر الأميركيّة المساندة لهذا الاتّجاه آنذاك.

قاد الأميركيّون حملتهم في قناة السويس بطرافة لا مثيل لها ليصبحوا بمثابة المسؤولين الرئيسيّين عن الرجل الأبيض في العالم، وذلك في سبيل طرد آخر إمكانيّات تأثير المستعمرين القدماء للمنطقة وهما فرنسا وبريطانيا. ولم يكن ذلك حبًّا بالشعوب المستضعفة بل رغبة في أن يكون التأثير الأوّل والأخير هو للأميركيّ فقط في مناطق منابع البترول. لم يمنع هذا التصرّف المناهض للاستعمار من أن تعود السياسة الأميركيّة إلى مجراها الطبيعيّ ألا وهو مساندة الاستعمار بكلّ صوره وأشكاله عندما يفيد الاقتصاد الأميركيّ، لذلك أصبحت الولايات المتّحدة الأميركيّة، بعد السويس، الأمّ الرؤوم للاستعمار الجديد. والواقع أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة أرادت، عند القيام بنشاطها عند أزمة القنال، أن تضع حدًّا لتأثير السياسة الفرنسيّة في شمال أفريقيا، فقامت بالضربة القاضية على سيطرة فرنسا في تلك المنطقة، وعلى سيطرة بريطانيا في المشرق العربيّ، فجعلتهما يريقان ماء وجهيهما أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦ وجازفت بالحلف الأطلسيّ. ولم تشعر وكالة المخابرات المركزيّة بخطئها إلاّ متأخّرة على لسان رئيسها ألن دالاس عندما حذّر أيزنهاور من أنّ التدخّل الأميركيّ سيحفر حفرة دائمة لا يمكن ردمها بين أميركا وحلفائها. وفي الحقيقة أنّ تلك الفترة كانت بداية الجفاء بين فرنسا والولايات المتّحدة وخاصّة الفرنسيّين غير

الشيوعيّين. لكن يجب أن نعلم بأنّ الفرنسيّين لم يكونوا يومًا واثقين بخلفيّة الحلف مع الأميركيّين، وقد تثبّتوا من قناعتهم هذه، في ما بعد، بأنّ الأميركيّين ليسوا بحلفاء كما أنّ حلف الأطلسيّ ليس حلفًا متينًا. ولقد شعر ألن دالاس بذلك لكنّه لم يفعل كلّ ما باستطاعته لمنع استمرار اتّجاه أيزنهاور في هذا السبيل في ذلك المنعطف التاريخيّ.

قامت وكالة المخابرات المركزيّة ببعث حوادث المجر ودفعت الهنغاريّين في ثورة عارمة على النظام ودعمته بكلّ الوسائل الممكنة، لكنّها ضعفت في النهاية فلم تستمرّ وتركت أنصارها يلقون حتفهم تحت سمعها وبصرها. ويكفي أن نسرد الوقائع التي نشرتها دراسة في فلسطين المحتلّة عن تدخّل الاستخبارات الإسرائيليّة في حوادث المجر فكتبت تقول: عندما انعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعيّ في شباط ـ فبراير، استمدّ المعارضون الهنغاريّون بعض النفس لما رأوه من روح التسامح التي أبداها خروتشوف في النقد. وهكذا أعيد الاعتبار إلى عدّة مسؤولين هنغاريّين من بينهم "لاسكوراجيك" وبعض الزعماء الآخرين. وقامت مجموعة داخل اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ الهنغاريّ في أوّل تمّوز ـ يوليو ١٩٥٦ فأدانت المداولات الجارية في حلقة "بتوفي" بتأثير عناصر من وكالة المخابرات المركزيّة. وأقيل "ركوسي" من مركزه وغادر هنغاريا، وتوفّي راجيك فأقيمت له في ٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر جنازة رسميّة، وقامت تظاهرات طلاّبيّة بعد الجنازة كان لوكالة المخابرات المركزيّة دورًا عظيمًا فيها. وفي ١٤ تشرين الأوّل ـ أكتوبر أعيد "امرى ناجي" إلى عضويّة الحزب الشيوعيّ، وأُقيل "ميخائيل فاركاس" من رئاسة الشرطة العامّة بتهمة المعاداة للساميّة. وتدخّلت قوى حلف وارسو في ١٩ ـ ٢٠ تشرين الأوّل ـ أكتوبر، وسارت تظاهرات ضخمة في معظم المدن، وظهر السلاح في أيدي المتظاهرين، وكان في معظمه سلاحًا أميركيًا وبريطانيًا، ونادى المتظاهرون بعودة "امرى ناجي" إلى السلطة، وطالبوا

بالديمقراطيّة في الحياة السياسيّة وبإقامة علاقات متكافئة مع الاتّحاد السوفياتيّ. وفي ليلة ٢٤ تشرين الأوّل - أكتوبر قامت تظاهرات أمام مبنى الإذاعة وتدخّلت قوّات حلف وارسو لأوّل مرّة، وأعادت اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ الهنغاريّ "امرى ناجي" على رأس الحكومة. وفي ٣٠ تشرين الأوّل - أكتوبر، وبعد مناقشات طويلة مع المبعوثين السوفيات، تشكّلت حكومة بمساعدة أحزاب تجمّع ١٦٤٥ - ١٩٤٩ التي قامت بإجراء محادثات حول انسحاب القوّات السوفياتيّة، وقام الجيش بتحرير الكاردينال "ميدزينسكي"، وفي ما كانت أنظار العالم متّجهة إلى هنغاريا، نشبت حرب القنال ودخلت قوّات سوفياتيّة جديدة في ٢١ تشرين الأوّل - أكتوبر. وفي يوم ٢٤ تشرين الأوّل - أكتوبر احتلّ العمّال المسلّحون كافّة المصانع وأقاموا مجالس لإدارتها، وعرضوا آراء مناهضة للاشتراكيّة. وكان أحد رؤساء مجالس الإدارة "زلطان تلدي" الذي أقام في ما بعد في إسرائيل، والذي كان أحد عملاء وكالة المخابرات المركزيّة في برلين، وحلّ "يانوس كادار" محلّ "آرنو جيرو" في رئاسة الحزب الشيوعيّ. وتقبّلت اللجنة المركزيّة مطالب الثائرين ومن بينها مجالس الإدارة الجديدة للمصانع. أعلن رئيس الحكومة الهنغاريّة انسحاب بلاده من حلف وارسو في أوّل تشرين الثاني - نوفمبر، وطلب من الأمم المتّحدة أن تضمن حياد بلاده. وأعلن يانوس كادار إعادة تنظيم الحزب الشيوعيّ فاحتلّت وحدات سوفياتيّة المطارات وحاصرت العاصمة بودابست. واحتجّت الحكومة على حركات القوّات السوفياتيّة، واندلعت الثورة في كافّة أنحاء العاصمة خاصّة في كثير من المدن الرئيسيّة. ولقد كان المشاركون فيها بشكل خاصّ من الطلبة غير المتفوّقين، وعلى رأسهم "أربادربيس" و"جوزيف ماروزان" و"ماتياس جروزس" و"بيتر ناجي" أحد أقرباء الرئيس. ولم يكن لدى المنتفضين أيّة أسلحة ثقيلة كالمدفعيّة وما شاكلها، لكنّهم كانوا يملكون كمّيات ضخمة من الأسلحة

المضادّة للدروع والقنابل المحرقة وقاذفات اللهب. وفي يوم ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر قامت قوّات حلف وارسو بالتدخّل في نطاق واسع وقضت على الانتفاضة، وهرب معظم رؤساء التنظيمات إلى خارج البلاد وخاصّة إلى الولايات المتّحدة وإسرائيل، نذكر منهم زلطان تادي وأربادرييس[1].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟ دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨) ص١٦٠ ـ ١٦٣.

عَلى حافَّة الحَرب النوويَّة

خلال رئاسة الجنرال أيزنهاور للولايات المتّحدة الأميركيّة، كانت السياسة الأميركيّة مرتكزة على الافتراض أنّ الاتّحاد السوفياتيّ وضع موعدًا محدّدًا لهجوم شامل صاعق على الولايات المتّحدة. ذلك الافتراض تعاظم بسبب التفسيرات المخيفة المبنيّة على معلومات الاستخبارات خلال الأزمات الكبرى للحرب الباردة.

وفي المقابل، فإنّ الاهتمام الأميركيّ بـ"الموعد السوفياتيّ"، قاد إلى المزيد من طلب المعلومات الاستخباريّة عن الإتّحاد السوفياتيّ. وهذا ما دفع الرئيس أيونهاور إلى الموافقة على تنفيذ برنامج التجسّس بطائرات "U-2" الذي كان فعّالاً للغاية، ولو خطِرًا، والذي انتهى بالنتيجة إلى تقريب العالم من حافّة الحرب النوويّة.

لقد أثبت حادث إسقاط طائرة "U-2" الأميركيّة فوق الأراضي السوفياتيّة أنّ التجسّس قد أصبح خطيرًا جدًّا في العصر النوويّ.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ أجهزة الاستخبارات خلقت أخطارًا رهيبة ضمن الهيكل المجتمعيّ بالذات. فالقوّة السريّة لا يمكن الإشراف عليها بسهولة كما أنّ المسلّحين بهذه القوّة يتستّرون بطريقة ذكيّة وراء بقيّة الآلات الحكوميّة.

الرئيس الأسبق للاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، ألن دالاس، قال ذات يوم: "الاستخبارات هي الآلة الفضلى للتآمر. فالعاملون فيها يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون من غير أن يطرح عليهم أحد أيّ سؤال. كلّ نتفة من ورق وكلّ قرش من نفقاتها وكلّ اتّصالاتها وحتّى اتّصالاتها مع العدوّ، هي من أسرار الدولة".

انذاك، قيل إنّ دالاس كان يتحدّث بصفة خاصّة عن الاستخبارات العسكريّة الألمانيّة في العهد النازيّ، محاولاً بذلك الإيحاء بأنّ هكذا استخبارات تؤثّر على تصرّفات حكوماتها، لا تزال غير متوافرة بهذا الشكل في الغرب...

دالاس، حرّ أن يقول ما يريد عن النازيّين، لكنّ الرجل قال شيئا يشمل نظام بلاده بالذات.

الواقع أنّ الديمقراطيّات الغربيّة لا يمكن استثناؤها من الأخطار الرهيبة الناتجة عن إقامة مراكز كبيرة للقوّة السريّة ضمن إطار هيكلها. أيّ جهاز استخبارات، هكذا أثبتت التجربة في أكثر الديمقراطيّات الغربيّة، يستطيع أن يخطئ وأن يسيء التصرّف، بالصدفة أو عن قصد، فيحرج موقف الحكومة أو حتّى يجعلها تنزلق على قشرة الموز.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان من السذاجة الإعتقاد أن مؤسّسة سريّة كبيرة، متغلغلة في قلب المجتمع، ستحصر اهتماماتها بالعمل كليًّا خارج إطار مجتمعها بالذات. كان ولا يزال من الصعب جدًّا تمييز ولو جهاز استخبارات واحد ليست له تدخّلات وتفاعلات ضمن حدود بلاده بالذات. وأسباب ذلك واضحة ومنطقيّة وخطيرة.

على هذا الأساس، كان للاستخبارات مشاكل معقّدة وصعبة في الولايات المتّحدة. فالشعب الأميركيّ كان تقليديًّا يسرّح قوّاته في زمن السلم، وإلى حدّ أنّ الولايات المتّحدة، لم يكن لها جهاز استخبارات رسميّ حتّى اندلاع الحرب العالميّة الثانية.

الفكرة التي كانت سائدة في الولايات المتّحدة قبل الحرب العالميّة الثانية كانت تلك التي أعرب عنها وزير الخارجيّة الأسبق "هنري ستيمسون" الذي أغلق عام ١٩١٩ "الغرفة السوداء" في وزارة الخارجيّة والتي كانت مهمّتها حلّ رموز البرقيّات، وأطلق جملته الشهيرة: "أيّها السادة، لا تقرأوا بريد بعضكم بعضًا".

في حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية كان رأي من هذا النوع قد أصبح من المستحيلات. فقد بدأت الحرب الباردة وكثرت فيها المؤسّسات السريّة التي تقاتلت بوسائل لا علاقة لها بالأخلاق الحميدة التي تعلّمها المدارس لأبناء الوطن.

عند هذه النقطة بالذات، شعرت الحكومة الأميركيّة بالحاجة القصوى إلى التستّر على هذه الوسائل وإلى نفي وجودها، ممّا أوجد وضعًا معقّدًا من المواقف العلنيّة، وكذلك الاستخلاص الخاطئ بأنّه من الضروريّ دعم الحقّ في الحياة والحريّة بالحقّ الكامل بالكذب.

في مناسبات كثيرة كانت مشاكل الحكومة الأميركيّة في "صدق" مواقفها، إنّها كانت مضطرّة إلى إعطاء بيانات رسميّة مغلوطة لحماية نشاط الاستخبارات. جونسون لم يكن ذاك الذي أوجد البيانات البعيدة عن الصدق. قبله ومنذ عهد أيزنهاور وعبر عهد كينيدي، انتعش الكذب الحكوميّ والبيان المضلّل في سبيل تغطية النشاطات المرتبطة بالاستخبارات.

عام ١٩٥٤، بدأ التضليل الأميركيّ الرسميّ المفضوح عندما اضطرّت حكومة أيزنهاور إلى نفي وجود أيّ علاقة لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة بعمليّة قلب النظام في غواتيمالا.

عام ١٩٥٨، أصدرت الحكومة الأميركيّة بيانًا تنفي فيه أيّ دور للاستخبارات المركزيّة في الثورة التي قامت ضدّ سوكارنو في أندونيسيا.

وفي عام ١٩٦٠ نفت الحكومة الأميركيّة في البداية أن تكون قد أرسلت طائرات تجسّس من طراز "U-2" فوق أراضي الاتّحاد السوفياتيّ. لكنّها بعد ذلك تعرّضت لفضيحة مخزية عندما أمعن خروتشوف في تحطيم كرامة الرئيس أيزنهاور برفض

استعداده للاجتماع به في باريس، مع أنّ الإثنين كانا قد وصلا إلى العاصمة الفرنسيّة للاجتماع.

عام ١٩٦١ ادّعى الرئيس كينيدي أنّ "مجهولين" هم الذين قاموا بعمليّة خليج الخنازير في كوبا، فيما كانت حكومة كينيدي بالذات عام ١٩٦٢ تصدر التصريحات المضلّلة الواحد تلو الآخر خلال أزمة الصواريخ السوفياتيّة في كوبا.

كلّ هذه التراكمات، قادت إلى وضع فريد من العداوة بين الحكومة والشعب في الولايات المتّحدة، لقد توسّع اختلاط الأمور على الأميركيّين إلى حدّ أنّ كثيرين منهم أصبحوا مستعدّين لتصديق أيّ شيء يقرأونه مهما كان مبلغ ما فيه من إشاعات أو صدق، ولوضع علامة استفهام وشكّ حول أكثر ما تقوله الحكومة في بياناتها.

ماذا كانت النتيجة؟ كثيرون استخلصوا الرأي بأنّ الوضع في الولايات المتّحدة بات سقيمًا للغاية وأنّ مثل هذا الوضع ليس بعيدًا عن المواقف المتطرّفة التي تشهدها البلاد في الظروف الحاضرة. والمثال الحيّ على ذلك أنّ أميركيّين كثيرين ما زالوا يعجبون للفشل الذي آلت إليه لجنة "وان" في جعل الناس يصدّقونها في ما قالته بسبب كثرة الألغاز المتعلّقة بالاستخبارات الواردة في تقريرها عن اغتيال الرئيس كينيدي.

من ذلك أنّ "مارينا بروسكوفا" كانت مقيمة مع عمّها "إيليّا برسكوفا"، وهو برتبة كولونيل في الاستخبارات السوفياتيّة، يوم التقت "هارفي أوزوالد" في مدينة "مينسك" السوفياتيّة. هناك احتمال بأن تكون الاستخبارات السوفياتيّة قد حقّقت في أمر أوزوالد عن طريق "الصليب الأحمر" السوفياتيّ من أجل مساعدة أوزوالد على العيش في الأراضي السوفياتيّة. كما أنّ أوزوالد قد جرى معه التحقيق مرّتين من جانب الاستخبارات السوفياتيّة أثناء إقامته في الاتّحاد السوفياتيّ، وإنّ وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة ومكتب التحقيقات الاتّحادي الأميركي فتحا ملفًّا لأوزوالد منذ هربه

إلى الاتّحاد السوفياتيّ عام ١٩٥٩. ثمّ إنّ أوزوالد، قبل تنفيذ عمليّة الاغتيال بثمانية أسابيع، ذهب إلى مدينة مكسيكو وحاول الحصول على تأشيرة سفر من كلّ من السفارة الكوبيّة والسفارة السوفياتيّة، ثمّ كتب إلى السفارة السوفياتيّة في واشنطن قائلاً إنّه فيما كان في مدينة مكسيكو اجتمع إلى مسؤول سوفياتي، تبيّن للاستخبارات الأميركيّة في ما بعد أنّه ضابط في الاستخبارات السوفياتيّة يدعى "فاليري فلاديمير فيتش كوستيلوف". والاستخبارات المركزيّة أبلغت مكتب التحقيق الاتّحاديّ بخبر زيارة أوزوالد للسفارة السوفياتيّة في مدينة مكسيكو.

القصد من سرد هذا المثل هو الوصول إلى القول بأنّ الحرب الباردة والتضليل الرسميّ في إعطاء المعلومات بغية التستّر على أعمال الاستخبارات، قد خلّفا جوًّا من الشكّ في جديّة المعالجة الحكوميّة للأمور حتّى ولو كانت الحكومة تتكلّم بصدق. فمنذ الحقبة التي عقبت الحرب العالميّة الثانية وقع المجتمع الأميركيّ في بئر "الأخلاق العليا" للحرب الباردة حيث سرى القول إنّ النتيجة تبرّر الواسطة وإنّ الواجب يقضي باعتماد الوسائل نفسها التي يعتمدها السوفيات من أجل المحافظة على النظام الأميركيّ بالذات.

في بحث "الجاسوس الحديث"، قال المؤرّخ الأميركيّ "جاك بلرزن": "إنّ ما يستوجب التوبيخ والتعنيف هو أنّ العالم الحديث قد ركّز بشكل رسميّ أحلام الأولاد الصغار وأعمالهم".

وفي الأيّام العصيبة التي تلت وقوع حادثة طائرة "U-2" فوق الاتّحاد السوفياتيّ عام ١٩٦٠، اضطرّ الرئيس أيزنهاور إلى انتقاء الكلمات لتبرير التجسّس الذي أمر هو نفسه به.

آنذاك، قال الرئيس الأميركيّ: "ما من أحد يريد بيرل هاربور ثانية". كما قال: "إنّ النشاطات للحصول على المعلومات الاستخباريّة... لها طابع خاصّ وسرّيّ. إنّها نشاطات غير منظورة ولها قواعدها الخاصّة ووسائلها في التخفّي التي تهدف إلى التضليل".

"نشاطات الاستخبارات"، قال أيزنهاور عنها، "مقرفة لكنّها ضرورة أساسيّة[1]".

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠) ص٣٧ ـ ٤١.

إستخبارات الإشارة بين الأميركيّين والسّوفيات

كان أعنف مواجهات الحرب الباردة بين الدولتين العظميين ذلك الذي نتج عن عمليّات عسكريّة سريّة أميركيّة لجمع معلومات إشارة Sigint عن الاتّحاد السوفياتيّ وحلفائه من البلدان الشيوعيّة. وكانت طائرات أميركيّة مثقلة بمعدّات تنصّت وتصوير متطوّرة قد حلّقت خلال خمسينات وستّينات القرن العشرين قرب الحدود السوفياتيّة وعبرها تنفيذًا لـ"مهمّات روتينيّة". وفي الواقع، قامت القيادة الجويّة الاستراتيجيّة الأميركيّة في إحدى المرّات بإرسال أكثر من خمسين طائرة إلى سماء "فلاديفوستوك" في وضح النهار. وبين عامي ١٩٤٩ و١٩٦٥ وقع أكثر من ٣٥ حادثة تعرّضت خلالها طائرات أميركيّة للنيران في أثناء قيامها بتلك المهمّات السريّة وسقط منها ٢٦ طائرة وقُتل أو أُسر أكثر من ١٠٠ من رجال الجوّ الأميركيّين.

وجرى جمع معلومات الإشارة أيضًا بطرق أشدّ دهاء. مثال ذلك، كانت أوّل هديّة قدّمها الاتّحاد السوفياتيّ إلى السفير الأميركيّ في موسكو، بعد الحرب العالميّة الثانية، كناية عن نسخة منقوشة لشعار الولايات المتّحدة دَسّ السوفيات فيها جهاز تنصّت صغيرًا بصورة سريّة...

إنّ وقائع المخاطر الجادّة التي سُلكت في سبيل الحصول على معلومات إشارة لتؤكّد الأهميّة البالغة التي أولتها الدولتان العظميان لهذا المصدر القيّم من مصادر الاستخبارات. والواضح، أنّه إذا كان بوسع دولة التنصّت على ما يدور بين قادة دولة معادية من أحاديث سريّة، يغدو في المستطاع جلاء الكثير من الغموض عن نيّات

العدوّ. وفي مواجهة دولة عظمى، يمكن أن تكون استخبارات الإشارة هذه المصدر الوحيد الأكثر اقناعًا بين مصادر التحذير الاستراتيجيّة بأنّ العدوّ ينوي القيام بهجوم. وعلى هذا الأساس، من الجائز أنّها توجِد الأساس المنطقيّ القسريّ لضربة نوويّة مسبقة.

في ما يلي وصف لإمكانات جمع معلومات الإشارة لدى كلّ من الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ في نهاية حقبة الحرب الباردة، وعرض لمصادر اختراق أمن الاتّصالات ومدى تأثير ذلك على عمليّة صنع القرار في ما يتعلّق بالضربة المسبقة إبّان الأزمات المنطوية على خطّ حرب نوويّة تكتيكيّة واستراتيجيّة.

إنّ الجزء الأعظم من نحو ٧٠٪ من الاتّصالات الأميركيّة البعيدة التي تقطع الفضاء من طريق موجات صخريّة أو أقمار إصطناعيّة معرّض لإجراءات التنصّت. وعلاوة على ذلك، فإنّ استغلال هذا الجانب السلبيّ كان جاريًا على قدم وساق. وحسب قول نائب مدير اتّصالات وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة، "إذا كانت الاتّصالات واردة عبر قمر اصطناعي، يمكنك أن تفترض أنّ الجانب الآخر يستمع إليها".

كان الإتحاد السوفياتيّ يسخّر وسائط متنوّعة من أجل الحصول على معلومات إشارة. وفي الواقع، كانت موسكو تسيطر على أضخم مؤسّسة استخبارات إشارة في العالم، وتوظّف أكثر من ٣٥٠ ألف شخص في هذا القطاع، مقارنة بنظيرتها الأميركيّة التي يعمل فيها ما يراوح بين ٦٠ و٧٠ ألف شخص. والوكالتان الرئيسيّتان المعنيّتان في الاتّحاد السوفياتيّ باستخبارات الإشارة هما: "لجنة أمن الدولة KGB"، و"المديريّة الرئيسيّة للاستخبارات التابعة لهيئة الأركان العامّة GRU". الأولى مسؤولة عن كشف الاتّصالات الأجنبيّة، وزرع أجهزة تنصّت في المجمّعات الدبلوماسيّة الأجنبيّة العاملة داخل الاتّحاد السوفياتيّ. والثانية تتولّى بعمليّاتها الأكثر انتشارًا من عمليّات KGB

أنشطة أجهزة جمع ثابتة ومتحركة داخل الاتّحاد السوفياتيّ وخارجه. كما أنّها تقوم بتنسيق أنشطة آلاف الأفراد العسكريّين السوفيات.

اعتمدت موسكو وسائط متنوّعة متميّزة من أجل جمع معلومات الإشارة. من ذلك مثلاً الأقمار الاصطناعيّة والطائرات وقطع من سفن السطح والغوّاصات والشاحنات والسيّارات الصغيرة والمحطّات الأرضيّة الثابتة... وكان للسوفيات منذ عام ١٩٦٧ نظام جمع معلومات بالأقمار الاصطناعيّة على مستوى العالم. والنظام الأخير كان يشتمل على ستّة أقمار اصطناعيّة تفصل بين الواحد والآخر ستّون درجة. ويُعتقد أنّ هذه الأقمار قد ركّزت على معلومات خاصّة بأنظمة الرادار الغربيّة لا الاتّصالات فحسب. والطائرات السوفياتيّة المشتركة في عمليّات جمع المعلومات كانت كناية عن أنواع مختلفة، قد تزيد على العشرين نوعًا، منها الطائرة "Bear 95 -2 " و"26 -2 Backfire"، وطائرات مدنيّة تديرها شركة "إيروفلوت". ويقال إنّ الأخيرة كانت تراقب الاتّصالات العالية التردّد HF، والاتّصالات ذات التردّد العالي جدًّا VHF في ممرّات طيران أوروبيّة معيّنة. وتولّى أسطول جمع المعلومات السوفياتي البحري، وهو أعظم ممّا لدى دول العالم أجمع، مراقبة الاتّصالات المدنيّة والعسكريّة والإشارات المتعلّقة بالتمارين البحريّة الغربيّة وعمليّات اختبار الصواريخ ونشرها وتشغيلها.

شملت عمليّات استخبارات الإشارة ذات القواعد البريّة وسائط ثابتة ومتحرّكة في وقت واحد. وكانت الوسائط المتحرّكة أنشط الوسائط في أوروبّا وأميركا الشماليّة. وكانت ألمانيا الغربيّة هدفًا ذا أهميّة خاصّة بالنسبة إلى عمل هذه الوسائط. فآلاف شاحنات الكتلة الشرقيّة وسيّاراتها وبيوتها المتنقّلة كانت تعبر باتّجاه الغرب كلّ سنة للاشتراك في جمع معلومات الإشارة. بالإضافة إلى مراقبة الاتّصالات المدنيّة والعسكريّة الغربيّة المهمّة، كانت هذه العربات تقوم باستطلاع منشآت عسكريّة تابعة

لحلف "ناتو" وتصويرها من أماكن غير بعيدة عن المنشآت نفسها. ويضاف إلى هذه العربات أكثر من ٥٠٠ مركز جمع معلومات منتشرة داخل الإتّحاد السوفياتيّ وخارجه. وأكبر المراكز التي كانت تقوم على أرض أجنبيّة غير سوفياتيّة كان المركز الموجود بالقرب من العاصمة الكوبيّة هافانا. فأعمدة الهوائيّات وأجهزة استقبال اتّصالات الأقمار الاصطناعيّة، التي انتشرت على رقعة مساحتها ٢٨ ميلاً مربّعًا يشغلها نحو ٢٠٠ سوفياتي، كانت تمكّن موسكو من اعتراض القدر الكبير من الاتّصالات العسكريّة والمدنيّة الواردة إلى الولايات المتّحدة والصادرة عنها. ومن المراكز البريّة الثابتة المعنيّة بجمع المعلومات المجمّعات الدبلوماسيّة السوفياتيّة التي كانت موزّعة في أرجاء العالم. وقد جاء على لسان أحد الذين فرّوا من الاتّحاد السوفياتيّ ولجأوا إلى الغرب أنّ أحد المراكز، القائم في "غلين كوف Glen Cove" في نيو يورك، كان يشحن إلى موسكو من طريق البحر سنويًّا أطنانًا من نسخات المكالمات الهاتفيّة ورسائل "التلكس".

على الصعيد الأميركيّ، يقلّ جهد الولايات المتّحدة في مضمار جمع المعلومات عن نظيره السوفياتي من حيث الحجم، في حقبة الحرب الباردة. بيد أنّه يفيد كثيرًا من التكنولوجيا في معالجة المعلومات وتوزيعها وإرسالها. وثمّة عدد من الوكالات الأميركيّة معنيّ بأعمال جمع معلومات الإشارة، منها وكالة الأمن القوميّ NSA ووكالة الاستخبارات المركزيّة CIA، ومكتب الاستطلاع القوميّ NRO، وشعب الاستخبارات في القوّات المسلّحة، وأبرز مهمّات NSA اثنتان: تأمين سلامة الاتّصالات الأميركيّة، وجمع معلومات عن جهات أجنبيّة ومعالجتها. وترعى هذه الوكالة أكثر من ٢٠٠ مركز تنصّت في العالم، في الصين وألاسكا وتركيا والنروج وألمانيا وأماكن أخرى. وتتعاون CIA وشعَب الاستخبارات العسكريّة مع NSA في تشغيل الكثير من مراكز

التنصّت هذه. كما تقوم CIA باستراق الأسلاك عن طريق "التجسّس السلكي Wiretapping" والمشاركة في برامج جمع المعلومات عبر الأقمار الاصطناعيّة. أمّا مكتب الاستطلاع القومي فينوب عن وكالات الاستخبارات الأخرى في تشغيل أجهزة جمع المعلومات ذات الوسائط الفضائيّة الأميركيّة. ويُصدر بانتظام قائمة بالأهداف الفضائيّة الواجب جمع المعلومات عنها.

أطلقت الولايات المتّحدة أوّل أقمارها الاصطناعيّة المعدّة لجمع معلومات الإشارة عام ١٩٦٢. ونجحت منذ عام ١٩٧٠ في إطلاق نحو ١٢ قمرًا إصطناعيًا "متزامناً Geostationary"، حيث تكون سرعة القمر الاصطناعيّ مساوية لسرعة دوران الكرة الأرضيّة، ويبدو القمر إذ ذاك ثابتًا في نقطة معيّنة؛ وشأنها شأن الأقمار الاصطناعيّة السوفياتيّة، تقوم الأقمار الأميركيّة بمراقبة ما تبثّه الرادارات واعتراض الاتّصالات الهاتفيّة واللاسلكيّة والاتّصالات ذات الترددات العالية جدًا. وبوسعها تسجيل الاتّصالات وسواها من المعلومات وإعادة بثّها عند الطلب. وفي الفضاء الآن عدّة أقمار إصطناعيّة أميركيّة، تتولّى هذه المهمّات.

وإلى جانب الأقمار الاصطناعيّة، هناك طائرات، مثل طائرة "RC-135"، وقطع بحريّة تستخدم في جميع معلومات الإشارة. فقد نشرت الولايات المتّحدة عام ١٩٥٩، مثلاً، غوّاصات داخل المياه الإقليميّة السوفياتيّة لـ"استراق" الكابلات تحت سطح البحر ومراقبة اختبارات الصواريخ وتنفيذ عمليّات أخرى. كما أنّ سفن سطح أميركيّة، مثل الطرّاد "يوركتاون" من فئة "تيكونديروغا"، شاركت في أنشطة جمع معلومات إشارة.

إنّ هذه الشبكة المتنوّعة، والموزّعة مكوّناتها في الفضاء وعلى الأرض وتحت البحار، مصدر لكميّة هائلة من المعلومات بحيث يقدّر ما تقدّمه وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة سنويًا بملايين الأميال من شرائط المكالمات المسجّلة. وما يراوح بين ٥٠

و ١٠٠ مليون وثيقة مصنّفة. ويقدّر إنتاجها من الموادّ المصنّفة المتلفة وحدها بنحو ٤٠ طنًا كلّ يوم.

لقد أتاحت قدرات جمع معلومات الإشارة لكلّ من القوّتين العظميين كشف اتّصالات القوّة الأخرى على أعلى المستويات الحكوميّة. وتمّت الاختراقات الأمنيّة على الرغم من وجود خيارات تشفير الاتّصالات الحسّاسة. وذلك لأسباب رئيسيّة ثلاثة: الأوّل، ببساطة، هو الإهمال أو اللامبالاة، فقد افترض المسؤولون أنّ وسيلة اتّصالات ما آمنة في وقت لم تكن كذلك. فالسفير الأميركيّ في الاتّحاد السوفياتيّ "هاريمان" مثلاً، ظلّ لسنوات يتحدّث بحريّة في مكتبه الخاصّ وهو لا يدري أنّ جهاز تنصّت كان مرابطًا فيه.

والواضح أنّ المسؤولين الأميركيّين كانوا غافلين أيضًا في أثناء أزمة الصواريخ الكوبيّة، كما تبيّن، عندما أثنى خروتشوف على "مديريّة الاستخبارات الرئيسية GRU" عقب المواجهة لأنّها زوّدته بمضامين المكالمات الصادرة من واشنطن والتي كشفت لخروتشوف الأحداث والمناقشات التي دارت في دوائر أميركيّة رسميّة. والاتّحاد السوفياتيّ بدوره لم يسلم من آثار الإهمال... ففي إحدى المرّات، على سبيل المثال، استطاعت واشنطن التقاط الحديث العاطفيّ الأخير الذي دار بين رئيس الوزراء "أليكسي كوسيغين" ورائد الفضاء السوفياتي "فلاديمير كوماروف" قبل ثوان من بدء هبوط المركبة الفضائيّة التي أصيبت بعطل حكم عليها بالإخفاق. وفي مناسبة أخرى سمحت المعدّات التي كانت في السفارة الأميركيّة في موسكو في مطلع السبعينات للعملاء الأميركيّين بالتنصّت على الحوارات اللاسلكيّة التي كانت تدور بين مسؤولين سوفيات في أثناء تجوالهم في موسكو في سيّاراتهم الرسميّة. وقد جاء على لسان مصدر قوله: "علمنا القليل عن مواقفهم في محادثات "سولت" وحصلنا على بعض

الأفكار في ما يتعلّق بالعلاقات بين الشخصيّات القياديّة". وفي حادثة أخرى كشفت محادثة بين الزعيم السوفياتي "ليونيد بريجينيف" وخبير سوفياتي في الأسلحة النوويّة "أنّ السوفيات خطّطوا لتطوير صاروخ نوويّ عملاق جديد SS-19 لم يكن معروفًا لدى المفاوضين الأميركيّين حتّى ذلك الحين، وجعل في اتّفاقيّة "سولت ١" منفذًا سمح لهم بنشره".

والسبب الثاني من أسباب الاختراقات الأمنيّة هو تعطّل أجهزة التشفير. وأوضح حادثة دالّة على هذا المجال كانت حادثة إسقاط طائرة الركّاب الكوريّة بسلاح سوفياتيّ عام ١٩٥٣. فقد حاول نائب قائد الدفاع الجوّي السوفياتي في أقصى شرق الاتّحاد السوفياتيّ الاتّصال بالأركان العامّة السوفياتيّة عبر هاتف آمن لتلقّي التعليمات بشأن الدخيل الجوّي الذي كشف عن وجوده على شاشة الرادار، بيد أنّ الهاتف الآمن كان معطّلاً، وبعد ثلاث محاولات فاشلة، لجأ المسؤول السوفياتيّ إلى خطّ مفتوح من الخطوط المراقبة طبعًا من قبل وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة، ونتيجة ذلك، حصلت الوكالة على نسخات مفصّلة عن كثير من المحادثات المهمّة التي دارت في أثناء الحادثة.

ولقد واجهت الولايات المتّحدة أيضًا مشكلات ناجمة عن أعطال في أجهزة أمنيّة. فقد أدّى عطل في معدّات طائرة الرئاسة عام ١٩٨٥ إلى تمكين هواة الاتّصال اللاسلكي، وتمكين السوفيات كما يُفترض، من التنصّت على المناقشة التي دارت بين الرئيس ريغن ووزير الدفاع واينبرغر بشأن خطط عسكريّة مفصّلة.

والسبب الثالث للاختراقات الأمنيّة يعود إلى الاتّصالات المرسلة المشفّرة أساسًا لكنّها مكشوفة بسبب انكشاف إجراءات التشفير بحدّ ذاتها. من ذلك على سبيل المثل قضيّة المعاون البحري الأميركي "جون ووكر" وصديقه كاتب الشيفرة البحريّ "جيري

ويتورث". فقد مرّر الإثنان معلومات مهمّة عن الشيفرة الأميركيّة إلى الاتّحاد السوفياتيّ لمدّة عشر سنوات ، واستطاع السوفيات في هذه الأثناء كشف وتسجيل آلاف الاتّصالات الحسّاسة المشفّرة التي كانت تصدر عن مراكز الاتّصالات البحريّة الأميركيّة.

في الأزمات، يمكن لمصادر الاختراقات الأمنيّة الثلاثة أن تزوّد الدولة بمعلومات ثمينة عن نيّات العدوّ، وفي الواقع، حتّى إذا كانت الدولة لا تفهم معنى المعلومات المستقاة بسبب رموزها، فإنّ ازدياد وتيرة انتقال المعلومات من مواقع حسّاسة وإليها، يمكن أن يُعتبر ذا معنى بحدّ ذاته. وكما قال أحد الكتّاب: "إنّ زيادة حادّة في حركة السير من تيوراتام وإليها، على سبيل المثال، قد تشير إلى أنّ عمليّة إطلاق فضائيّة ستجري حتمًا، وإنّ تبدّلاً مفاجئًا في نظام تشفير رفيع المستوى أو تغييرًا غير عاديّ في أولويّات الوحدات المركّزة على امتداد الحدود مع أفغانستان قد يدلّ على نشوب أعمال قتاليّة"...

يمكن لاستخبارات الإشارة أن تكون وسيلة ذات قيمة خاصّة كان يستطيع السوفيات بواسطتها توقّع قيام حلف "ناتو" باستخدام أسلحة نوويّة في أوروبّا قبل غيرهم. وقد كُشفت مضامين اتّصالات حلف ناتو في حقبات مختلفة منذ منتصف خمسينات القرن العشرين على الأقلّ. وتشير وثائق كُشف النقاب عنها مؤخّرًا إلى أنّ أجهزة تنصّت سريّة قد اكتُشفت في قاعة المؤتمرات الرئيسيّة في مقرّ القيادة الأوروبيّة عام ١٩٥٦. وكُشف في الوقت عينه عن أنّ ١٤ هاتفًا على الأقلّ كانت في مقرّ القيادة مجهّزة برادارات Jumper Circuits أبقت الهواتف "حيّة" في أثناء ذهاب عمّال أجهزة الاستقبال على مهاجعهم. بعد ذلك بنحو عشر سنوات، تبيّن أنّ نائب رئيس قسم الخدمات اللوجستيّة في حلف ناتو، وهو ألمانيّ غربيّ برتبة فريق بحري، كان عميلاً

لدى موسكو. والواضح أنّ عمليّات ناتو كان يعتريها الوهن. وقد أكّد الرئيس المساعد السابق لهيئة الأركان لشؤون الاتّصالات والإلكترونيّات في مقرّ القيادة العليا للقوى المتحالفة في أوروبّا أنّ "اتّصالات الناتو كلّها ملتقطة بالفعل بصورة يوميّة".

إنّ القيادات الأميركيّة الثلاث الموحّدة والمهيّأة لتوجيه ضربات نوويّة والمشاركة في مهمّات حلف ناتو هي: قيادة الأطلسي، القيادة الأوروبيّة، والقيادة الجويّة الاستراتيجيّة. وفي حال حصول مواجهة، يمكن لهذه القيادات استخدام أربعة أنظمة رئيسيّة طلبًا لتفويضٍ باستخدام أسلحة نوويّة. والأنظمة هي: النظام المحسّن لبثّ الرسائل آليًّا في حال الطوارئ، ونظام الشبكة الآليّة الرقميّة AUTODIN، ونظام شبكة الاتّصال الآليّ الآمن AUTOSECVON، والنظام الأوروبّي للقيادة والسيطرة. وعلاوة على ذلك، يمكن استخدام أربعة من أنظمة الاتّصالات الخاصّة بالحلف: نظام الحالة والسيطرة والتنبيه والتقرير، ونظام برنامج تحسين النشر الاختياري، ونظام الاتّصالات على نطاق حلف ناتو، ونظام برنامج اتّصالات الطيّارين الآمنة. والأنظمة جميعًا آمنة، بيد أنّ الاجراءات الخاصّة بإطلاق أسلحة نوويّة من أجل الحلف يمكن أن تستغرق وقتًا طويلاً قد يمتدّ ساعات، وقد تقضي الاستعانة بأشخاص مختلفين واتّصالات تحضيريّة تقلّل من ضمان سلامة الأمن. وقد شرح القائد الأعلى السابق لقوّات الحلف في أوروبّا، الجنرال "برنارد روجرز"، الإجراءات التي قد يلجأ إليها للحصول على إذن بإطلاق أسلحة نوويّة في أوروبّا، فقال:

"النظام المتّبع الآن هو أن أتوجّه إلى السلطات السياسيّة في مقرّ قيادة ناتو ومعي الطلب. وأتوجّه أيضًا إلى وزراء دفاع الدول كافّة وإلى القوّتين النوويّتين في وقت واحد ومعي طلب السماح بالإطلاق. لكن قبل ذلك، سيكون هنالك رسالة إنذار بأنّي قادم كي أطلب إذنًا بالإطلاق على الأرجح. وحتّى قبل ذلك، ولوضع السلطات

السياسيّة في أجواء الطلب، سأكون قد أرسلت إليها ما قد أسمّيه "إشعارًا مبكّرًا"، لذا، فإنّ سلسلة من الخطوات تكون قد اتّخذت".

ولذلك، لا عجب من أنّ السوفيات كانوا غالبًا قادرين على توقّع تمارين حلف ناتو المتعلّقة باستخدام أسلحة نوويّة على حدّ ما قاله مسؤول في الكونغرس الأميركيّ:

"عندما كنت أحضر تمارين "ريفورجر" لعام ١٩٧٦، كنت أتبادل الحديث مع مشاركين في الميدان. وأبلغني أولئك المشاركون أنّ دورة تقديم طلب الإذن باستخدام أسلحة نوويّة تكتيكيّة تكتمل بعد مضيّ ١٢ أو ١٣ أو ١٤ ساعة من موعد تقديم الطلب. ولكي يحرجنا السوفيات الذين ينصتون إلى اتّصالاتنا هناك كليًّا، أعلنوا قبل أن نعلن نحن بساعتين، أي قبل حصول قوّاتنا على الموافقة، أنّ حلف ناتو سيستخدم أسلحة نوويّة في أثناء التمرين".

لكن تجدر الإشارة إلى أنّ مشكلات التأخّر في اتّخاذ القرار، وهي مشكلات مرتبطة بتفرّق الأسلحة، كان من المفترض أن تتضاءل بعض الشيء عند تنفيذ اتّفاقيّة الأسلحة النوويّة متوسّطة المدى.

فبحسب الصواريخ "بيرشيتغ ٢" والصواريخ المجنّحة "كروز"، التي تطلق من قواعد بريّة، كان من المقرّر أن يعتمد حلف ناتو على الضربات النوويّة التي توجّه بواسطة الطائرات وعلى الأسلحة النوويّة قصيرة المدى كقذائف المدافع النوويّة. وبالنسبة إلى الطائرات، فإنّ الرؤوس النوويّة كان من المقرّر أن تكون معدّة هي والطائرات معًا... حتّى في زمن السلم.

لكن، في ضوء ما كان يملكه السوفيات من إمكانات في ميدان استخبارات الإشارة، فإنّ تباطؤ ناتو في قرارات استخدام السلاح النوويّ قبل الاتّحاد السوفياتيّ كان سيتيح للسوفيات إنذارًا استراتيجيًّا يمكّنهم من توجيه ضربة مسبقة.

الاتّصالات المتعلّقة بالقوّات الاستراتيجيّة كانت معرّضة بدورها للإخفاق. وقد شكا "دونالد لاثام"، المساعد السابق لوزير الدفاع في شؤون القيادة والسيطرة والاتّصال والمعلومات C-31، من أنّ الروس "يجعلوننا لقمة سائغة في مجال أمن الاتّصالات الميدانيّة، وعلى المستوى الاستراتيجيّ، وفي مجالات الاتّصالات بين شركات صناعة الأسلحة. وفي سبعينات القرن العشربن على الأقلّ، وصف مسؤولو البنتاغون اتّصالات القيادة الجويّة الاستراتيجيّة بأنّها ليست موثوقة ولا آمنة ولا قابلة للحياة. وهذه ليست نقيصة محصورة بالأميركيّين.

فالاتّصالات بين قيادة الاسطول السوفياتي والغوّاصات السوفياتيّة المسلّحة بصواريخ بالستيّة كانت في ما مضى تحت مراقبة واشنطن. وقد نبّهت هذه المرقبة مسؤولي البنتاغون إلى واقع حدوث انفجار في غوّاصة سوفياتيّة من فئة "بانكي" ١٩٨٦. وفي أثناء تجربة المحلّل الإلكتروني "رونالد بلتون" في وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة، كشف عن أنّ الوكالة زرعت جهاز تنصّت داخل السفارة السوفياتيّة في موسكو، واسترقت السمع إلى كابل اتّصالات ممتدّ تحت سطح البحر بين الساحل السوفياتي الشرقيّ وشبه جزيرة كامتشاتكا، وقد يسّر ذلك للوكالة التقاط معلومات قيادة وسيطرة كانت تتدفّق "من أعلى المستويات السوفياتيّة إلى المستويات التي تليها".

في الولايات المتّحدة، تُرسَل أوامر التنفيذ الاستراتيجيّة النوويّة على هيئة رسائل عمل طارئة EAMS. وتُتخدم هذه الرسائل أيضًا في توجيه التبديلات في حالة الجهوزيّة الدفاعيّة لقيادة أو أكثر من القيادات المحدّدة، وفي اختيار الاتّصالات، كما تستخدم كجزء من أعمال المحاكاة الحربيّة. وتُعتمد في الوسائل أشكال ووسائط اتّصال خاصّة لتسريع تدفّق المعلومات. وكان باستطاعة الولايات المتّحدة التقاط هذا النوع من الرسائل بسهولة إذا كانت صادرة عن الاتّحاد السوفياتيّ. والعكس صحيح، بل إنّ هواة

الأجهزة اللاسلكيّة ذات الموجات القصيرة في الولايات المتّحدة اعتادوا مراقبة عمليّات بثّ رسائل القيادة الجويّة الاستراتيجيّة. وجاء في تقديرات مسؤولين عسكريّين أميركيّين تتعلّق بقدرات استخبارات الإشارة السوفياتيّة خلال حرب تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٧٣ أنّ السوفيات لم يجدوا صعوبة تُذكر في التقاط رسائل العمل الطارئة الأميركيّة. وعادة، تُبَثّ هذه الرسائل المهمّة برموز خاصّة منعًا لكشف مضمونها حتّى وإن تمّ التقاطها، "على الرغم من أنّه خلال حرب ١٩٧٣ كانت رسالة عمل طارئة واحدة على الأقلّ، وهي الرسائل التي بُثّت في ١٠/٢٦ قد شُفّر الحرف الأوّل منها فقط في حين بُثّت الحروف الأخرى في نصّ واضح". وفي الماضي، كان باستطاعة العدوّ أن يميّز بين الرسائل المرسلة بهدف فحص الاتّصالات فقط وبين الرسائل التي أدّت إلى أعمال عسكريّة لدى متلقّينها.

والواضح أنّ هذا العيب قد تمّ تلافيه إلى حدّ بعيد. لكن، قد لا يزال بعض المعلومات يُلتقط من اتّصالات استراتيجيّة أميركيّة مشفّرة. ففي عام ١٩٨٦، مثلاً، تمّ نقل معلومات سريّة للحكومة الأميركيّة عبر خطوط هاتفيّة تجاريّة غير آمنة من مركز حاسبات إلكترونيّة إلى آخر. وكانت المعلومات تتعلّق بأوامر إطلاق صواريخ نوويّة والطرق الجويّة لقاذفات في زمن الحرب. وإذا كان من غير المؤكّد ما إذا استطاع السوفيات التقاط المعلومات أم لا، فلا ريب أنّ الحادث يظهر كم هو ممكن تسرّب مثل هذه المعلومات المهمّة، وكم هو خطر.

قبَيل نهاية حقبة الحرب الباردة بانفراط عقد الاتّحاد السوفياتي، بدا من غير المرجّح أنّ أيًّا من القوّتين العظميين ستكون قادرة على توجيه ضربة مسبقة على أساس مضامين رسائل العمل الطارئة التي تشير إلى أنّ الخصم يوشك أن يشنّ حربًا نوويّة استراتيجيّة. فاعتراض مثل هذه الرسائل وفكّ رموزها لم يكن مقدّرًا أنّهما

سيكونا بهذه السرعة الكافية على الأرجح. والضربة المسبقة الناجحة كانت تتطلّب من أحد الطرفين التقاط رسائل العدوّ وتحليلها، ثمّ إصدار أوامره الخاصّة وإطلاق صواريخه، ثمّ تدمير العدوّ أو نزع سلاحه قبل أن يتمكّن من استقبال الرسالة الطارئة وتوجيه ضربته. وما دام بوسع القوّات في كلّ من الجانبين استقبال أوامر شنّ حرب نوويّة وتنفيذها في غضون دقائق لا عشرات الدقائق، فإنّ الضربة المسبقة كانت معضلة كأداء، نظرًا إلى أنّ الترسانات النوويّة الضخمة والمعرّضة للضرر نسبيًّا والمنشورة من قبل كلّ من القوّتين العظميين، قد تضاءلت بشكل ملحوظ، والبعض يقول إنّها اختفت، قبل انتهاء أجل الاتّحاد السوفياتيّ، وثمّة إجماع بين الخبراء مؤدّاه أنّه على الرغم من نجاح ضربة مسبقة في تعطيل القيادة والسيطرة وتدمير بعض الأسلحة النوويّة المركّزة على الأرض، فكان بمقدور الجانب المضروب شنّ هجوم مضادّ مدمّر وإن كان غير منسّق[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٥١ ـ ٦٢.

الـ CIA بين الخارق والواقع

يعزو الكثيرون في الولايات المتّحدة والعالم إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة قدرات خارقة ويحيطونها بهالة كبيرة من المهابة والمعرفة، ويستغربون عندما تخفق هذه الوكالة في توقّعاتها أو تنبّؤاتها بالتطوّرات، وقد لا يصدّقون ذلك.

أيضًا، بعض الرؤساء الأميركيّين يذهبون في بعض الأحيان إلى حدّ أبعد من اللازم، ويتجاوزون الواقعيّة في تقديمهم لمراكز المعلومات، التي تضخّ تقاريرها إلى إدارتهم ومن بينها وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة... وكان الرئيس جورج بوش الأب، الذي عمل سابقًا نائبًا لرئيس الاستخبارات الأميركيّة، هو أحد الذين يتّكلون على معلومات الوكالة المركزيّة وإن بشكل جزئيّ، مثله في ذلك مثل الرئيس الأميركيّ الأسبق الجنرال دوايت أيزنهاور. ولكن كلا الرئيسين، وقع أكثر من مرّة في مغالطات دوائر المعلومات المرسلة إليه، برغم أنّ كلاً منهما أبدى لرئيس الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة "سروره من النتائج التي ترتّبت على تقاريرها" بشكل إجماليّ.

فكيف يمكن تقييم الدور الذي كانت تلعبه دوائر المعلومات، ومن بينها الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة، في نهاية ثمانينات القرن العشرين، وتمييز المبالغة عن الحقيقة؟

وسط تساؤل كبير حول إخفاق وكالة الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة الـCIA في التنبّؤ ببعض التغييرات في الاتّحاد السوفياتيّ وأميركا اللاتينيّة، مثل قضيّة "ليتوانيا" وتفاعلاتها وتوقيتها، قال أحد المسؤولين المقرّبين من الرئيس الأميركيّ جورج بوش

الأب، إنّ قدرة دائرة الاستخبارات الأميركيّة جيّدة في تحليل اتّجاهات التطوّرات السياسيّة بناء على المعلومات التي تجمعها، لكنّ قدرتها ضعيفة عندما يُطلب منها تحديد توقيت هذه التطوّرات التقريبيّ. فقد كانت الـ CIA تتوقّع وقوع الأحداث التي جرت في دول أوروبّا الشرقيّة يومذاك، ولكنّها أخطأت عندما توقّعت حدوثها بعد عشر سنوات...

من ناحية أخرى، يرى "فرد إيغل"، سكرتير وزارة الدفاع الأميركيّة في عهد الرئيس الأميركيّ الأسبق رونالد ريغن، أنّ وكالة الاستخبارات الأميركيّة تجمع عددًا كبيرًا من المعلومات وتنظّمها على نحو صحيح، ولكن ما تتبنّاه من تقديرات يكون غالبًا غير صحيح.

لا شكّ في أنّ البريق حول قدرات الـ CIA خفّ بشكل ملحوظ في أعقاب الفضائح المختلفة التي طالتها في خلال العهود الأميركيّة الرئاسيّة المتتالية. فمن أزمة التورّط الأميركيّ في فيتنام بناء على معلومات الاستخبارات، التي اعتبرت الأمر نزهة وتبيّن في ما بعد أنّه الجحيم بعينه، إلى فضيحة "ووتر غيت" وبعدها فضيحة "إيران غيت"... ثمّ فضيحة تصفية "وليام كيسي" رئيس الاستخبارات الأسبق... بدأ الناس ينظرون إلى الوكالة المركزيّة الأميركيّة للاستخبارات نظرة مختلفة.

وقد دار في نهاية ثمانينات القرن العشرين جدال واسع النطاق على مستوى الرأي العام الأميركيّ بشأن تقديرات الاستخبارات الأميركيّة حول مدى قوّة الاقتصاد في الاتّحاد السوفياتيّ، وهو جدال حسمته تعليقات الخبراء السوفيات الذين قالوا إنّ نتائج تقارير الاستخبارات الأميركيّة بشأن الاقتصاد السوفياتيّ "كثيرة التفاؤل"، وبيّن ذلك ضعف تقديرات الاستخبارات الأميركيّة في هذا المجال.

الشيء الذي كان أكيدًا في تلك المرحلة هو أنّ الـ CIA فقدت "دفّة القيادة" بالنسبة للتوقّعات، خصوصًا تلك المتعلّقة بالتطوّرات التي كانت تأخذ طريقها في الاتّحاد السوفياتيّ وأوروبّا الشرقيّة. وعلّق "كينيت إيدلمان" رئيس لجنة "نزع التسلّح ومراقبة الأسلحة" بأنّ قدرات الـ CIA جيّدة جدًّا في تقدير التطوّرات التكنولوجيّة الحديثة بناء على المعلومات التي تصلها، ولكن عندما يتعلّق الأمر بمعرفة طبيعة القرار الذي يمكن أن يتّخذه غورباتشوف، مثلاً، وهل هو يميل إلى السلب أم إلى الإيجاب بالنسبة لأمر ما، فإنّ تقديراتها هي أقرب إلى ما يدركه محلّلو السياسة المتطوّرو العلم والمعرفة، وليس أكثر.

والجدير بالذكر أنّ الـ CIA هي واحد فقط من أصل حوالى دزّينة من الدوائر الاستخباراتيّة الأميركيّة الأخرى، التي يعمل كلّ منها على حدة حينًا، ومجتمعًا أحيانًا أخرى. ومنذ ستّينات القرن العشرين، بدأت الـ CIA في الاعتماد أكثر فأكثر على المعلومات والتحاليل التي كانت تجمعها من مراكز التنصّت الإلكترونيّ والمحطّات التابعة للأقمار الاصطناعيّة أكثر من اعتمادها على التقارير التي تحصل عليها من عملائها وجواسيسها في مختلف أنحاء العالم.

قد يفسّر هذا الأمر لماذا كانت الـCIA عاجزة قبل مجيء "ميخائيل غورباتشوف" بسياسته الانفتاحيّة القائمة على المكاشفة والمصارحة. فالاتحاد السوفياتيّ كان دولة قائمة على "السياسات السريّة" في مختلف المجالات سواء السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة. ولذلك فإنّه عندما كان الأمر يتعلّق بقدرات الأقمار الاصطناعيّة والمحطّات الفلكيّة على تصوير ورصد التطوّرات العسكريّة داخل الاستخبارات الأميركيّة، كان ذلك يجري بشكل لا بأس به، ولكن عندما كان الأمر يتعلّق بمعرفة القرارات المحتملة والأفكار والتصوّرات للمسؤولين السوفيات، فإنّ أجهزة التنصّت

الإلكترونيّة كانت تقف عاجزة، نظرًا للسريّة التامّة التي كانت تدور فيها المباحثات حول هذه الأمور...

كذلك فإنّ تقديرات الـ CIA لقوّة الاقتصاد السوفياتيّ في تلك الحقبة، كانت ما زالت تراوح في لجّة من عدم الوضوح.

فقد أشار تقرير للوكالة خلال سنوات الثمانينات من القرن العشرين، أنّ الناتج الإجمالي السوفياتي يساوي تقريبًا نصف قيمة الناتج الإجمالي الوطنيّ الأميركيّ. وعلى هذا الأساس تمّ حساب الإنفاق العسكري للكرملين خلال المدّة نفسها، ولكنّ التقديرات كانت خاطئة.

إذ إنّه حتّى لو كان الاقتصاد السوفياتيّ ضعيفًا، وإلى حدّ يفوق تصوّرات الوكالة الأميركيّة، إلاّ أنّ السوفيات كانوا دائمًا يعطون أولويّة قصوى للإنفاق العسكريّ، إلى حدّ فاق كلّ توقّعات الوكالة بمدى بعيد، وكانت المخصّصات الماليّة للدفاع السوفياتي مذهلة، إلى حدّ جعل كلّ تقارير الوكالة الأميركيّة عن هذا الموضوع خاطئة.

ويأخذ بعض المحلّلين الاقتصاديّين اليوم بنظريّة مفادها أنّ الناتج الوطنيّ الإجمالي السوفياتي كان يمكن أن يشكّل ثلث نظيره الأميركيّ، وحتّى إذا كان ذلك صحيحًا، فلا يبدو منطقيًّا أو مقبولاً حساب الإنفاق العسكري السوفياتي، على أساس أنّ قاعدة نسبة ١٦٪ من الناتج الوطنيّ الإجمالي تؤخذ كأساس لتقدير قيمة الإنتاج العسكريّ في الدول الكبرى.

لذلك بدت النتائج نظريّة، إلى معدّل بعيد عن تقويم تقارير الـ CIA لهذه الأمور وغيرها. بمعنى آخر، إنّ هذه التقارير غالبًا ما كانت بعيدة عن الحقيقة نسبيًّا وأحيانًا خاطئة. إذ لو كان لميخائيل غورباتشوف، وحتّى لغيره من الزعماء السوفيات، خشية

فعليّة من انهيار الاقتصاد السوفياتي، لكانت مواقفهم التفاوضيّة في مجالات تحديد التسلّح أكثر ضعفاً[1].

هذا ما قيل عن تقارير الـ CIA حول توقّعات الوكالة لمستقبل الاتّحاد السوفياتيّ في نهاية ثمانينات القرن العشرين، ولكن النتائج المباغتة لمصير عقد الاتّحاد السوفياتيّ قد أدهشت منتقدي تقارير الوكالة، وبيّنت أنّ الوكالة لم تكن مخطئة في حساباتها... ومع هذا، فقد انتقد بعض الباحثين التناقض الذي يقع فيه أحياناً معدّو تقارير وكالة الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة وتقارير دائرة الاستخبارات العسكريّة في وزارة الدفاع الأميركيّة. فقد برز التباين في هذه التقارير عبر كلام أبلغه في حينه رئيس الوكالة "ويليام وبستر" إلى الإدارة مفاده أنّ التغيّرات التي شهدتها أوروبّا الشرقيّة هي على الأرجح "نهائيّة"، أي لا يمكن أن تعود عنها هذه الدول أو تلغيها، وهي لذلك قد تتقارب أكثر مع المعسكر الغربيّ والولايات المتّحدة...

في المقابل، كان تقرير دائرة استخبارات وزارة الدفاع الأميركيّة مناقضاً إلى حدّ ما لتقرير الاستخبارات المركزيّة، فوزير الدفاع الأميركيّ "ديك تشيني" أشار إلى أنّ الوضع بالنسبة لدول أوروبّا الشرقيّة لم يصل إلى هذا الحدّ، فيما أشار تقرير آخر إلى أنّ الاتّحاد السوفياتيّ لا يمكن أن يترك دول أوروبّا الشرقيّة تنزلق من تحت سيطرته، وأنّه سيبقى يلازمها على نحو دائم.

آخذين بعين الإعتبار ما آلت إليه الأحوال في الاتّحاد السوفياتيّ، ما أكّد على صحّة مضمون توقّعات الوكالة المركزيّة، فلا ريب أنّ النظريّة الأكثر قبولاً حين وضع تلك التقارير، حول قدرة الاستخبارات الأميركيّة، كانت تقول بأنّ تقاريرها كانت

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص١١٩ ـ ١٢٢.

على مستوى مقبول وليس أكثر، على مدى سني الحرب الباردة. وهناك دائمًا أشياء لا يمكن لأيّ استخبارات مهما بلغت قدرتها تقديرها. فبالنسبة مثلاً للانتاج العسكريّ السوفياتيّ، كان من الصعب جدًّا معرفة حجمه الحقيقيّ.

وكما أشار أحد الخبراء القدامى في الاستخبارات الأميركيّة، فإنّ هناك فرقًا بين الأسرار والألغاز في تقدير الأمور. فالأسرار هي عبارة عن أسئلة يمكن أن يجيب عليها شخص ما بنسبة أو بأخرى، أمّا الألغاز فهي بمثابة أسئلة لا يعلم أجوبتها إلاّ الله وحده... وواضح أن الفرق كبير بين المسألتين[1].

---

١ ـ راجع: وود جان، جواسيس للبيع، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

التّنازُع على أميركا اللاتينيّة في الثمانينات

قادت الخيبات التي لاقاها الـ K.G.B في أفريقيا وفي الشرق الأوسط خلال سبعينات القرن العشرين إلى تركيزه على أميركا اللاتينية في بداية الثمانينات. فجرى مؤتمر ضباط كبار في "المركز" بموسكو عام ١٩٧٩ برئاسة كريوتشكوف حكم في نتائج الماضي القريب وحدّد الأولويات الإجمالية للسنوات المقبلة.

يعود التدخّل الرئيسيّ إلى نيقولاي ليونوف المسؤول عن المصلحة ١ (تقارير) في الـ PDG والذي كان أوّل من أدرك، منذ أكثر من ٢٠ عامًا، قدرة كاسترو كقائد ثوريّ. ركّز على الإمكانيات الجديدة المفتوحة أمام نموّ عمليّات الـ K.G.B وعلى استغلال نقائص "العدوّ الرئيسيّ" في أميركا اللاتينية. وأيّد السفير المقيم في فنزويللا بحماس وجهة نظر ليونوف. فقد دعا كلاهما إلى دعم حركات التحرّر غير الشيوعية التي يمكن، مثل حركة كاسترو، أن تستولي على السلطة وتتحوّل بعد ذلك إلىحلفاء ذوي مكانة للاتحاد السوفياتي.

رغم ذلك، جرى حادث عام ١٩٧٩ في علاقات المركز مع كاسترو. فقد اكتشفت مصلحة التجسّس الكوبية وجود عميل للـ K.G.B في كوبا ينقل بواسطة الراديو تقارير مُرَمَّزَة إلى موسكو ممّا يتناقض مع اتفاق سوفياتي ـ كوبي حول الاستعلامات يمنع بشكل قاطع أيًا من الفريقَيْن من القيام بنشاطات تجسسيَّة ضد الآخر. أُحرج المركز للغاية واضطرّ لتقديم اعتذاره علانية...

كان كاسترو مع ذلك مدافعًا وبليغًا عن السياسة السوفياتية الخارجية، حتى خلال احتلال أفغانستان، وكان تأثيره يزداد في العالم الثالث.

في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٩، استقبل كاسترو في هافانا مؤتمر حركة دول عدم الانحياز. ورغم أنّ ٩٢ رئيس دولة شاركوا فيه، بقي كاسترو تحت الأضواء.

في السنوات الثلاث التالية، ترأس كاسترو الحركة... وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٩، ذهب إلى نيويورك محضرًا معه شراب الروم (عرق قصب السكر) وكركند، من أجل استقبال ضخم في المبنى المكوّن من ١٢ طبقة والذي يأوي البعثة الكوبية لدى الأمم المتحدة (وهي البعثة الأهمّ بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والقاعدة الرئيسية لعمليات مصلحة التجسّس الكوبية في الولايات المتحدة). وقام بمرافعة متحمّسة في خطاب دام ساعتين أمام الجمعية العامة من أجل أن يعطي "الإمبرياليون الأغنياء" إلى العالم الثالث ٣٠٠ مليار دولار في السنوات العشر القادمة[١].

بدا أنّ التطوّر السياسيّ في أميركا الوسطى يتّجه نحو كاسترو آنذاك. وفي آذار ـ مارس ١٩٧٩، استولى على السلطة نظام موالٍ لكوبا في الجزيرة الصغيرة غرانادا، بإدارة المحامي الماركسيّ ـ اللينينيّ موريس بيشوب. وتثبت مستندات سرية حصلت عليها أميركا عند احتلالها للجزيرة عام ١٩٨٣ أنّ ماركسية بيشوب هي نوع من ماركسية أعلنها طالب ثوري فرنسي سابقًا: "مزاج غروشو"...

يقول بيشوب: "أنظروا فقط، أيّها الرفاق... كيف أنّ البشر معتقلون في هذا البلد. لن نطلب تصويتًا. نحن معتقلون حين أوقّع أمرًا بعد مناقشته مع اللجنة الوطنية للأمن

---

١ - Szulc, *Field A Critical Portrait*, Hutchinson (London,1987), pp. 533-534.

في الحزب أو مع عضو كبير في الحزب. بعد أن أوقّعه - إن راق ذلك أم لم يرُق -، لم تعد هذه مشكلتهم".

بعد ترددات أوّلية انتُصر عليها جزئيًا بفضل الإقناع الكوبيّ، أعطت موسكو غرانادا مساعدة عسكرية ضخمة. في بداية ١٩٨٢، كتب الجنرال الغرانادي هودسون أوستين إلى أندروبوف ليشكره "مرة أخرى على المساعدة الرائعة التي تلقّتها قواتنا المسلّحة من حزبكم وحكومتكم"، وليطلب أن يتابع أربع ضباط استعلامات من غرانادا إعدادًا[1].

كان قلْب الديكتاتورية القاسية والفاسدة لسوموزا في نيكاراغوا من قبل جبهة التحرير الساندينية بعد أربعة أشهر من استلام بيشوب للسلطة في آذار - مارس ١٩٧٩ معبّرًا أكثر بكثير. ورغم الدعم الكوبيّ ومرافعات ليونوف، لم تسارع موسكو فورًا لمساعدة الساندينيين. ورغمًا عن استقبالها بطيبة خاطر دعمهم عند احتلال أفغانستان، ورغمًا عن تقديرهم لنشيدهم الذي يفضح "اليانكي" "كأعداء للإنسانية"، فقد استمرّ الكرملن خلال عامين بتغذية الأمل بأن يحلّ الحزب الشيوعي النيكاراغوي الصغير، لكن المستقيم، محلّ الساندينيين المتعدّدي العقائد، كقوة مهيمنة في النظام الجديد.

في نهاية عام ١٩٨١، أقنعت تقارير الـ K.G.B وكاسترو الكرملن رغم ذلك بأنّ السندينيين ثوريون حقيقيون سيتبعون الطريق الكوبية في الولاء تجاه الاتحاد السوفياتي. وبمساعدة السوفيات والكوبيين، زاد السندينيون الجيش النيكاراغوي، في ٦ سنوات، من ٥,٠٠٠ إلى ١١٩,٠٠٠ رجلاً، جاعلين منه أقوى قوة عسكرية في تاريخ

---

[1] Romerstein Herbert, *Some Insghets Derived From the Grenada Documents*, in Bark, (ed.). Red - Orchestra, vol. I: *Instruments of Soviet Policy in latin American and the Caribbean*, Hoover Institution Pres (Stanford, 1986).

أميركا الوسطى (رغم الدعم الأميركي، لم يتعدَّ عدد مغاوير كونترا أبدًا الـ ٢٠,٠٠٠ حسب التقديرات الأكثر تفاؤلاً). ولم يمض وقت طويل حتى عقد المركز اتفاق استعلامات مع مانغوا، وأرسل ضابطًا من المديرية ٢٠ لإقامة علاقة مع "أصدقائنا النيكاراغويين" (لغة خاصّة للـ K.G.B مع مصالح الاستخبارات الصديقة). وحسب "ميغيل بولانوس هانتر"، وهو منشقّ عن مصلحة الاستخبارات النيكاراغوية، فإن رئيس هذه المصلحة كان ضابطًا في مصلحة التجسّس الكوبية ويستعمل الاسم المستعار "رينان مونتيرو". أعطى المركز ٧٠ مستشارًا وأنشأ مدرسة نيكاراغوية لأمن الدولة. من بين التسهيلات المعطاة من نيكاراغوا بالمقابل، كان يوجد مواقع لأربع قواعد اعتراض ـ تفكيك سوفياتية..

صبَّ الهيجان غير الفعَّال لجواب إدارة ريغان على الثورة الساندينية، لصالح السندينيين والمركز الموسكوفي. فمساعدة الولايات المتحدة للكونترسن وانكشاف ضلوع الـ CIA عام ١٩٨٤ في تلغيم مرافئ نيكاراغوا بالإضافة إلى تدمير خزانات البترول في كورينتو، قوَّضت مبادئ حقوق الإنسان والإدارة الاقتصادية السيئة؛ وأطلقت موجة معادية للتآمر في أميركا اللاتينية وفي خارجها، وأعطت لنضال الساندينيين ضد "الإمبريالية الأميركية" دعمًا عالميًا.

رغمًا عن شعبيته الخاصة، لم تقنع نداءات ريغان من أجل زيادة المساعدة للكونتريين لا الكونغرس ولا الرأي العامّ الأميركي[1].

---

١ - Pastor Robert A., *Condemned to Repetition: The United States and Nicaragua*, Princeton University Press (Princeton,1987) chap. 12.

توقفت المساعدة رسميًا عام ١٩٨٤، وأوقعت المحاولات السريّة لاستمرارها البيت الأبيض في مأساة هزلية طويلة من الفضائح (إيران غيت، كونتراغيت) أسعدت "المركز". في هذا الوقت، تمتع نيقولاي ليونوف بالمجد الذي استحقّه بسبب نفاذ بصره حول أميركا الوسطى. فبعد نجاحه منذ ١٩٧٩ بتحديد المنطقة كقاعدة أكثر من غيرها لانتشار عمليات الـ K.G.B، وبعد أن اكتشف كاسترو منذ ٢٥ عامًا، رُقّي عام ١٩٨٣ إلى رتبة رئيس معاون في الـ PDG مسؤولاً عن كلّ عمليات الـ K.G.B في أميركا الشمالية والجنوبية.

استمرّ التعاون السوفياتي ـ الكوبي بصدد الاستعلامات بالنموّ في التجسّس الكلاسيكيّ كما في الاعتراض ـ والتفكيك. وقد وصف الرئيس الأميركيّ ريغان القاعدة المشتركة للـ K.G.B ولمصلحة التجسّس الكوبية للاعتراض ـ التفكيك في لورد في كوبا على بُعد أقلّ من ١٠٠ ميل عن الشواطئ الأميركية، كـ"القاعدة الأكبر من نوعها في العالم" مع "هكتارات مزروعة بالهوائيات وبمجموعات تجسّس". وذلك عام ١٩٨٣. وحسب تقرير مشترك لمديريتي الدولة والدفاع بعد عامين، وُجِدَ في لورد حوالي ٢,١٠٠ فنّي سوفياتي: "انطلاقًا من مركز التنصّت المهمّ هذا، راقب السوفيات الأقمار الصناعية التجارية، الاتصالات البحرية العسكرية أو المدنية الأميركية وبرامج الناسا NASA في كاب ـ كانافيرال. وسمحت لهم لورد أيضًا بالاستماع إلى الاتصالات الهاتفية في الولايات المتحدة[1]".

---

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٦٣٩ ـ ٦٤٢.

في أوروبّا الغربيّة

ظهر مركزان مهمان بالنسبة للـ K.G.B في أوروبا الغربية في أواسط السبعينات. كان الأول المجموعة الاقتصادية الأوروبية (CEE). فحتى عام ١٩٧٦، أُعلم ممثلو الـ K.G.B المقيمون أنّ المجموعة، باختلاف معظم أعضائها من البلدان، لا تمثّل إلاّ فائدة ضعيفة؛ لم يكن عليهم الاستعلام إلاّ عن الأحداث ذات المدلول السياسيّ المهمّ.

وأدّى التقرير الذي وضعه، في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٧٥، رئيس الوزراء البلجيكيّ ليو تاندمانس إلى إعادة تقييم الـ PDG للمسألة. ففي الواقع، حثّ تاندمانس مجلس وزراء المجموعة على وَضْع حدّ للتناقض "الفُصاميّ" بين التوحيد الاقتصاديّ والتقسيم السياسيّ. وأكدّ أنّ المجموعة تحتاج خاصة إلى دفاع وإلى سياسة خارجية موحّدة. وقد تعاظم تأثير تقرير تاندمانس على "المركز" بسبب دلائل الاهتمام المتزايدة من قِبل الصينيين. في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٥، اعتُمد سفير من بكين للمرة الأولى في المجموعة الأوروبية وفَتَح سريعًا مفاوضات تجارية.

خلال صيف ١٩٧٦، توصّل كريتشكوف إلى الاستنتاج بأنّ تقرير تاندمانس والوجود الصينيّ في بروكسيل يثبتان وجود مؤامرة خطيرة معادية للسوفيات.

في تموز ـ يوليو ١٩٧٦، طلب منشور يحمل توقيعه (ممّا يعطي فكرة عن أهميته) إلى المراكز "تنشيط كل الإمكانيات العمليّاتيّة" للحصول بطريقة سريعة على الاستعلامات الأكمل الممكنة عن سياسة المجموعة الأوروبية. قال إنّه يوجد خطر حقيقيّ من تحوّل المجموعة إلى "كتلة سياسية ـ عسكرية تقودها قوى عدوانية وانتقاميّة". كانت المجموعة والصين قد ارتبطتا في تحالف معادٍ للسوفيات.

بعد شهر، نشر المركز نصًا أكثر تفصيلاً عن تهديد المجموعة المتزايد مبالغًا "كثيرًا" في مستوى التوحيد السياسي كما في احتمالات التوحيد العسكري.

استمرّ الـ PDG في إعطاء معنى سلبيّ للغاية لتقرير تيندمانس الذي يؤكّد بشكل فظيع استنتاجه بأنّ "الوحدة الأوروبية ستبقى مزعزعة طالما لا توجد سياسة دفاعية مشتركة". يؤكّد منشور آب ـ أغسطس ١٩٧٦ أنّ هدف المجموعة الرئيسيّ هو "تسف سياسات البلدان الاشتراكية الخارجية". وبحثت الأوساط القائدة في المجموعة" أيضًا وسائل تخريب النظام الاشتراكي الداخليّ. في النهاية، يشكّل الدعم الأميركي للوحدة الأوروبية دليلاً إضافيًا على أنّ مُجمل الظاهرة يشكّل جزءًا من مؤامرة معادية للسوفيات...

خلال السنوات التالية، عاد "المركز" بانتظام إلى نفس نظرية المؤامرة هذه. وفسّر منشور في ربيع ١٩٧٧ حتى برامج انتخابات البرلمان الأوروبيّ بالتصويت العامّ في السنة التالية كتهديد للاتحاد السوفياتي لأنها تهدف بالتأكيد إلى تسريع الوحدة السياسية. ويمكن أن نقرأ فيه أنّ المجموعة أصبحت "مركزًا منسّقًا من أجل أعمال جماعية، اقتصادية، سياسية وأيديولوجية تهدف إلى تقويض النفوذ العالميّ للاتحاد السوفياتي وللدول الأخرى في المنظومة الاشتراكية".

من أجل اكتشاف الطبيعة المحدّدة "لمخطط" المجموعة الأوروبية المعاديّ للسوفيات، كان من الضروريّ الوصول إلى مستنداتها السريّة. لم يكن من الممكن بلوغ هذا الهدف إلاّ بإنشاء "قاعدة عملاء صلبة" داخل الأعضاء الرئيسيين في المجموعة.

تلقّى جميع المبعوثين الأعضاء في الخارج، الأمر بتعيين ضابط كبير في الـ K.G.B، إجمالاً معاون السفير المكلّف بالخطّ PR (للاستعلامات السياسية)، من أجل

تنسيق العمليّات. ونصح "المركز" بأماكن واعدة بشكل خاصّ لتجنيد العملاء هي ثانوية بردجس الأوروبية، جامعة فلورنسا الأوروبية، ومعهد أمستردام الأوروبيّ. اعتقد الـ PDG أنّ الطلاّب حاملي الشهادات من هذه المؤسسات هم في وَضْع يمكّنهم من أنْ يصبحوا عملاء تسلل في بروكسل.

رغم ذلك، كان للضابط الذي ينسّق العمليات ضد المجموعة في كلّ مركز مهمّات أخرى كثيرة أشد رتابة. فعليه أن يرسل إلى "المركز" وعلى فترات منتظمة القوائم الهاتفية للأعضاء القادة، ولائحة الدبلوماسيين أو الصحافيين المُعتمدين، وكلّ التفاصيل حول رسميّي المجموعة الذاهبين إلى الاتحاد السوفياتي. أكّد "المركز" أيضًا ضرورة اتخاذ "تدابير فعّالة" من أجل إفشال الوحدة الأوروبية في الانتخاب العامّ. وتلقّت المراكز الأمر بنشر مفتريات في وسائل الإعلام تركّز على الخلافات بين مختلف أعضاء المجموعة من جهة وبين المجموعة والولايات المتحدة واليابان من جهة أخرى. واستمرّت مناشير أخرى بالتأكيد على الخطر المتمثّل بإنشاء "كتلة معادية للسوفيات" بين المجموعة الاقتصادية الأوروبية والصين.

رغم التضاربات بين الدول المجموعة وعدم تحقيق فكرة تاندمانس بسياسة دفاعية مشتركة، لم يضعف قلق "المركز" بخصوص الوحدة الأوروبية. فكانت نفس المواضيع تتردّد في مناشيره حتى رحيل غورديفسكي من الـ K.G.B ولا شك بعده.

في ربيع ١٩٨٤، أعاد منشور لفيكتور غروتشكو، المعاون الأوّل لرئيس الـ PDG والمكلَّف بأوروبا الغربية، نظرية المؤامرة المعدّة منذ عام ١٩٧٦ وببلاغة مدعّمة. وقال إنَّ التعاون المتزايد بين الصين والمجموعة هو سبب "الإنذار". فالمجموعة تضع خططًا لتقويض النفوذ العالميّ والوحدة السياسية للكتلة السوفياتية؛ وتشكّل برامج "المجموعات الرجعية" من أجل الوحدة العسكرية الأوروبية "خطرًا خاصًّا". واستنتج

غروتشكو أنّ "الوحدة الأوروبية تتناقض مع مصالح الاتحاد السوفياتي" على كلّ المستويات، واعتبر البوليتبورو (أو الإنستانتسيا في لغة الـ K.G.B الخاصّة) المجموعة الاقتصادية الأوروبية إحدى "الأهداف الرئيسية بصدد الاستعلامات"...

هذا الوضع المُعطى للمجموعة كهدف يعادل بأهميته التقديرية الولايات المتحدة (العدو الرئيسيّ" تقليديًا)، الـ OTAN والصين شكّل ضربة مضحكة مدفوعة لتقدّم الوحدة الأوروبية منذ توقيع معاهدة روما عام ١٩٥٧.

رغم غنى المعلومات الموجودة في "المركز" عن المجموعة الاقتصادية الأوروبية (التي تملك، على أيّ حال، أسرارًا على مستوى عال عليها حمايتها أقل بكثير من كل دولة عضوٍ فيها)، شعر "المركز" بعدم رضى عميق بالنسبة إلى نوعية المعلومات التي حصل عليها بواسطتها... واشتكى في لندن وبدون شك في مراكز أخرى في أوروبا الغربية من أنّ نوعية العمليات ضد المجموعة الأوروبية دون المتوسّط. وأُمرت كلّ المراكز، "بالاتفاق مع تعليمات الرفيق كريوتشكوف"، بتكثيف توغّل العملاء وكلّ أشكال جَمْع المعلومات في المجموعة. مع ذلك، لم تكن شكاوى المركز تعبّر عن نقص حقيقيّ في الاستعلامات، لكن بالأحرى عن عدم وجود براهين تدعم نظرية المؤامرة لديها. ورغم أنه لم يتلقّ تقارير مفصّلة عن المؤمرات المُحاكة في بروكسيل لتدمير دول أوروبا الشرقية، لم يستنتج أنّ هذه المؤامرت غير موجودة لكنه اعتقد أنّ مراكزه لم تقم بعملها. طلب كريتشكوف لعدة مرات "إجراءات أكثر" بصدد "التدابير الفعّالة" لكَبْح تقدّم الوحدة الأوروبية.

أولوية أخرى جديدة للمركز في أوروبا في أواسط السبعينات: الطرف الشماليّ، "السفالبارد"، وهو أرخبيل يضمّ السبيتز برغ وبحر بارنتس. رغم أنّ الجزيرة الرئيسية تحت السيادة النروجية، فإنه يحقّ للـ ٣٩ موقّعًا على معاهدة سفالبارد (١٩٢٠)

استغلال ثرواتها الاقتصادية. ويبدو أنّ اهتمام الغربيين المتزايد باحتياطات سفالبارد من الغاز الطبيعيّ والنفط بعد الأزمة النفطية في ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ شكّل بالنسبة "للمركز" تهديدًا استراتيجيًا كبيرًا. وأدّت المخاوف من أن تكون دَرّيكات الغربيين مجهّزة بآلات مراقبة لتحركات السُّفُن العائمة والغواصات، لأسطول الاتحاد السوفياتي الشماليّ، بالإضافة إلى المشاكل التي طرحها تعيين الحدود الجاري مع النروج لبحر بارنتس، إلى إنشاء لجنة وزاريَّة سوفياتية للقطب الشمالي برئاسة ن. أ. تيخونوف، نائب رئيس الوزراء الأول، وكان كريوتشكوف أحد أعضائها الرئيسيين، وذلك خلال شتاء ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦. واعتُبر جمع المعلومات عن النروج والقطب الشماليّ مهمًا لدرجة أنّ أندروبوف نفسه راقبه شخصيًا.

حين أنشئت اللجنة، كان "للمركز" عميلان كبيران في النروج؛ الأول يقترب من نهاية حياة عميل طويلة، والآخر يبدؤها بصخب. أول هذين العميلين غونفور غالتونغ هافيك، امرأة متوسطة العمر تعمل سكرتيرة في وزارة الشؤون الخارجية النروجية وقعت، منذ ٣٠ سنة، في حبّ أسير حرب روسيّ اسمه فلاديمير كوزلوف. اعتنت به في المستشفى حين كان النروج تحت الاحتلال النازي ثم ساعدته على الهروب إلى السويد. عام ١٩٤٧، أُرسلت في مهمة إلى السفارة النروجية في موسكو حيث جدّدت علاقتها بكوزلوف الذي كان قد تزوج في أثناء ذلك. واستخدمته الوزارة السوفياتية لأمن الدولة كطُعم. وبحسب إجراء مصقول جدًا، أُخضعت لمساومة وأصبحت عميلة سوفياتية عام ١٩٥٠ باسم اصطلاحيّ هو "فيكا". عام ١٩٥٦، عادت إلى النروج باسم اصطلاحيّ جديد هو "غريتا" واستمرّت في تلقّي رسائل من كوزلوف ومالاً من وسائطها. وفي عمر الـ ٢٧ سنة، كان لها أكثر من ٢٥٠ لقاء مع ٨ ضباط مفاوضين مختلفين أعطتهم آلاف المستندات السريّة. اكتشف غورديفسكي وجودها للمرة الأولى

حين أقام في كوبنهاغن في أواسط السبعينات ونبّه مصلحة المخابرات السرية في بريطانيا العظمى.

أُوقفت السيدة هافيك من قبل الأمن النروجي في ٢٧ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٧ في المساء بينما كانت تسلّم مستندات إلى وسيطها في تلك الفترة، ألكسندر كيريللوفيتش برنسيبالوف، في شارع مظلم في ضواحي أوسلو. قاوم برنسيبالوف بعنف قبل أن يعلن حصانته الدبلوماسية ويُفرج عنه. في جيبه، كان يوجد غلاف للسيدة هافيك يحوي ٢,٠٠٠ كورون بقطع نقدية من فئة الـ ١٠٠ كورون.

خلال عدة ساعات، لم تعترف هافيك إلاّ بقصّة حبّها مع كوزلوف وأكّدت أنّ هذه القصة تفسّر لقاءاتها بدبلوماسيين سوفيات؛ فقد كان هؤلاء يعطونها رسائل. بعد ذلك، سكتت، فكّرت ثم انتهت بأن أعلنت: "سأقول الآن كيف حدث ذلك: أنا جاسوسة روسية منذ حوالي ٣٠ سنة". وبعد ٦ أشهر، ماتت في السجن جرّاء أزمة قلبية قبل أن تُحاكم...

عام ١٩٧٨، أعطت المديرية ٣ في "المركز" إلى فيلبي تقريرًا منقحًا عن حالة هافيك بُدّل فيه الاسم والجنسية، وطلب تعليقاته. استنتج فيلبي أنّ التفسير الوحيد المعقول لتوقيف العميل هو وجود خُلْد داخل الـ K.G.B. بعد قراءة تقرير الجاسوس البريطانيّ، أعلن المسؤول عن المديرية ٣، فيكتور فيدوروفيتش غروتشكو، في اجتماع مع مجلس قيادته: "وهكذا، إذا كان فيلبي مُصيبًا، فإنّه يوجد خائن حتى هنا، في المديرية!" لحسن الحظ، غيّر غروتشكو الموضوع. كان غورديفسكي من بين الحضور. للمرة الأولى منذ المراقة، أحسّ بخوف عظيم واحمر وجهه، قام بمجهود ضخم ليحافظ على برودة أعصابه وليمنع خدوده من الاحمرار، كان فيلبي على وشك إنهاء وظيفته.

خلال استجواب هافيك، أحسّ الأمن النروجي أنّ الـ K.G.B لم يستغلّها تمامًا خلال الشهور السابقة. ووُلد الشك في وجود عميل أكثر أهمية أيضًا في وزارة الشؤون الخارجية.

كان النروجيون يملكون علامة أخرى مهمّة. فقد سمعوا زوجة ضابط شاب في الـ K.G.B في أوسلو، هو فلاديمير إيفانوفيتش زيزكين، تسأله بعد توقيف هافيك فورًا ما إذا كان أمر خطير قد جرى. فأجاب بمرح: "كان يمكن أن يكون أسوأ!"

كان العميل النروجي الأهمّ في المركز، آرن تريهولت، على نفس مثال جورج باك وهوغ هامبلتون: كان ضحية غروره كما كان ضحية الـ K.G.B. كان له من العمر حوالي ٣٥ عامًا حين أوقفت هافيك، أشقر، ذو مظهر حسن، نرجسيّ، متزوج للمرة الثانية من شخصية ساحرة في التلفزيون، واعتُبر بشكل عام أحد آمال الحزب العمالي النروجي الأكثر لمعانًا. حين كان طالبًا في العلوم السياسية، بدا حافزه الرئيسي معاداته للتأمرك. في نهاية الستينات، شارك في تنظيم حملات ضد المجلس السياسي العسكري الذي استلم السلطة في اليونان بدعم من الأميركيين. حسب اعتقاده، أصبح تريهولت مساعدًا لمتخصص مشهور في الحقوق الدولية هو جينس إيفرسن، الذي ترافع ضد المجلس السياسي أمام المحكمة الأوروبية.

لاحظه مقرّ أوسلو وبدأ بالاهتمام به. في كلّ لحظة، كان يلتذّ تريهولت بالاستسلام للإغراء، وقد أَخبرَ فيما بعد:

"كان لنا وجبات غداء رائعة تحدثنا خلالها عن السياسة النروجية والعالمية". تدريجيًا، توصّل الضابط الأوّل المتعامل معه وهو إيفجيني بيليايف الذي وجَّهَهُ من ١٩٦٨ حتى ١٩٧١، إلى قناعة بقبول المال في البداية من أجل معلومات قليلة الأهميّة.

قبل مغادرته أوسلو عام ١٩٧١، قدّمه بيليايف خلال غداء وداع في مطعم "الديك الذهبي" إلى وسيطه التالي جينادي فيدوروفيتش تيتوف الذي سيكون سفير الـ K.G.B في النروج من ١٩٧٢ حتى ١٩٧٧، وأُطلق على هذا الأخير اسم "التمساح"، وكان غير شعبي للغاية بين زملائه في الـ K.G.B ، لكن ليس بين رؤوسائه، وكان ومرهوبًا من مرؤوسيه باستثناء مجموعة صغيرة من المرتبطين به. ويذكره غورديفسكي كضابط الـ K.G.B الأكثر كراهة والأكثر تجرّدًا من المبادئ التقاه في حياته.

وُلد تيتوف عام ١٩٢٢ في كاريليا السوفياتية. كان عمره ٥ أو ٦ سنوات حين أعدمت مفوّضية الشعب في أمن الدولة (وهي مصلحة الأمن السوفياتية عام ١٩٤١ ومن ١٩٤٣ حتى ١٩٤٦ قبل إنشاء الوزارة السوفياتية لأمن الدولة) والده في فترة الإرهاب الكبير، نشأ في وسط نصف إجراميّ، وأصبح متخصصًا في هذا الشكل السوفياتي النموذجيّ من حكمة رجل الشارع للنجاح في السنوات الأخيرة من الحكم الستالينيّ. دُهش كثيرًا حين قُبِلَ عام ١٩٥٥، رغم ماضيه العائليّ، في معهد الـ K.G.B العسكريّ في لينينغراد. في ما بعد، دأب على الاهتمام بدقة بواجبه كضابط في الـ K.G.B من أجل أن تُنسى سوابقه. كانت له موهبة فريدة في علاقاته مع رؤوسائه وعملائه وذلك بامتداحهم ممّا سمح له باجتذاب تريهولت وكريتشكوف. قال عنه النروجي إنّه "نموذج ساحر جدًا وآسر"، مثقف للغاية، مسلٍّ لا تنقصه أبدًا المُلَح والطرائف عن الزعماء السوفيات. يعرف تيتوف أيضًا أن يصغي. فحين يشرح له تريهولت آراءه حول الفيتنام، اليونان، الـ OTAN، الولايات المتحدة وحركة السلام، كان يبدو متأثرًا جدًا بها. وقد قال له تيتوف أنّه يقوم بمساهمة فريدة في إقامة جسور بين الشرق والغرب أكثر مما تستطيع سياسة عادية روتينية وبيروقراطية أن تفعل.

عمل تريهولت جزئيًا كعميل تأثير سوفياتي مساعدًا بتنظيم الحملة التي قادها بنجاح عام ١٩٧٢ اليسار في الحزب العمالي ضد دخول النروج في المجموعة الاقتصادية الأوروبية. لكن إسهامه الأساسيّ كان في إعطاء معلومات سرية عن سياسة النروج والـ OTAN. وأصبح هذا الدور مهمًا للغاية حين كُلِّف مرشد تريهولت وكيل وزارة في هذه المسألة. مذّاك أصبح تريهولت المصدر الأهمّ للجنة الوزارية في موسكو. خلال مفاوضات عام ١٩٧٧ حول تعيين حدود بارنتس، لم يُعلم الـ K.G.B تمامًا بوَضْع الطرف النروجيّ فحسب بل عمل أيضًا كعميل تأثير سوفياتيّ في فريق المتفاوضين النروج. انتُقد بشدّة في النروج الاتفاق حول بحر بارنتس الموقّع في ١ تموز - يوليو ١٩٧٧، لأنه متناسب للغاية مع المصالح السوفياتية.

بعد قضية هافيك، طُرد تيتوف عام ١٩٧٧. في السنتين التاليتين، اشتغل في "المركز" كمعاون خاص لكريوتشكوف ممتدحًا إيّاه بنفس المهارة التي امتدح بها تريهولت، من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٤، كان مسؤولاً عن المديرية ٣ في الـ PDG (بريطانيا العظمى، إيرلندا، اسكندينافيا وأستراليا). وبسبب وعيه الكامل إلى أنّ تريهولت يشكّل مؤهّلاً مهمًا من أجل حياته المهنية، أقنع تيتوف كريتشكوف بالسماح له بمتابعة الاهتمام بمهمته.

استمرّ في لقاء تريهولت في فترات منتظمة في هلسنكي وفي فيينا وهما المدينتان المفضلتان بالنسبة للـ K.G.B للقاء العملاء المهمّين، كما انتدب في كثير من المسائل الروتينية ضابطين آخرين عملا في مقرّ أوسلو هما فلاديمير جيزكين وألكسندر لوباتين. في نهاية عام ١٩٧٨، عُيّن تريهولت في البعثة النروجية إلى الأمم المتحدة. وجاء تعيينه مناسبًا للغاية بالنسبة للـ K.G.B إذ كان النروج، خلال فترة من إقامته في نيويورك، عضوًا في مجلس الأمن. قبل فترة قصيرة من رحيل عميله إلى الأمم

المتحدة، قدّمه تيتوف في هلسنكي إلى جيزكين الذي سيواجهه في نيويورك. اتّفقا على أن يلتقيا في مطاعم وأن يتركا لبعضهما ملاحظات في جرائد مطوية في مَمْشى المندوبين في الأمم المتحدة. وباستثناء بعض شكاوى تريهولت الأوليّة بخصوص نوعية المطاعم التي اختارها جيزكين، سارت المخططات بدون عقبات.

بعد استفادته من حياة نيويورك السعيدة، فَقَد تريهولت كلّ حذر. ضارب في الذهب والفضة واشترى حصانًا وأشركه في السباق. ومنذ ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣، عُهد إليه في الهيئة النروجية للدفاع بمستندات للـ OTAN سرية للغاية. وقارن الاتهام نشاطاته في الهيئة بنشاطات ثعلب أُطلق في فناء للدواجن.

في تخطيط الـ OTAN، كان النروج "مفتاح الشمال": "وَصفَ سكرتير في البحرية الأميركية شبه جزيرة كولا على الحدود بين النروج والاتحاد السوفياتي بأنّها "الجزء الأثمن على الكوكب". فمن الناحية السوفياتية، توجد الإنشاءات البحرية الضخمة حول مورمانسك. ومن البديهيّ بالنسبة للـ OTAN أن "تُشنّ حرب الأطلسي في بحر النروج" وأن يحاول السوفيات الاستيلاء على النروج وتحريك غواصاتهم من الممرات البحرية النروجية".

جزئيًا بسبب المعلومات التي أعطاها غورديفسكي، وُضع تريهولت تحت مراقبة الشرطة الفدرالية في الولايات المتحدة خلال إقامته في نيويورك بطلب من الأمن النروجي. لفقدان وجود دلائل كافية، حسب الأمن النروجي، لم يُمنَع دخوله إلى هيئة الدفاع، فقد روقبت بدقة لقاءاته اللاحقة مع تيتوف في هلسنكي وفي فيينا. في فيينا، صُوّر تريهولت وتيتوف معًا بفضل جهاز مُخبّأ في سيارة للأطفال. وفي بداية عام ١٩٨٤، حقّق تيتوف طموحه الأكبر فأصبح جنرالاً في الـ K.G.B وهو نجاح يدين به لتريهولت أكثر ممّا يدين به لنفسه.

في نفس الوقت، جعلت الوزارة النروجية للشؤون الخارجية من تريهولت الناطق بلسانها لدى الصحافة خلال زيارة سكرتير الدولة الأميركية جورج شولتز إلى أوسلو.

في صباح الجمعة ٢٠ كانون الثاني - يناير، بعد فترة قصيرة من رحيل شولتز، وصل تريهولت إلى مطار أوسلو ليركب الرحلة ١٢٤٥ إلى فيينا حيث سيلتقي تيتوف مرة أخرى. كان يحمل في يده محفظة فيها ٦٦ مستندًا سريًّا من وزارة الشؤون الخارجية. كان على وشك الصعود إلى الطائرة حين أوقفه أورنولف توفيتي، معاون الرئيس في الأمن النروجي... وعلى عكس ما قالته الصحف، جرى التوقيف دون ضجَّة. حسب توفيتي، "كان تريهولت هادئًا ولم يقل أيّ كلمة. لم نحتج إلى قيود أو أيّ شكل من الضغط. اقتيد فورًا إلى سيارة كانت تنتظرنا ثم ذهبت بنا إلى مقرّ الشرطة العامّ"...

في محاكمته عام ١٩٨٥، أكّد الجاسوس أنّه أقام جسورًا فقط بين الشرق والغرب. واستنتجت المحكمة أنّ ذلك يدلّ على "إحساس عميق للغاية بوضعه الخاصّ حتى ليبدو ذلك قليل الاحتمال". يمكن أن يكون غرور تريهولت المغذّى بمهمّة من قبل تيتوف قد أصبح مضحكًا لدرجة اغتراره للغاية بنفسه واعتقاده بدوره كجسر ضيق وحيد بين الشرق والغرب. غذّى تيتوف أيضًا طمعه: فبعد أن حسبت المحكمة ما ربحه بالتجسّس صادرت أكثر من مليون كورون نروجيّ وهي قيمة على الأرجح منقوصة؛ بالإضافة إلى المبالغ الآتية من الـ K.G.B، حصل تريهولت أيضًا على ٥٠,٠٠٠ دولار من المخابرات العراقية.

كان غورديفسكي مقتنعًا أنّه لو تمّ توقيف تريهولت قبل بضعة أسابيع لمَا جرت ترقية تيتوف أبدًا إلى رتبة جنرال. بعد فترة قصيرة من إعلان هذا التوقيف، أرسل كريوتشكوف تيتوف إلى برلين الشرقية ليصبح معاون رئيس مجموعة الـ K.G.B في

كارلشورست. وذهب معه الضابطان الآخران المتعاملان مع تريهولت، فلاديمير جيزكين وألكسندر لوباتين. بعد سنة، حُكم على تريهولت بعشرين سنة سجنًا.

عام ١٩٨١، خسر "المركز" أيضًا الرجل الذي يعتبره عميله الآخر الأهمّ في اسكنديناڤيا حين أوقفه عن العمل الرئيس الفنلنديّ كيكونن لأسباب صحية.

كان الـ K.G.B آنذاك يسوس حوالى ١٦٠ "عميلاً كاملاً" و "اتصالات خصوصية" - أكثر من كلّ البلدان الأخرى مجتمعة التي كانت تهتمّ بها المديرية ٣ (بلدان أخرى في اسكنديناڤيا، بريطانيا العظمى، إيرلندا وأسرتراليا). وتنبّأ كلّ من السفير المقيم في هلسنكي فيكتور فلاديميروف ومنافسه السفير فلاديمير يوبوليف بأنّ زميل كيكونن في حزب المركز (حزب الإصلاح الزراعي سابقًا)، اهتي كارجالنين، سوف يخلفه. لم يرتكب المقرّ خطأ التأكيد للمركز، كما فعل في حالة كيكونن، أنّ كارجالنين "عميل كامل" بل صنّفه بالأحرى كـ"مصدر موثوق". لكنّه كان واثقًا من تأثيره المستقبليّ عليه حين يصبح رئيسًا، فكان يلقّبه بـ"رَجُلنا، كارجالينن" أو "الرجل الموجود في جيبنا".

توقّع الخبير الأساسيّ في المسائل الفنلندية، ألبرت بيتروفيتش أكولوف، المعتبر حسب غورديفسكي على الأرجح المحلّل الأكثر لمعانًا في الـ PDG، بأنّ سمعة كارجالينن كسكّير كبير ستمنعه من الحصول على ترشيح حزبه. لم يأخذ فلاديميروف هذا التوقّع بعين الاعتبار واتصل برئيس حزب المركز ووزير الشؤون الخارجية بافوفايرينن ليؤكّد له سرًا الدعم السوفياتي لكارجالينن ومعارضته لمنافسه الاشتراكي الديمقراطي، رئيس الوزراء مونوكوافيستو. وحسب كارجلينن، "قال فلاديميروف لفارينن أنه سيستخدم تأثيره على الشيوعيين وعلى أحزاب أخرى أيضًا ليدعموني. وسأل فايرينن بصراحة ما يمكن أن يفعل الاتحاد السوفياتي أكثر من ذلك لكي

أُنتخب... وفصّل فلاديمروف فكرة وَضْع التعاون الاقتصادي موضع التنفيذ من أجل الوصول إلى حالة مفيدة بالنسبة إليّ"[1].

لكن، وكما توقّع أكولوف وبالرغم من "التدابير الفعّالة" لفلاديميروف لصالحه، لم يحصل كارجلينن على ترشيح حزب المركز؛ وأحرز الاشتراكي الديمقراطي مونوكوافيستو الذي عارضه فلاديميروف انتصارًا مريحًا في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٢.

في السويد، كان الاشتراكي الديمقراطي أولوف بالم رجل الدولة السويدي الذي بنى عليه الـ K.G.B معظم آماله خلال السبعينات. قبل أن يصبح رئيسًا للوزراء عام ١٩٦٩، أولاه المركز بعض الانتباه، ثم استيقظ الاهتمام السوفياتي سريعًا بعد معارضته المعلنة لحرب فيتنام ونداءاته إلى الغرب من أجل تخفيف ميزانيات التسلّح ودعمه للقضايا التقدّمية في العالم الثالث. ووضع المركز خطة تهدف إلى تجنيده كعميل نفوذ، فأرسل عميلاً من الـ K.G.B يتكلم السويدية ومن أصل ليتوانيّ، هو "ن. ف. نيلاند"، ليكون مسؤولاً عن مكتب نوفوستي في ستوكهولم عام ١٩٧٢. كان نيلاند من نفس منطقة أم بالم في ليتوانا، يعقد معه صداقة لاعبًا على تعلّقه بأصوله، حتى أنّه هيّأ لرجل الدولة مغامرة عاطفية قصيرة في ليتوانيا. توصّل أيضًا إلى لقاء أحد مستشاري بالم الرئيسيين في الحزب الاشتراكي اليدمقراطي بانتظام. وصرف المركز طاقة كبيرة ليعطي نيلاند تعابير عن السياسة السوفياتية، يأمل أن يجدها بالم جذابة...

---

١ - Karjalainen Ahti et Tarkka Jukka, *Presidentin Mimisteri*. Otava (Helsinki, 1989), pp. 236-242.

لا سيّما بعد فقدانه السلطة عام ١٩٧٦، اتجهت ميوله بوضوح نحو السياسة السوفياتية أكثر منها نحو السياسة الأميركية في ما يتعلق بالسلام ونزع الأسلحة. وأُعجبت موسكو كثيرًا بلجنة بالم التي أنشئت عام ١٩٨٠ لمناقشة مشاكل نزع الأسلحة بسبب انتقاداتها للمواقف الأميركية.

في علاقاته مع المركز، اجتهد نيلاند في أن يُرجع لنفسه التأثير الأساسيّ في تعاطف بالم مع السياسة السوفياتية. من جهته، أكّد كريوتشكوف لأندروبوف وللبوليتبورو أنّ الـ K.G.B يؤثّر في بالم رغم أنّ هذا الأخير ليس عميلاً مجنّدًا تمامًا. مرة أخرى، بالغ الـ PDG في تقدير نجاحاته. ففي حين أنّ اتصالات بالم المنتظمة مع نيلاند (الذي يكفي عمله في نوفوستي لولادة شكوك حول علاقاته المحتملة مع الـ K.G.B) تدلّ على سذاجة سياسيّة مذهلة... لا يوجد أيّ دليل على أنّه كان لنيلاند تأثير كبير على سياسة المسؤول السويديّ. على أيّ حال، مهما كان الأمر، فقد توقف هذا التأثير حين غادر نيلاند ستوكهولم عام ١٩٨٠. ولم يتوصّل خليفته إلى الحصول على ثقة بالم، وفَقَدَ الـ K.G.B مدخله الفوريّ إلى السلطة. رغم أنّ المركز هنّأ نفسه بعودة بالم إلى الأعمال عام ١٩٨٢ وبدعمه للسياسة السوفياتية من أجل نزع الأسلحة خلال تجربته الثانية كرئيس للحكومة (والتي انتهت باغتياله عام ١٩٨٦)، فَقَدْ اعتبره مذّاك بشكل أساسيّ زعيمًا سياسيًا غربيًا يدافع عن قيم الغرب[١].

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٦٤٢ ـ ٦٥١.

عودة التّوتر في الثمانينات

أُلغي ما تبقّى من الانفراج الشرقي - الغربيّ في نهاية السبعينات خلال الأسبوع الأخير من العقد بالاحتلال السوفياتي لأفغانستان.

في نيسان ـ إبريل ١٩٧٨، أسقط انقلاب عسكري سياسيّ شيوعيّ النظام الجمهوري لمحمد داوود الذي قتل مع كلّ عائلته. كان يجب اختيار خليفته من بين بابراك كارمال، رئيس فرع بارشام في الحزب الشيوعي الأفغاني، ونور محمد تاراكي، زعيم الحزب المنافس خلْق. دعم "المركز" (مقرّ الـ KGB) كارمال الذي كان عميلاً للـ K.G.B طوال سنوات عديدة. لكنّ تاراكي كان يتمتع بمؤهلات أكثر وبدعم بريجنيف الذي تأثر به خلال لقاء قصير. وقد خرج منتصرًا في الصراع من أجل السلطة، ولجأ كارمال إلى تشيكوسلوفاكيا.

في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٩، قُتل تاراكي من قِبل رئيس وزرائه حافظ اللّه أمين. تجاهلت موسكو الجريمة وهنّأت أمين على "انتخابه" وعبّرت عن "قناعتها بأنّ العلاقات الأخويّة بين الاتحاد السوفياتي وأفغانستان الثورية ستستمرّ بالنموّ في المستقبل على قاعدة معاهدة الصداقة الجديدة وحسن الجوار والتعاون".

رغم ذلك توقّع المركز مصيبة. وذكرت تقارير مقرّ كابول معارضة الزعماء المسلمين لأمين وخطر عصيان الجيش الأفغاني وانهيارًا اقتصاديًا وشيكًا.

نوقشت وقُبلت تصفية أمين، مثل كلّ عمليات الـ K.G.B ضد زعماء سياسيين أجانب، في البوليتبورو.

منذ إعادة التنظيم التي تلت ارتداد أوليغ ليالين عام ١٩٧١ واكتشاف الغرب وجود مديرية ٧ في الـ PDG، أصبحت "القضايا التخريبيّة" و "عمليات خاصة" أخرى من مسؤولية المديرية ٨ في المجلس الإداري S المُنشأة حديثًا والتي تسوس غير الشرعيين.

لاغتيال أمين، اختارت المديرية ٨ المقدّم ميخائيل تاليبوف وهو أذربيجاني أقام عدة سنوات في كابول ويستطيع أن يبدو أفغانيًا.

في نهاية خريف ١٩٧٩، وصل تاليبوف إلى كابول ومعه سمّ من المديرية ٨. قدّم نفسه كطبّاخ أفغانيّ وحصل على عمل في مطابخ القصر الرئاسيّ. لكن، وحسب فلاديمير كوزيتشيكين من المجلس الإداريّ S الذي انتقل إلى الغرب بعد عدة سنوات... "كان أمين حذرًا مثل بورجيا... كان ينتبه لِمَا يأكل ويشرب كأنه ينتظر أن يُسمَّم".

وفي حين نجا أمين من سُمّ تاليوف، راح الوضع يتدهور أكثر فأكثر في أفغانستان. وتوقعت التقارير الموجّهة إلى المركز من مقرّ كابول الذي يتمتع بشبكة عملاء موزّعين جيدًا في الأوساط الأفغانية القائدة، أنْ تحلّ محلّ النظام الشيوعي جمهورية إسلامية معادية للسوفيات إذا لم يُقتل أمين.

كانت المديرية الأممية في اللجنة المركزية أوّل من وافق على تدخّل عسكريّ وأكّدت أنّه لا يمكن للاتحاد السوفياتي أن يسمح بسقوط الاشتراكية في بلد متاخم.

عارضت الأغلبية في "المركز" كما في وزارة الشؤون الخارجية الاحتلال خوفًا من النتائج العالمية إذ كانت مطّلعة أفضل من المديرية الأممية على الرأي العامّ في الغرب وفي العالم الثالث.

مثل الـ PDG، عارض أندروبوف في البداية إرسال الجيش الأحمر. لكنّ معارضته ضَعفتْ بسبب تدهور الوضع منذ انقلاب أمين السياسيّ. وحسب دراسة نُشرت عام ١٩٨٩، بدأ بإجراء مقارنة مع تجربته الخاصة في هنغاريا عام ١٩٥٦ حين حطمت الدبابات السوفياتية الثورة المضادة وأعادت حكومة شيوعية ثابتة.

اعتُقد في "المركز" أنّ القرار النهائي لصالح التدخّل العسكري لم يؤدِّ إلى انقسامات جديّة داخل البلوليتبور.

حسب كوزيشكين، كانت الحجة الدافعة إمكانية انتصار الأصولية الإسلامية على الاشتراكية في أفغانستان بعد انتصارها على الشاه في إيران منذ عام، إذا لم يتدخل السوفيات: "ستكون نتائج ضربة كهذه موجهة إلى نفوذنا غير متوقعة. لا يستطيع الاتحاد السوفياتي أن يقوم بهذه المخاطرة".

لم يستشر الخبراء في البوليتبورو الاحتياطيين وأخذوا قرار التدخّل. وقد أكّد تشيفارنادزه أنّه وميخائيل غورباتشوف اللذين أصبحا عضوين احتياطيَيْن في البوليتبورو في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٩، سمعا للمرة الأولى بالاحتلال من الصحف والراديو.

يوم عيد الميلاد عام ١٩٧٩، عند هبوط الليل، بدأت طائرات النَقْل العسكرية السوفياتية جسرًا جويًا ضخمًا باتجاه مطار كابول العالميّ هابطة ومقلعة كلّ ثلاث دقائق، لكنّ معظم القوات دخلت البلاد برًّا. وفي مساء ٢٧ كانون الأول ـ ديسمبر، ترك رتْل مدرّع المطار باتجاه القصر الرئاسيّ، وعلى رأسه فرقة هجوم من مغاوير الـ K.G.B بقيادة العقيد بويارينوف وهو قائد من مدرسة الإعداد في بالاشيكا من أجل "العمليّات الخاصة" في المديرية ٨. وقد ارتدوا جميعهم ثيابًا أفغانية، كما حملت السيارات لوحات افغانية.

على طريق القصر، أوقفت المراقبة الرتل. وفي حين كان الجنود الأفغان يتجمّعون، سقطت حافة المركبة الأولى، فرشّتهم القوات السوفياتية بالرصاص. وقاد العقيد بوياريتوف بنفسه الهجوم على القصر الرئاسيّ، حيث قُتل أمين وعشيقته في بار يقع في أعلى المبنى. وأمر بوياريتوف بألاّ يبقى على قيد الحياة شاهد قادر على رواية ما حدث...

خلال العملية، اعتُبر بوياريتوف خطأ عضوًا في حرس القصر (كان لايزال يلبس الزيّ العسكريّ الأفغانيّ) فقتله جنوده الخاصّون... وقد خسر أيضًا الكثير من أعضاء المغاوير الآخرين في الـ K.G.B حياتهم خلال هذه العملية.

بعد الهجوم على القصر فورًا، نشر الشيوعي المنفى والمحنّك في الـ K.G.B بابراك كارمال الذي اختارته موسكو ليخلف أمين، بيانًا قال فيه أنّه أسقط الحكومة وطلب المساعدة العسكرية السوفياتية. هذا المنشور الذي صدر من كابول زَعْمًا جرى وضعه في الاتحاد السوفياتي؛ تابع راديو كابول برامجه الاعتيادية حين قُتل أمين.

في الساعات الأولى من ٢٨ كانون الأوّل - ديسمبر، أعلن راديو كابول بعد أن وقع بين يدي السوفيات أنّ أمين أُعدم بأمر من محكمة ثورية.

في موسكو، تقهقر أمين بعد موته من رتبة "الرفيق أمين" إلى رتبة "عميل الإمبريالية الأميركية متعطش للدم". أعلن بابراك كارمال سلفه عميلاً للـ CIA ودَفَعَ السخْرة إلى حدّ الطلب من الحكومة الأميركية إعطاءه مجموعة المستندات حول الصفقات المعقودة معه.

سيطرت على "المركز" أيضًا أسطورة المؤمرة الأميركية ناشرًا شائعة مفادها أنّ المخابرات الأميركية جنّدت أمين حين كان طالبًا في جامعة كولومبيا. ووُجد في

المركز من صدّق أكثر من النصف إشاعتهم الخاصّة. وبعد مرور ١٠ سنوات على الاحتلال، كتب مؤرّخ سوفياتي: "لقد هيّج جاسوسيتنا الغريزية كَوْن أمين قد درس في صباه في جامعة كولومبيا في نيويورك".

حتى كيم فيلبي، في مقابلة أُجريت معه قبل عدة أشهر من موته عام ١٩٨٨، شدّد على فكرة "وجود أكثر من شكوك في ما يتعلق بوجود صفقة بين أمين والأميركيين".

عارض "المركز" التدخل العسكريّ. وجاءت النتائج أسوأ مما كان يتوقع. وحسب كوزيتشكين، "ارتكبنا خطأين كبيرين في التقدير هما: مبالغة في تقدير قتاليّة الجيش الأفغانيّ وتقليل قيمة انطلاقة المقاومة الأفغانيّة".

في ربيع ١٩٨٠، أصبح من الضروري وجود ٨٠,٠٠٠ جندي سوفياتي (ارتفع عددهم فيما بعد إلى أعلى من ١٠٠,٠٠٠) فقط لضبط المدن ولمساعدة الجيش الأفغاني المُجزّأ ضد هجمات المتمرّدين.

وحسب تقديرات اليونيسيف، تراجع عدد الشعب الأفغاني إلى النصف في وسط السبعينات، وشكّل الأفغان حوالي ربع عدد اللاجئين في العالم.

في صباح يوم في بداية الثمانينات، أعلن جنرال في الـ K.G.B للكوزيتشكين ما يفكّر فيه كثيرون في المركز ولا يجرؤون على قوله جهرًا: "أفغانستان هي فيتنامنا... لقد وقعنا في حرب لا نستطيع الانتصار فيها ولا نستطيع التخلّي عنها. ذلك مثير للسخرية. ولولا بريجنيف وجماعته ما كنا لنقع أبدًا ورأسنا منخفض في هذا الماخور".

بالإضافة إلى مقرّ كابول الذي رُفع إلى رتبة "مقرّ رئيسيّ" بعد الاحتلال، كان يوجد ٨ مراكز للـ K.G.B في المدن الكبرى. بالإجمال، ارتفع عدد العاملين في الـ K.G.B إلى حوالي ٣٠٠ ضابط و١٠٠ مُلحق، كانوا ينامون مع المسدس والرشاش

قرب السرير. وأسمع موظف شاب من المجموعة أمضى ٧ شهور في مقرّ ريفيّ، غورديفسكي تسجيلات قام بها لهجومات ليلية للمتمرّدين وكان يعلّق عليها بحماس.

نحو عام ١٩٨٢، استُدعي السفير الرئيسيّ للـ K.G.B في كابول، الجنرال بوريس سيميونوفيتش إيفانوف، الذي عُيّن بعد الاحتلال السوفياتي بفترة قصيرة، وذلك بعد أن أنهكته الحرب تمامًا. وبطريقة مدهشة، تعدّت الترشيحات إلى أفغانستان عدد المراكز الشاغرة. فقد رأى الضبّاط الطموحون في المركز في هذه الحرب فرصة لتكوين شهرة ولتشريع ترقيتهم في مهنتهم.

بالإجمال، تلقّى المركز كلّ شهر حوالي مئة تقرير مفصّل عن الوضع في أفغانستان. وحسب غورديفسكي، لم يكونوا يغفلون عن أيّ شيء بسيط كما كانوا مصدرًا أهمّ للغاية من تقارير السفارة في كابول بفضل شبكة العملاء الواسعة للـ K.G.B، وتركّزت تقارير الوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية كالعادة على الوضع العسكريّ.

بعد اغتيال أمين بفترة قصيرة، وضع الـ K.G.B محمد نجيب اللّه، وهو رجل في الثانية والثلاثين من عمره، قاسٍ وحيويّ، على رأس مصلحة الأمن الجديدة الأفغانية، الـ KHAD، التي أنشئت عام ١٩٨٠ لتحلّ محلّ الشرطة السرية المتعطشة لدم أمين. وقد أزعج نجيب اللّه الإشارة في اسمه إلى "اللّه" فطلب أن يُدعى "الرفيق نجيب". وأعلن الرئيس كارمال أن الـ KHAD، بخلاف سلفه، "لن يخنق، لن يستنزف ولن يعذّب الناس": "على العكس، سيتمّ إنشاء مصلحة استعلامات داخل الهيئة الحكومية من أجل حماية الحريات الديمقراطية، الاستقلال والسيادة الوطنييّن، مصالح الثورة والشعب والدولة، بالإضافة إلى القيام، بإدارة الحزب الشيوعي الأفغانيّ، بإضعاف المؤامرات التي يحوكها أعداء أفغانستان الخارجيون".

درّب الـ KAHD ونظمه ضباط من الـ K.G.B. ضمن الشروط القاسية لهذه الحرب المتعذّر كَسْبها ضدّ المقاومة، عاش الـ K.G.B من جديد على الأرض الأفغانية بعض أهوال ماضيه الستالينيّ. وقد جمعت الـ Amnesty International البراهين على "التعذيب المنتشر والمنسق للرجال... للنساء وللأطفال" في مراكز الاستجوابات أكثر ممّا وجدوا خلال التطهيرات الستالينية في أوروبا الشرقية منذ جيل...

تجرّأت معلّمة في كابول، هربت في ما بعد إلى الباكستان، على الاحتجاج في الـ KHAD قائلة إنّ المستجوب السوفياتي "لا يملك أيّ حقّ في سؤال أفغانيّ في أفغانستان. أغضبهم ذلك فربطوا يديّ وأحرقوا شفاهي بسيجارة". وبأمر من المستجوب السوفياتي، ضربها ضباط الـ KHAD حتى وقعت مغشيًا عليها. حين عادت إلى وعيها، طُمرت في الثلج حتى عنقها. في الأيام التالية، أُخضعت لأشكال مختلفة كلها أسوأ من بعضها البعض من التعذيب بالكهرباء بحضور المستشار السوفياتي في معظم الأحيان. وتمكنت من البقاء على قيد الحياة بعد هذه التجربة الرهيبة. كثيرون آخرون لم يكن لهم هذا الحظّ...

كما اعترف جنرال متقاعد من الـ K.G.B علانية عام ١٩٨٩، حتى في عهد الغلاسنوست: "يجب أن نروي دور الـ K.G.B في حرب أفغانستان بصراحة أيضًا".

توّج نجيب اللّه حياته المهنية على رأس الـ KHAD بأن خَلَفَ بإبراك كارمال الأقلّ عومًا منه كسكرتير عامّ، أولاً سنة ١٩٨٦ ثم كرئيس سنة ١٩٨٧.

بشكل متناقض، سوف يعطي انسحاب الجيش الأحمر عام ١٩٨٨ حياة جديدة لنظامها الذي فَقَدَ الثقة... بعد رحيل الجنود السوفيات، واجهت قوات المجاهدين المجزّأة للغاية صعوبات كثيرة لتَخَطي انشاقاقاتها العميقة.

كانت ردة الفعل العالمية وردّة فعل المقاومة الأفغانية للاحتلال السوفياتي أسوأ ممّا توقّع "المركز"... تصورّ المركز أنّه، كما جرى بعد احتلال هنغاريا عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، سيعود الهدوء بعد فترة قصيرة من الاحتجاج... لكنّ كثيرين، في الغرب كما في العالم الثالث، ميّزوا بوضوح بين التدخّلات السوفياتية في كل من أوروبا الشرقية وأفغانستان، فللمرة الأولى، اجتاح الجيش الأحمر بلدًا من العالم الثالث...

أقامت أحداث بولونيا أيضًا التوتر "شرق – غرب" الذي تلا احتلال أفغانستان. وكما اشتعلت بعض الثورات الشهيرة (لا سيّما في باريس سنة ١٧٨٩، وفي بتروغراد في شباط - فبراير ١٩١٧) إثر هياج شعبيّ بسبب الجوع... ففي خلال صيف ١٩٨٠، أدّى ارتفاع سعر اللحم في بولونيا إلى الحركة النقابية المستقلّة "تَضَامَن" بالإدارة الرحيمة لليش فاليسا، وهو كهربائيّ عاطل عن العمل عمره ٣٧ سنة مجهول حتى الآن، كان يبدأ كلّ أيامه بالذهاب إلى القداس. في نهاية شهر آب – أغسطس ١٩٨٠، ذهب نائب رئيس الوزراء ميتشلاو جاجيلسكي إلى مشاغل لينين البحرية في غدانسك للتفاوض مع فاليسا وزعماء الإضراب. ويشكّل اتفاق غدانسك الذي وضع حدًا لموجة الإضرابات سلسلة لا مثيل لها من التنازلات السياسية من الاعتراف بحقّ الإضراب إلى إذاعة القداس صباح الأحد على راديو الدولة.

ذُهل "المركز" من الخسارة اللاحقة "بالدور القيادي" للحزب العمالي البولوني الموحّد. وأُرسل كلّ الضباط المتصلين ببولونيا والمتفرّغين إلى مقرّ وارسو وإلى مكتب العلاقات بالإضافة إلى القنصليات السوفياتية في غدنسك، كراكوفيا، بوازنان وستيتين. وكما حدث أثناء الثورة الهنغارية عام ١٩٥٦ وأثناء ربيع براغ، تلقّى كثير من غير الشرعيين في الـ K.G.B والذين يعيشون في الغرب الأمر بالذهاب إلى بولونيا

كسوّاح، إذ اعتُقد أنّ المضادين للثورة سيتكلّمون بحرية مع غربيين أكثر منهم مع سوفياتيين. وإذا كان "المركز" قد استمرّ يمنع قطعيًّا تجنيد عملاء بولونيين، فإنّ المسؤولين عن الخطّ المحافظ في الحزب العمّاليّ البولونيّ الموحّد وفي مصلحة الأمن البولنية SB (التي خلفت الـ UB) أغرقوا الـ K.G.B بتقارير متشائمة وأحيانا هستيرية عن التخريب المعادي للثورة. وكانت كمية المعلومات عن بولونيا التي جمعها الـ K.G.B أكثر أهمية من تلك التي أعطتها قنوات الحزب أو السفارة في وارسو. وتوقّع تقدير طويل ومتشائم للمسؤول عن الفرع البولوني للـ PDG، نينل أندرييفيتش تارنافسكي، حمامًا من الدم.

استمرّ نفوذ "تضامن" بالتوسّع عام ١٩٨١، فمع حوالي ١٠ ملايين عضو في ذروتها، كان يمثّل تقريبًا كلّ عائلة في بولونيا. وأكّدت تقارير الـ K.G.B أنها تسلّلت حتى إلى مصلحة الأمن البولونية وإلى الشرطة، وأنّ المخلصين للحزب تعرّضوا للتهديد بواسطة عسكريين..

استغرب غورديفسكي العداء للسامية الواضح في تقارير المركز عن بولونيا إذ تشير هذه التقارير إلى الدور المهمّ في "تضامن" ليهود "أميين" مثل جاشيك كورون، آدم ميشنيك وموجيس فينكيلزتين (كلّهم أعضاء سابقون في لجنة الدفاع عن العمال: KOR) مما جعله يرى في ذلك دليلاً على مؤامرة صهيونية... وردّد هذا الموضوع عدة جيران لبولونيا. فتلفزيون براغ، في حديثه عن اجتماع للمؤسسة الوطنية "غروندوالد" المعادية للسامية في وارسو، ذكر بلهجة الموافقة أنّ الخطيب استنكر "نشاط الصهاينة الغادر" وكشف أنّ "الاسم الحقيقيّ لميشنيك هو سيشتر"[١].

١- Ruane Kevin, The Polish Challenge, BBC (London,1982), p. 134.

بالنسبة "للمركز"، بدا أنّ على المؤتمر التاسع للحزب العماليّ البولونيّ الموحّد، المُحدَّد في تموز – يوليو ١٩٨١، أن يوطّد نفوذ "تضامن" داخل الحزب. كان من الضروري الضغط بشدة على ستانيسلاس كانيا الذي أصبح سكرتيرًا أول بعد اتفاقيات غدانسك، من أجل تأجيل المؤتمر. ومن المؤكد أنّ بريجنيف المريض (لن يعيش بعد سوى ١٨ شهرًا) لا يودّ أن تزعجه أنباء سيئة. من جهته، لم يشأ أندروبوف أن يعرّض للخطر حظّه بخلافة بريجنيف بإدخاله عنصر خلاف جديد في البولتيبورو. تأسّف المركز كثرًا إذ لم يتعرّض كانيا لأيّ ضغط وجرى المؤتمر في الموعد المحدّد. وتخطّى الواقع أسوأ مخاوف الـ K.G.B. فقد صوّت المؤتمر، في الواقع، بالاقتراع السريّ على استبدال سبعة من أصل ثمانية من أعضاء اللجنة المركزية السابقة. وقدّر المركز أنّ ٢٠ ٪ من اللجنة المركزية الجديدة موالون جهرًا لـ"تضمامن" و ٥٠ ٪ متعاطفون معها سرًّا.

بعد نهاية المؤتمر، استُدعي كريوتشكوف والجنرال فاديم بافلوف المسؤول عن الـ K.G.B في وارسو أمام البوليتبورو. وبدعم من أندروبوف، أكّد كلّ منهما أنّ كانيا فَقَدَ السيطرة على الوضع. وإذا لم تستبدل اللجنة المركزية المنتخبة في الحزب العمالي البولوني الموحّد بلجنة أخرى أكثر ثقة، فإنّ النظام الاشتراكي في بولونيا مهدّد بالانهيار. ضمنًا لم يعد "المركز" في الواقع يثق في مجموع إدارة الحزب العمّالي البولونيّ الموحّد. ولم يلقَ أي بديل مدنيّ لكانيا دعمًا جدّيًا.

في البوليتبورو كما في المركز، قُبلت فكرة تدخّل الجيش الأحمر كحلّ أخير. لكنّ موسكو أبدت تحفظات حول إرسال قواتها أكثر مما اعتقد الغربيون. وعرف غورديفسكي من اتصالات له في اللجنة المركزية بأنّ هناك إجماع على الاعتقاد بأنّ

التدخل في بولونيا بعد أفغانستان سيقضي على كلّ إمكانيـة للإنفراج ولتحديد الأسلحة في السنوات المقبلة. وتوقّع "المركز" أيضًا مشاكل مهمـة للقوات المحتلّـة. اعتقد أنّ مصالح الاستعلامات الغربية ستتآمر مع "تضامن" لتنظيم مقاومة سريّة مسلّحة ومجهّزة جيدًا قادرة على القيام بحرب عصابات. واستنتج "المركز" أنّ الحلّ الوحيد هو أن يقوم الجيش البولوني بانقلاب...

كان الـ K.G.B يثق في إدارة الجيش أكثر منه في إدارة الحـزب: فمعظم الضباط البولونيين أُعدّوا في الكليّات الحربية السوفياتية، كما أنّ كثيرًا من الضباط الكبار كـانوا سابقًا في الجيش البولونـيّ الذي أنشئ خلال الحرب في الاتحاد السوفياتي. وفكّر المركز أنّه بعد أن يعيد الجيش النظـام ويسحق "تضامن"، يصير من الممكن تطهير الحزب وانتخاب لجنة مركزية جديدة أكثر أهلية.

أما الرجل الذي اختير ليقوم بالانقلاب، فكان الجنرال فوجشيش ياروزلسكي، وهو عضو في البوليتبورو في الحزب العمّـالي البولونـي الموحّد ومنذ فترة طويلة وزير للدفاع، وفي آب ـ أغسطس ١٩٨١، أصبح رئيس الوزراء. كان نحيفًا، مستقيمًا يلبس عادة نظارات سوداء، ويُعتبر لغزًا غامضًا بالنسبة لمعظم البولونييـن. رغم ذلك ترك في البداية انطباعًا جيدًا بتعيينه شخصية مشهورة بتحرّرها هي ميتشيسـلاو راكوفسكي نائبًا لرئيس الوزراء ومسؤولاً عن القضايا النقابية.

بدأ راكوفسكي بإنشاء "نظام شراكة" مـع "تضـامن". وفـي تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٨١، وبعد ضغوطـات سوفياتية عديدة، حلّ ياروزلسكي محلّ كانيا، الذي فَقَـدَ اعتباره، كسكرتير أوّل في الحزب، وأطلق نداء من أجل "اتفاق وطنـي" جديد و"جبهة موحّدة" مع "تضامن" والكنيسة.

في بداية تشرين الثاني - نوفمبر، التقى بفاليسا وبالمونسينيور غلمب، كبير أساقفة بولونيا، من أجل محادثات في وارسو[1].

مع ذلك، كان ياروزلسكي يلعب لعبة مزدوجة. اعتُقد في "المركز" أنه اتفق مع موسكو على الانقلاب العسكري وأنه بدأ يخطط في نفس الوقت الذي أصبح فيه سكرتيرًا أول. وتحدّدت التفاصيل النهائية للانقلاب خلال جلستين سريتين من المحادثات في وارسو مع الجنرال كريوتشكوف والماريشال فيكتور كوليكوف القائد العامّ لقوات حِلْف وارسو. مع ذلك كانت ثقة جهاز اللجنة المركزية في ياروزلسكي أقل من ثقة الـ PDG. وأعلن عضو كبير في الحزب هو فالنتين ميخائيلوفيتش فالين معاون أوّل لرئيس مديرية الاستعلامات العالمية آنذاك، أنّه ليس من المؤكد أنّ ياروزلسكي سيتمكن من السيطرة على الوضع، وذلك خلال اجتماع لضباط في الـ K.G.B. أعلن فالين أيضًا أنّ محادثات سرية تجري لإقناع ياروزلسكي بإجراء المزج القريب للمجنّدين في الجيش خوفًا من أن يضعف النظام الموالون الكثر "لتضامن" الموجودون فيه. في الواقع، جرى النداء إلى الخدمة الفعليّة في الجيش بصعوبات جدّية. وقال زملاء لغورديفسكي في سكرتاريا كريتشكوف وفي الفرع البولوني للـ PDG، أنّ ياروزلسكي طلب مرتين الضوء الأخضر من موسكو. لكنّ بريجنيف، المريض دائمًا، نفر وقتها من اتخاذ قرارات مهمة. أخيرًا توصّل أندروبوف وزملاؤه في البوليتبورو إلى إقناعه بأنه لم يعد من الممكن تأجيل هذا التصرّف الحاسم.

---

[1] - Ash Timothy Garton, The Polish Revolution: Solidarity 1980-1982, Jonathan Cape (London,1983);.
Ascherson Neal ,The Struggles for Poland, Michel Joseph (London,1987), ch. 8,-9.

نُظمت ونُفذت ببراعة إقامة حالة الحرب في بولونيا في ١٣ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨١. واندفع المركز في تهانئ ـ كانت أيضًا تعابير عن ارتياحه ـ حول البراعة التي أظهرها ياروزلسكي والقيادة البولونية العليا ومصلحة الأمن البولونية.

في الأيام السابقة، منعت غيوم كثيفة الأقمار الصناعية الجاسوسية الأميركية من رؤية تحضيرات الجيش والميليشيا للإنقلاب[١]. البولونيون أيضًا أُخذوا بالمفاجأة. فقد استيقظوا صباح ١٣ كانون الأول ـ ديسمبر ليجدوا تفتيشًا عسكريًا على كلّ مفرق طريق، وإعلانات عن القانون العرفيّ في كلّ زاوية شارع. أُوقف معظم زعماء "تضامن" في أفرشتهم. واعتقد ياروزلسكي نفسه أنه أنقذ بوبونيا على الأرجح من احتلال سوفياتي، وقمعت الألوية المتحركة من الشرطة الشبه عسكرية معظم إضرابات الاحتجاج ومظاهرات المقاومة الشعبية. وفي نهاية السنة، كان الجيش لا يزال في حالة تأهّب واضحة. وأعلنت كتابات على جدران المدن البولونية بتفاؤل: "الشتاء لكم. الربيع سيكون لنا!" لكنّ الربيع لن يعود قبل عام ١٩٨٩ مع إنشاء حكومة بقيادة "تضامن" تحت سلطة تادوسز مازوفيكي ومع تفكّك الدولة الشيوعية ذات الحزب الواحد.

على صعيد فرنسا، وفي أيار ـ مايو ١٩٨١، ذُهل "المركز" من انتخاب فرنسوا ميتران، أوّل رئيس اشتراكيّ في الجمهورية الفرنسيّة الخامسة. وكان المركز مثل المديرية الأمميّة للجنة المركزية يعتبره مَناصبيًا مجرّدًا من الالتزام الجدّي تجاه المبادئ الاشتراكية، استعان بالحزب الاشتراكي ليخدم طموحاته الشخصية. ورأى الـ K.G.B أيضًا بتخوُّف دخول الشيوعيين إلى الحكومة بعد انتصار اليسار في السلطة التشريعية.

---

١ - Alexandres M. Haigir, *Caveat,* Weidenfled et Nicolson, (London,1984), p. 247.

قبل شهرٍ، أكّد السفير المقيم للـ K.G.B في باريس، نيقولاي نيقولافيتش تشيتفيريكوف، أنّ جورج مارشيه ليس ذا مستوى أمام ميتران. وتوقّع بذكاء أنّ الرئيس سيستميل الشيوعيين المعرّضين للخطر سياسيًّا بسبب وجودهم في ائتلاف يقوده الاشتراكيون والعاجزون عن إزالة الهجومات الحكومية ضد السياسة السوفياتية.

وفي نيسان ـ إبريل ١٩٨٣، كان تشيتفيريكوف في عداد الـ ٤٧ ضابطًا من الـ K.G.B ومن الوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية الذين طُردوا من فرنسا بعد الاكتشاف أنّ برقيات السفارة الفرنسية في موسكو قد "سُمعت" خلال الست أو السبع سنوات السابقة، ممّا أعلم الـ K.G.B بشكل واسع بالاتصالات الدبلوماسية السرية الفرنسية... يعود هذا الاكتشاف إلى اعترافات عميل التجسّس العلمي والفني الواسع للسوفيات في فرنسا وفي بلدان غربية أخرى... وزاد من إحراج "المركز" عند الطرد وجود وزراء شيوعيين في الحكومة الفرنسية. ولم يجر أيّ انتقام سوفياتي ضد دبلوماسيين أو ضباط استعلامات فرنسيين في موسكو.

كما جرى بعد عملية عام ١٩٧١ في بريطانيا العظمى، أساء جدّيًا طَرْد الـ ٤٧ من باريس عام ١٩٨٣ إلى عمليات الـ K.G.B. بعد رحيل تشيتفيريكوف، بقي مقرّ باريس دون رئيس دائم حتى مجيء أناتولي فيكتوروفيتش خرامتسوف عام ١٩٨٦.

حين كان يعمل في لندن من ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥، رأى في برقيّات الـ K.G.B تأكيدات عديدة تقول إنّ الرئيس ميتران يشجّع سرّيًا التعاون بين فرنسا والـ OTAN. واستقبل المركز بارتياح رحيل الشيوعيين عن الحكومة الفرنسية عام ١٩٨٤. ولم يكن يعتقد أبدًا بتجديد حيويّ شيوعي، على الأقلّ طالما بقي مارشيه سكرتيرًا عامًا. وفُجعت المديرية الأممية، كما الـ K.G.B، بتصميم مارشيه الواضح على التشبّث برئاسة الحزب.

شهدت بداية الثمانينات انطلاقة أخطر فترة توتّر شرق - غرب منذ أزمة كوبا عام ١٩٦٢.

خلال حملة الانتخابات الرئاسية الأميركية عام ١٩٨٠، تأمّلت موسكو أن تخفّ بلاغة المرشح الجمهوري رونالد ريغان المعادية للسوفيات بعد أن يصبح في البيت الأبيض كما فَعَل نيكسون منذ عشر سنوات. ولم يكد ريغان يستلم مهامه حتى فهم الكرملن تمامًا أنّ عداوته للاتحاد السوفياتي ليست أبدًا مجرّد خطة لحملة انتخابية بل نابعة من قناعة عميقة.

في أوّل مؤتمر صحافيّ، استنكر الرئيس الأميركيّ الجديد التوجّه السوفياتي لجهة التزامه الدائم لصالح "الثورة العالمية والدولة الاشتراكية أو الشيوعية لإدارة الكوكب": "يعطون أنفسهم الحقّ بارتكاب كلّ الجرائم، بالكذب، بالخداع للوصول إلى ذلك... كان الانفراج طريقًا ذات اتجاه واحد سلكه الاتحاد السوفياتي ليحقّق أهدافه". وقرّر سكرتير الدولة الأوّل لريغان وهو ألكسندر هيغ (الذي خَلَفَه في حزيران ١٩٨٢ جورج شولتز) أن يكون واضحًا: نحن في بداية عهد جديد في العلاقات الأميركية السوفياتية: "حين يشرق النهار على إدارة جديدة والهواء نقيّ وهادئ نسبيًّا، تكون إشارتنا للسوفيات إنذارًا واضحًا بأنّ زمن المغامرات دون رادع في العالم الثالث قد انتهى وبأنّ قدرة الولايات المتحدة على قبول الأعمال السيئة لوكلائها الكوبيين والليبيين قد استُنفدت". وتلقّى "كل رسميّ في مديرية الدولة في كلّ اتصال له مع رسميّ سوفياتي" الأمر بترديد الرسالة نفسها.

كانت إدارة ريغان مقتنعة بأنّ "الردّع الأميركيّ مطروح للمناقشة" بسبب النموّ العسكريّ السوفياتيّ في العقد الأخير. وزيدت ميزانية الدفاع بنسبة ١٠ ٪. واعتمد الرئيس أيضًا خطًّا متشدّدًا أكثر من كارتر حول مراقبة الأسلحة، واستنكر علانية

اتفاقيات SALT ولم يُبدِ أيّ عَجَلة في العودة إلى طاولة المفاوضات قبل أن تعزّز القوة الضاربة النووية الأميركية. كان كارتر قد أوقف العمل في الصاروخ MX وفي القاذفة B-1، أمّا ريغان فقد جدّد العمل فيهما[١].

في إعلاناته التمهيدية أحيانًا عن الاتحاد السوفياتي كـ"أمبراطورية الشر"، لم يأخذ ريغان بعين الاعتبار أحد المساوئ السوفياتية الأكثر خطورة: الميل إلى جنون العظمة في تخوّفه من الغرب. وقدّر أندروبوف، وكان لا يزال على رأس الـ K.G.B، أنّ سياسة إدارة ريغان ترتكز على محاولة لإعطاء الولايات المتحدة القدرة على تحقيق أوّل ضربة نووية ظافرة. وامتزجت البلاغة الريغانية حول أمبراطورية الشرّ مع جنون العظمة الموسكوفي عن المؤامرة الغربية ليولّدا مزيجًا متفجّرًا...

في أيار ـ مايو ١٩٨١، استنكر بريجنيف تصرّف ريغان في حديث سرّيّ خلال اجتماع مهمّ للـ K.G.B في موسكو. مع ذلك، كان أندروبوف مَنْ ألقى الخطاب الأكثر استحقاقًا للسمع. فقد أعلن أنّ الإدارة الأميركية الجديدة تتحضّر لحرب نووية. يوجد الآن احتمال ضربة نووية أولى من الولايات المتحدة. قرّر البوليتبورو إذًا أنّ الأولويّة المطلقة لعمليات الاستعلامات السوفياتية في الخارج يجب أن تكون لجَمْع المعلومات العسكرية والاستراتيجية حول التهديد النووي الذي تقوم به الولايات المتحدة والـ OTAN.

وعلى دهشة معظم سامعيه، أعلن أندروبوف آنذاك أنّ الـ K.G.B والوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية سيتعاونان للمرة الأولى في عملية استعلامات تشمل

---

١ - Dimbley David et Reynolds David, *An Ocean Apart*, BBC/Hodder & Stoughton (Londron,1988), pp. 308, 317.

العالم كلّه واسمها الاصطلاحيّ RYAN وهو اختصار للكلمات: Rakento Yadernoye Napadeniye، أي هجوم الصواريخ النووية.

رغم أنّ الرؤية الانبعاثية لأندروبوف دُعمت من قبل كريوتشكوف، رئيس الـ K.G.B، فإنّ الخبراء الرئيسيين في الشؤون الأميركية في المركز اعتبروها متشائمة للغاية. واعتقدوا، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار حقيقة قلقه بصدد السياسة الأميركية، أنّ عملية RYAN ناتجة عن ضغوطات من القيادة العليا. وكان محاميه الرئيسي في البوليتبورو على الأرجح وزير الدفاع، الماريشال العجوز ديمتري فيدوروفيتش أوستينوف الذي شَغَلَ عام ١٩٤١ منصب مفوّض في سلاح ستالين. وأظهر دعمًا مهمًا لأندروبوف في صراعه لخلافة بريجنيف.

سلّم كريوتشكوف تنظيم عملية RYAN للمؤسسة (في الـ PDG) بسبب مشاكل المخابرات التي أنشئت عام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ من أجل العمل "على تطوير مفاهيم جيدة فيما يختص بالاستعلامات".

في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨١، أُرسلت تعليمات شخصية للسفراء المقيمين في كلّ البلدان الغربية، في اليابان وفي بعض بلدان العالم الثالث... في بعض الحالات، كانت التعليمات قصيرة. فعلى المقرّ في هلسنكي، مثلاً، أن يراقب تفريغ السفارة الأميركية، إغلاق المؤسسات الماوراء الأطلسيّة... ودلائل أخرى أكيدة على أزمة وشيكة الوقوع. وُجِّهت تعليمات أكثر تفصيلاً للغاية إلى المركز في بلدان الـ OTAN، تطلب مراقبة شديدة لكلّ النشاطات السياسية، العسكرية أو المخابراتية التي يمكن أن تشير إلى تحضيرات من أجل التحرك.

كان على "المراكز" أن يجعل من العملية RYAN الأولوية رقم ١ في "برنامج عمله لعام ١٩٨٢" المُقدَّم للمركز في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨١.

أرسل الـ PDG تعليمات جديدة في كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٢. وفوجئ غورديفسكي بالأفضلية الأقل نسبيًّا المعطاة للاستعلامات عن التطوّرات الجديدة للتقنية الغربية في الصواريخ. وبقيت المهمة الرئيسية في الاستعلامات اكتشاف هجوم نوويّ مفاجئ.

في آذار ـ مارس ١٩٨٢، أُرسل فاسيلي إيوزوفيتش كريفوكيجا، وهو ضابط من المديرية الأولى مسؤول إذ ذاك عن تنسيق العملية RYAN في "المركز"، إلى المقرّ الرئيسي في واشنطن ليهتمّ شخصيًّا بجَمْع المعلومات لِ RYAN في الولايات المتحدة.

في أيار ـ مايو ١٩٨٢، ترك أندروبوف الـ K.G.B إلى سكرتاريا اللجنة المركزية لكي يعزّز موقعه كوريث لبريجنيف المشرف على الموت أكثر فأكثر. وأصبح من المؤكد سريعًا بما فيه الكفاية ليضع رجلاً مخلصًا له على رأس الـ K.G.B. فكان خليفته كرئيس بريجنيفي مخلص هو فيتالي فيدوروتشوك، عمره ٦٤ عامًا وكان رئيسًا للـ K.G.B في أوكرانيا منذ ١٩٧٠. لم يكن تعيينه مُحَبَّذًا في المركز حيث اعتُبر بشكل عامّ كسكين ثانٍ (كما سيحدث فعلاً) سوف يُستبدل حالما يصبح أندروبوف سكرتيرًا عامًا. رغم ذلك، كان فيدوروتشوك مطمئنًا لأوستينوف وللعسكريين، حتى عام ١٩٧٠، استمرّت حياته المهنية في الاستعلامات المضادة العسكرية؛ في نهاية الستينات، كان مسؤولاً عن المجلس الإداري الثالث في الـ K.G.B (للاستخبارات العسكرية المضادة). واقتنع بدون صعوبة بالطابع الأولويّ لعملية RYAN.

قبل أن يتسلم مهامه في مقرّ لندن في حزيران ـ يونيو ١٩٨٢، أُعلم غورديفسكي بواسطة أحد الخبراء الرئيسيين في المسائل السياسية والعسكرية للـ OTAN في الـ PDG بضرورات العملية RYAN في بريطانيا العظمى. فبالنسبة له، إنّ الوسيلة الأفضل للحصول على معلومات عن التحضيرات لهجوم نووي تكمن في العمل بفضل

عملاء موزعين جيدًا. لكن كان من المهم أيضًا مراقبة دلائل أزمة وشيكة الوقوع مثل عدد الأضـواء المُشعَلَة خلال الليل فـي الـوزارات أو المنشآت العسكرية وتحرّكات المِلاك الذي يشغل مسؤوليات عالية واجتماعات اللجان.

عند وصوله إلى مقرّ لندن في حزيران - يونيو ١٩٨٢ بصفة ضابط في الخطّ PR (للإستعلامات السياسية)، لاحظ أنّ كلّ زملائه يراقبون العملية RYAN بشيء من الشك. كانوا أقلّ تشاؤمًا من المركز حول مخاطر حرب نووية. رغم ذلك لم يكن أيّ منهم يرغب في تعريض حياته المهنية للخطر بمعارضته رأي الـ PDG. وخلقت الـ RYAN حلقة مفرغة في جَمْع وتحليل المعلومات. ففي الواقع، طُلب من المراكز نَقْل كلّ معلومة مقلقة حتى ولو شكّت فيها بعض الشيء: ويقلق المركز بدوره ويطلب المزيد من التوضيحات...

تعقّدت مشكلة دقّة التقارير المرسلة من مقرّ لندن بسبب شخصية أركادي فاسيليفيتش غوك الذي خَلَفَ لوكازيفيكس عام ١٩٨٠ كسفير مقيم. كان غوك السفير المقيم الأقل قدرة الذي عرفته بريطانيا العظمى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ويدين بمركزه بشكل واسع إلى السياسة التي اتّبعها البريطانيون منذ ١٩٧١ والتي تنصّ على رَفْض تأشيرة مرور كلّ الضباط المعروفين كأعضاء في الـ K.G.B. مثل لوكازيفيكس، بنى شهرته بتصفية المعارضة القومية في الجمهوريات البلطيقية بعد الحرب. عُيِّن أيضًا في المجلس الإداريّ الثاني العامّ ثم في المقرّ الرئيسيّ في نيويورك في الخطّ PR (للجاسوسية المضادة).

أحسّ غوك بشيء من الحنين إلى سِنيهِ في الجمهوريات البلطيقية واشتكى من أنّ "المركز" والكرملن لَطُفا من ناحية عقاب الخونة. حين أقام في نيويورك، اكتشف أين يوجد المنشقّ نيقولاي خوخلوف (ضحية محاولة اغتيال غير ناجحة عام ١٩٥٧)

واقترح تصفيته. لكن "المركز" لم يسمح، وقال له إن هدفيه الرئيسيَين هما المنشقّان الأسبقان غوليتسين ونوسينكو، وإنه لا يمكن الموافقة على أيّ "عمليـة تخريبيَّة" أخرى في الولايات المتحدة طالما لم تُسَوَّى هاتان الحالتان. اقترح أيضًا ـ دائمًا دون نجاح، تصفية ابنة ستالين، سفيتلانا، ورئيس عصبة الدفاع اليهودية. كان غوك قاتلاً مكبوتًا يعتقد فضلاً عن ذلك بالمؤمرات. كان مقتنعًا أنّ الغرب يتآمر ليدمّر النظام السوفياتي. رغم تحفظه حول تفاصيل العملية RYAN، لم يناقش حيثياتها الأساسية.

حين وصل غورديفسكي إلى لندن، كانت زوجة غوك تقوم بما في وسعها لتخفّف من استهلاك زوجها الكبير للخمر. كلّ مساء، كان هذا الأخير يتهيّأ مُسبقًا بإفراغه قدح فودكا قبل أن يعود إلى البيت. وكان المشروب يزيد من ميله الطبيعي إلى التبجّح بنتائجه.

في تموز ـ يوليو ١٩٨٢، أَعلَم مستشار السفارة الواصل حديثًا، ليف بارشين، بمظاهرة في لندن ضد نَشْر الصواريخ كرويز Gruise. رغم أنّ بعض العملاء والمتصلين بالـ K.G.B اشتركوا في الموكب، فإنّ حركة "الحملة لنزع السلاح" نظّمت بشكل كامل المظاهرة دون أيّ مساعدة من المقرّ. رغم ذلك أكّد غوك: "نحن، مقرّ الـ K.G.B، مَنْ أنْزل ٢٥٠,٠٠٠ شخص إلى الشارع!"... وقد وافق بارشين بتهذيب وبدا متأثرًا. ولم يكد غوك يخرج من الغرفة حتى استدار نحو غورديفسكي وهتف: "هل سمعت يومًا حماقة كهذه؟"...

كان غوك يوبّخ كثيرًا دبلوماسيين سوفيات متهمًا إياهم بإعطاء الأسرار حين يتكلمون عن مهنتهم في شققهم التي يؤكد أنّ مصلحة الأمن البريطانية تسترق السمع إليها. رغم ذلك، بعد عدة كؤوس في هذه الشقق نفسها، كان يتشدّق دائمًا بنجاحاته العمليّاتيّة في لندن.

ذات يوم، أعلن دبلوماسيّ سوفياتي لغورديفسكي: "هذا هو غوك كلّه. مساء أمس، في بيتنا، أعطانا ـ نحن والإنكليز ـ جميع أسراركم!".

بينما كان يتبجّح بانتصاراته في لندن، تعرّض غوك لاستياء "المركز" لأنّه لم يتوقّع أن يكون البريطانيون على وشك دخول الحرب ضد الأرجنتين بخصوص المالون... أُرسلت إلى المركز أوّل برقية عن هذه المسألة في ٤ نيسان ـ إبريل ١٩٨٢ بعد يومين من الاحتلال الأرجنتينيّ. اجتهد فيما بعد بالتعويض بإرساله برقيتين في اليوم كل معلوماتهما الأساسية مأخوذة من ريبورتاجات وسائل الإعلام، بينما لم تكن السفارة ترسل إلاّ واحدًا أو اثنين في الأسبوع. توقّع غوك أن "يأخذ هؤلاء البريطانيون المتعجرفون درسًا". حين ربحوا، اندهش غوك و"المركز"، واختار غوك شرحًا من نوع مؤامرة "الحرب الاستعمارية البريطانية ضدّ الفوكلاند". واغتنمت مارغريت تاتشر والحكومة المحافظة الفرصة لتجديد شعبية آفلة بفضل انتصار سريع ضد عدوّ ضعيف. واستقبل الـ OTAN إيجابيًّا الفرصة ليختبر خططًا وتجهيزات جديدة. واتّبع تحليل السفارة الخطوط العريضة لتحليل المقرّ. لجأ غوك أيضًا إلى نظرية المؤامرة ليفسّر الحدث الرئيسي الجديد في السياسة الداخلية البريطانية في بداية الثمانينات: تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي ونجاحاته الأوّليّة.

وأكّد السفير المقيم أنّه أنشئ بمساعدة الـ CIA وسفارة الولايات المتحدة من أجل تشتيت الحزب العمّاليّ وإبقاء المحافظين في السلطة.

في ٣٠ أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٢، أرسل الـ PDG برقية ـ منشور إلى مراكزه في الولايات المتحدة وفي خارجها يستعرض فيها السياسة الأميركية. وأكّد المركز أنّ إدارة ريغان بإجبارها حِلف وارسو اتباع واشنطن وبالتالي زيادة ميزانيته العسكرية، تجتهَد في زَرْع الخلاف بين الدول الاشتراكية، في تأخير نموّها وفي إضعاف علاقاتها

بالدول التقدّمية في العالم الثالث مثل نيكاراغوا والموزامبيق. وأصرّ "المركز" على ضرورة القيام بهجوم معاكس مع تدابير فعّالة تهدف إلى التقليل من هيبة السياسة الأميركية.

في نهاية تشرين الأوّل ـ أكتوبر، وضع المقرّ الرئيسي في واشنطن موضع التنفيذ العملية "غولف Golf" الهادفة إلى إفقاد السفير الأميركي في الأمم المتحدة، جان كيرك باتريك، سمعته بواسطة مستندات مزيفة، على يد مراسل أميركي للـ New Statement في لندن لا يتورّع عن شيء.

في ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر، نشرت الـ New Statment مقالاً عنوانه "الصديق الأفضل لإمرأة" مخصّصًا "للعلاقات السريّة غالبًا" بين جان كيرك باتريك وأفريقيا الجنوبيّة. يتضمّن المقال صورة عن رسالة مزوّرة موجّهة إلى السيّدة كيرك باتريك من مستشار في سفارة أفريقيا الجنوبية، تنقل "أفضل المشاعر والعرفان بالجميل" من المسؤول عن الاستعلامات العسكريّة الجنوب أفريقيّة وترافقها هديّة عيد مولد مزعومة "عربونًا" عن "تقدير حكومتي".

يدلّ استعمال كلمة (Priviously من قبل) أنّ المصلحة "أ" لم تتحقّق من كتابتها الإنكليزية كما يحدث لها في بعض الأحيان.

رافق العملية "Golf" عملية "سيرينا ٢ Sirena II" التي استعملت تزويرات أخرى أعدّتها المصلحة "أ" بهدف إعطاء الدليل، هذه المرة، على تدخّل أميركيّ في الشؤون البولونية. مثل عدد من "التدابير الفعّالة" المشابهة، بدت Sirena II تبسيطيّة جدًّا بالنسبة للواقع الغربيّ ـ بشكل عامّ، حصلت المصلحة "أ" على نتائج أفضل في العالم الثالث.

كان الهدف الرئيسيّ "للتدابير الفعّالة" في أوروبا الغربية تجنّب نَشْر صواريخ Gruise و Pershing المقرَّر في نهاية ١٩٨٣. وبما أنّ الحركات الأوروبية من أجل السلام نادرًا ما التمست التشجيعات السوفياتية لتقوم بحملات احتجاج، فمن المنطقيّ الاستنتاج أنّ إنفاق "المركز" الضخم للوقت والجهد في هذا المجال أدّى إلى نتائج هزيلة بالأحرى. مع ذلك، لم يكن غوك السفير المقيم الوحيد الذي نسب لنفسه الفضل في مظاهرات معادية للأسلحة النووية، وليس له إلاّ تأثير هامشيّ عليها.

كان آخر خطاب لليونيد بريجنيف ألقاه في الكرملن في ٢٧ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٨٢ خلال اجتماع ضباط كبار ومسؤولين مهمين في وزارة الدفاع، متشائمًا للغاية حول العلاقات شرق ـ غرب. استنكر سياسة إدارة ريغان وأعلن أنّ الحفاظ على السلام يتطلّب "مضاعفة جهودنا وتثليثها".

بعد ١٥ يومًا، مات السكرتير العامّ للحزب في ١٠ تشرين الثاني - نوفمبر، وكانت خلافته جاهزة مُسبقًا: انتُخب أندروبوف بـ "الإجماع". ورغم أنّ إدارة الحزب لم ترغب في البدء بإصلاحات جوهرية، فقد كانت متلهفة للخلاص من ركود وفساد عهد بريجنيف[1].

---

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص٦٥١ ـ ٦٦٥.

التجسّس على الاتّصالات خلال الحرب الباردة

في فيينّا، خريف ١٩٥١، كان كارل نلسون، من مكتب الاتّصالات التابع لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، يراقب من غرفته في الفندق، فندق "إمبريال"، مقرّ السلطات السوفياتيّة برئاسة أركانها المشاركة في حكم فيينا مع البريطانيّين والفرنسيّين والأميركيّين. وما لفت نظره في أثناء المراقبة، الكابلان اللذان كانا يربطان المبنى مع القيادة العليا للجيش السوفياتيّ في موسكو. فنزل إلى الشارع وتابع السلكَين إلى أن وجدهما، خارج المدينة، منغمسين في الأرض لعدّة كيلومترات بمحاذاة الطريق المؤدية إلى المطار.

كان نلسون يبحث عن أفضل مكان ليضع فيه خطّ تنصّت، عندما أعلمته المخابرات البريطانيّة MI-6 بأنّ ذلك العمل قد أُنجز مسبقًا. إذ كان المهندسون قد قاموا بتدعيم الأرضيّة دون أن يمسّوا الباطون المسلّح ثمّ حفروا تحته سردابًا بطول عشرين مترًا ليصلوا إلى السلكَين السوفياتيَّين.

وهكذا، كانت أعمال نلسون بمثابة أضحوكة أُضيفت إلى التعقيدات التي لاقاها البريطانيّون منذ أن بدأوا أعمالهم. وحتّى يموّهوا عمليّاتهم، قام رجال MI-6، منذ البداية، بافتتاح مؤسّسة لاستيراد نسيج التويد في أحد الأبنية الملاصقة للطريق الكبرى، وكانت مثل هذه المنسوجات غير مرغوبة في ذلك الحين، وذلك لئلاّ تجلب الانتباه إليها، لكن حدث العكس تمامًا إذ أخذت هذه الأقمشة شهرة واسعة ونفذ المخزون الأول

بسرعة فائقة، وغاص البريطانيّون في موجة من طلبات الاستيراد التي ما لبثت أن أصبحت مجموعة من القضايا المزعجة بالنسبة للمسألة الرئيسيّة.

قررّت المجموعة MI-6 التخلّي عن الموضوع وانسحبت إلى بيت خاصّ استطاعت فيه إقامة خطّ تنصّت. عندها ظهر العائق الثاني إذ كان الاختيار قد وقع على طالبة فتيّة لتحمل في حقيبتها بكرات التسجيل للمحادثات المسروقة، ومن ثمّ تذهب للتنزّه في حدائق "شن برن" وهناك تسلّمها لضابط بريطانيّ. وعندما اتّصل عميل MI-6 بالفتاة قبض عليه الشرطيّ بتهمة التحرّش بالفتاة، وأسرع البريطانيّون إلى السلطات النمساويّة ليشرحوا لها الحادث المتعلّق بعمليّة Silver. ثمّ استمرّت العمليّة بشكل ممتاز حتّى ظهر عميل وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة السيّد نلسون، فاضطرّ البريطانيّون لمشاركة الأميركيّين في ذلك المصدر من الاستعلامات الذين تعبوا كثيرًا للحصول عليه.

لم يكن نلسون ليكشتف عمليّة "سيلفر"، وهي الهجوم الأوّل الناجح على خطّ اتّصالات سوفياتيّ هام، إلاّ في الوقت المناسب، إذ إنّ الاتّصالات بالراديو عن طريق التوتّر العالي أنقصت بشكل عظيم كميّة المعلومات الممكن جمعها عن طريق الموجات. فالتوتّرات المنخفضة المستعملة عادة تتبع تحدّب الأرض ويمكن التقاطها مهما بعدت عن مصدرها. ولالتقاط الموجات شديدة القصر لا بدّ إذن من التواجد في مكان يقع على خطّ مستقيم مباشر بين مصدر الاتّصال ومكان الالتقاط. وقد نتج عن ذلك، كما وضّحه أحد مصادر وكالة المخابرات المركزيّة، "أن ظهرت ثغرات هائلة في استعلاماتنا وكان ذلك شديد الازعاج، خاصّة أثناء فترة تصاعد الحرب الباردة".

في نفس الوقت، كان نلسون قد اكتشف عيبًا في آلة الشيفرة التي صنعتها شركة "بل سيستيم" وتستعملها الولايات المتّحدة في اتّصالاتها العلميّة: بحيث يمكن الحصول

على النصّ الأصليّ، غير المرمّز، للرسائل المرمّزة في آلة الشيفرة، إذا عُلّق على الأسلاك الناقلة للرسائل جهاز تنصّت خاصّ ابتكره نلسون نفسه. وهكذا أصبح موضوع فكّ الشيفرة غير وارد. فإذا وُصل التوفيق المناسب بين المكثّفات والموسّعات والأجهزة الأخرى الملائمة فلم يكن على نلسون إلاّ مشاهدة النصّ الأصليّ يخرج من جهاز فكّ الشيفرة العاديّ بسرعة ستّين كلمة في الدقيقة، ولم يكن هنالك من عوائق إلاّ أن يكون تعليق الأسلاك الواصلة على بعد أقلّ من ثلاثين كلم من المصدر.

لم يكن اكتشاف نلسون إلاّ آلة "سيجتوت" التي تعمل في الترميز الكهربائيّ للرسالة، فترسل أصداء مستضعفة للنصّ الأصليّ، وتنتشر هذه الأصداء على الخطّ في نفس الوقت الذي ترسل فيه الرسالة المرمّزة. وفي الحال عمدت الولايات المتّحدة إلى إهمال آلة "سيجتوت" دون النظر إلى النفقات المترتّبة على ذلك، واعتمدت آلة أخرى موثوقة. وأظهرت عمليّة "سيلفر" أنّه يمكن أن ينطبق عليها اكتشاف نلسون.

لقد استطاع العاملون في مركز فيينّا التابع لوكالة المخابرات المركزيّة أن يلاحظوا نفس الشيء على الرسائل الروسيّة المسروقة من سلكَي فيينّا والمرسلة من مركز فندق إمبريال الذي تقوم فيه القيادة العامّة السوفياتيّة. وسمّى نلسون هذه الأصداء "أرتيفاكت". وتلك كانت أكبر ضربة حصلت عليها الاستخبارات الأميركيّة منذ أن تمكّنت من فكّ رموز الشيفرة الروسيّة واكتشاف مصدر "هومر". لكن في هذه المرّة لم يجر إعلام سلطات MI-6 بذلك الإنجاز الذي حصلت عليه وكالة المخابرات المركزيّة.

أقام الأميركيّون خمسة اتّصالات أخرى على الخطوط السوفياتيّة في فيينّا وضواحيها، لكنّ مركز "سويشات" حيث يصل السلكان إلى السرداب المذكور أعلاه تحت الأرض، بقي أهمّ المصادر وأكبرها نفعًا، فهو الذي كشف لوكالة المخابرات

المركزيّة أنّ الاتّحاد السوفياتيّ لا ينوي شنّ هجوم عسكريّ على البلقان في الحرب الكوريّة، وتلك نتيجة هامّة للأميركيّين سمحت لهم بحريّة الحركة في أوضاعهم العسكريّة.

أسرعت وكالة المخابرات المركزيّة لاستغلال اختراع نلسون إلى أبعد مدى ممكن قبل أن يكتشف السوفيات وجود الـ "أرتيفاكت". وجرت اجتماعات تمهيديّة في واشنطن لبحث مشروع هجوم على خطوط الاتّصال السوفياتيّة في ألمانيا الشرقيّة، وذلك حسب مستندات وكالة المخابرات المركزيّة. وكانت منطقة برلين هي المنطقة المستهدفة، إذ كانت برلين في الواقع المركز الثاني بعد موسكو لجهاز الاتّصالات السوفياتيّة. وكما قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة: تلك كانت نتيجة السياسة المركزيّة للقوى الدوليّة الأوروبيّة في القرن العشرين، فكلّ الاتّصالات السلكيّة مع المقاطعات كانت تمرّ ببرلين. وكانت هذه مركزًا لأوروبّا الشرقيّة حيث تتجمّع كلّ الخطوط وبحيث أصبح عندما تتّصل القيادة السوفياتيّة في بوخارست أو في وارسو مع موسكو فإنّ طلبها يمرّ حتمًا ببرلين. وإذا نظرنا على خارطة برلين لرأينا الجهاز البرقيّ والهاتفيّ يشبه تمامًا طواحين الهواء. فهنالك حلقتان متمركزتان تضمّان كلّ المدينة، سواء كان ذلك القسم الشرقيّ أو الغربيّ منها. وفي نقاط مختلفة من دائرة كلّ من الحلقتَين تتشكّل تفرّعات: فمن حلقات الاشتقاق تنطلق كافّة الخطوط الفرعيّة التي تصل إلى مختلف الأحياء".

تأكّد نلسون من أنّ الخطوط التي تحيط ببرلين الشرقيّة من "ألتغلينكه Altglienecke" في الجنوب مارًّا بـ"كاريس هورست" مقرّ القيادة السوفياتيّة حتّى "ليختنبورغ" في الشمال، تصل كلّها إلى برلين الغربيّة. لكنّ ذلك التنظيم انقطع منذ تقسيم برلين، وبقيت الخطوط الواصلة بين القطاعَين موجودة لكنّها غير موصولة مع

المركز النهائيّ. واستنتج نلسون أنّه يكفي إعادة الوصل حتّى يمكن الحصول على كلّ المخابرات السوفياتيّة.

كان "هارفي" رئيسًا لقاعدة برلين، فاتّصل مع عميل له في ليختبورغ يعمل في محطّة الانشقاق، وأعطاه تعليمات واضحة ودقيقة حتّى يربط الخطوط بسلك يكون طرفه الثاني في مركز برلين التابع لوكالة المخابرات المركزيّة. وبما أنّ الموضوع كان متعلّقًا بخطوط عاديّة فلم يكن الأمر إلاّ تجربة موقّتة. ولا بدّ من أن يشعر موظّفو الهاتف في برلين بوجود تنصّت، لكن حتّى يحدث هذا يمكن إقامة جهاز تنصّت دائم. وبمساعدة التقنيّين الألمانيّين الغربيّين استطاع أحد التقنيّين التابعين لوكالة المخابرات المركزيّة وضع أجهزته داخل المركز الأميركيّ في مكان بسيط ليس له نوافذ حيث بقي ثلاثة أسابيع يراقب حسن سير المسجلاّت جامعًا بكرات التسجيل الواحدة تلو الأخرى، وكان ذلك نجاحًا عظيمًا. وكما في فيينّا كان بالإمكان التقاط الأصداء للرسائل المشفّرة وبالتالي الحصول على نصّها من الأرتيفاكت. وكانت المرحلة الأخيرة إقامة الاتّصال الدائم على الخطوط السوفياتيّة وتلك كانت تواجه عقبات شديدة، إذ كان لا بدّ من إنشاء دهليز كما في فيينّا لكن أكثر طولاً. فلا بدّ من حفر مئات الأمتار، وكان الصعب في ذلك هو تجاوز الحدود حيث الحرّاس الألمان يقومون بالدوريّات بشكل دائم. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تجري فيها محاولة من هذا النوع.

لم يكن لدى وكالة المخابرات المركزيّة في ذلك الحين خبراء في موضوع الأنفاق إلاّ مهندسًا شابًا يحمل شهادة في ميكانيك التربة ويعمل في مكتب الاتّصالات، وكان لدى الاستخبارات البريطانيّة خبرة جيّدة في ميدان حفر الآبار وكانوا قد توصّلوا إلى تقنية ممتازة في الحفر من الأسفل إلى الأعلى في التربة دون إحداث انهيارات، لذلك كان لا بدّ من التعاون بين الدولتين في هذا المضمار. وبعد عدّة اجتماعات استقرّت

قراراتهما على النصوص التالية المدوّنة والمحفوظة في أرشيف وكالة المخابرات المركزيّة، على أن تقوم هذه بالأعمال التالية: ١) إيجاد المكان في النقطة S وحفر نفق حتّى النقطة الواقعة تحت الكابلات المقصودة من النقطة G. ٢) تكليف الأجهزة المختصّة بتسجيل كافّة الحركات والإشارات المحدثة. ٣) معالجة كافّة الاتّصالات البرقيّة في مركز واشنطن. وجرى تكليف MI-6 بالأعمال التالية: حفر بئر من الأسفل إلى الأعلى تحت الكابلات في النقطة G، وإجراء وصل الكابلات على الخطوط وإعلام إدارة النفق بذلك حتّى يجري تسجيل الإشارات الصادرة، وأخيرًا إنشاء مركز في المكان D تجري فيه معالجة المحادثات الشفويّة.

عُهد إلى هارفي بالإدارة العامّة للمشروع الذي تلقّى اسمًا رمزيًّا هو "غولد". وكان اختيار المكان أساسيًّا لأنّه من الضرورة القصوى أن تكون قاعدة الانطلاق أقرب ما يمكن من الكابلات، إذ إنّ كلّ متر من الزيادة في الطول بمثابة أطنان إضافيّة من التراب لا بدّ من نقلها تحت عيون الشرطة الألمانيّة الشرقيّة، كما أنّ ذلك يعني تعقيد مشكلة تهوئة النفق، وكلّ عيب في التهوئة ينعكس على زيادة حرارة التجهيزات الإلكترونيّة. وجرى انتقاء المكان في "ألتغلينكه Altglienecke"، وهي منطقة زراعيّة كانت قليلة العمران آنذاك، تقع في جنوب برلين، وحيث تمرّ الكابلات أقرب ما يمكن من المنطقة الغربيّة، وعلى بعد ٣٠٠ متر من الحدود، وعلى عمق أربعة أمتار ونصف من أرضيّة طريق "شنغلدر" الذي يربط برلين الشرقيّة إلى أعظم قاعدة سوفياتيّة في ألمانيا.

بيّنت الخرائط الجيولوجيّة بأنّ الأرض مسطّحة تمامًا ومؤلّفة من تربة رهصة رمليّة تقريبًا وبالتالي سهلة الشغل. لكنّ الصور الجويّة أثبتت وجود تباينات في إمكانيّات الصرف، فلقد ظهرت في الصور بقع قاتمة تحدّد الأمكنة الرطبة سيّئة

الصرف كان لا بدّ من الابتعاد عنها لأنّ المياه تعقّد عمليّات الحفر وتضرّ بالأجهزة الإلكترونيّة. أمّا المنطقة الأكثر بياضًا في الصور فهي الأكثر جفافًا، وكان معظمها في منطقة المقابر الموجودة شرقيّ الحدود. لقد كانت تلك المقبرة أفضل مكان لفتح النفق حسب رأي مهندس . "لكنّ ذلك الحلّ لم يجرِ تبنّيه لأسباب أخلاقيّة لأنّنا لم نرد أن يتّهمنا الروس يومًا بأنّنا قد اخترقنا حرمة المقابر الألمانيّة". هكذا قال جورج بورت أحد ضبّاط مركز برلين التابع لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، وهكذا تمّت الموافقة على تبنّي مخطّط النفق بحيث يمرّ شمال المقبرة وبمحاذاتها.

إستقلّ هارفي الطائرة إلى واشنطن ليقدّم المشروع إلى مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة ألن دالاس وفرانك ويسنر وريتشارد هيلمز ومسؤولين آخرين في وكالة المخابرات المركزيّة. ولم يخفِ كثير من المسؤولين خشيتهم، لكنّ حماس هارفي بدّد كلّ المخاوف. وقد قال المهندس: "لولا هارفي لما وُجد النفق، وكان من السهل رفض المشروع وعدم تحمّل المخاطر، لكنّ هارفي لم ينقطع عن الإلحاح على المسؤولين والتشديد عليهم حتّى اضطرّوا إلى الاستسلام لرأيه". وقد أثبتت هذا القول شهادة أحد الذين شاركوا في هذا الاجتماع فقال بدوره: "إنّني أعتقد بأنّه لا المدير ولا فرانك ويسنر ولا هيلمز لم يكونوا ليتورّطوا في مثل هذا المشروع لو لم يكن هناك شخص مثل هارفي في برلين. وبعد أن وافق ألن دالاس على المشروع أوعز، لأسباب أمنيّة، بألاّ يجري وبقدر الإمكان تحرير أيّ مراسلات مكتوبة في هذا المضمار. وهكذا جرى تنفيذ هذا المشروع بأكبر قدر مستطاع من السريّة في تاريخ الوكالة".

في بداية عام ١٩٥٧ انكبّ فريقان هندسيّان على المشروع كلّ من جهته وعلى بعد تسعة آلاف كيلومتر أحدهما عن الآخر. ففي برلين باشر فريق بإنشاء مستودع فوق المكان S الذي سيبدأ فيه النفق، وفي قاعدة "وايتساندز" في ولاية مكسيكو كان

ستّة عشر رقيبًا جرى انتقاؤهم بالقرعة يعملون تحت إدارة المهندس "ليسلي غروس" بحفر خندق مماثل تحت رمال الصحراء في تربة مماثلة للأرض البرلينيّة. وممّا رفضه رئيس المهندسين العسكريّين في برلين ذلك المستودع الذي يؤدّي إلى قبو ارتفاعه أربعة أمتار، إذ لم يجرِ، في أيّ عهد من عهود الجيش تنفيذ مثل هذا المشروع، لأنّ ذلك يتطلّب نقل كميّات كبيرة من التراب واستعمال شاحنات قلّابة لنقله إلى مكان بعيد. لذلك كان لا بدّ من أوامر صادرة من واشنطن لإقناع رئيس المهندسين بإعطاء إشارة الضوء الأخضر لرجاله. ومن ثمّ تطوّع أحدهم فشرح له بأنّ لبّ القضيّة هو بناء محطّة اعتراض إداريّة تحت الأرض وليس الغرض منه هو إنشاء القبو بحدّ ذاته.

عند الانتهاء من بناء القبو أتى فريق آخر من النقّابين وباشر العمل على ملئه، من جديد، بـ ٢,١٠٠ طنّ من التراب الذي كان من المتوجّب نقله ليتمّ نقب نفق بطول ٤٤٦ مترًا وبقطر مترَين.

إنتهى بسرعة نفق التجربة الذي صُنع في نيو مكسيكو وكان طوله ١٣٧ مترًا، وجرى تنفيذه في أرض مماثلة لتركيب أرض برلين، أي أرض رهصة جدًّا في كلتَي الحالتَين. وكانت المشكلة الأساسيّة هي منع انكباسها لأنّ ذلك كان سيوضّح ظهور خطّ على سطح الأرض ويفضح وجود دهليز تحتها. وهكذا كلّما كان النفق عميقًا كلّما أمكن تلافي عمليّة الانكباس، لكنّ ذلك يزيد من كميّات الأتربة الواجب نقلها عند فتح الآبار، كما يزيد من الضغط الواقع على جوانب النفق. وقام المهندسون بإجراء الحسابات اللازمة فتبيّن أنّ أفضل عمق لقاع النفق هو ستّة أمتار عن سطح التراب.

عندما انتهى العمل بالنفق المكسيكيّ توجّه الستة عشر رقيبًا إلى ريتشموند بولاية فرجينيا حيث جرى العمل، في أحد مستودعات الجيش، على تجميع المعدّات المطلوبة

لعمليّة "غولد" وهي الإسم الرمزيّ. كان هنالك ١٢٥ طنًا من صفائح الفولاذ المقوّس التي كان مقدّرًا لها أن تُلحم بعضها مع البعض الآخر لتشكّل جدران نفق برلين. وجرى رشّ سطوحها بالكاوتشوك لئلاّ تحدث صوتًا عند استعمالها من قِبَل العاملين في النفق. وعندما انتهى العمل فيها وُضعت ضمن عبوات كبيرة كُتب عليها "قطع تبديل" أو "لوازم مكاتب" وأُرسلت بالباخرة إلى "بريمر هافن"، ومن ثمّ نُقلت على قطار بضائع باتّجاه برلين، وبعد ذلك بواسطة شاحنات حتّى مستودع "ألتغلينكه Altglienecke".

طبيعيّ أنّ أعمال الأميركيّين تحت أنظار الشرطة الألمانيّة جلبت انتباه هؤلاء إذ كان العمل يجري على بعد أقلّ من مائة متر منهم، فلا يمكن أن يسيَّج مستودع عاديّ بصفّين من الأعمدة الحاملة للأسلاك الشائكة، فضلاً عن وجود المولّدات الكهربائيّة العاملة على محرّكات الديزل الضخمة، من ثمّ فإنّ كلّ العاملين فيه يحملون شارة مصلحة الاتّصالات، وكان الهوائيّ الضخم الذي يرتفع عن سطح المستودع من نوع AN/APR-9، وهو المستقبل الضخم والأكثر إتقانًا الذي كانت تمتلكه الولايات المتّحدة الأميركيّة. وكان المستودع، كما يبدو من ظاهره، محطّة اعتراضيّة راداريّة مهمّتها مراقبة النشاطات المختلفة للقاعدة السوفياتيّة المجاورة في "شونفيلد". وكانت هذه التمويهات المختلفة ذات غرض أساسيّ هو جعل الشرطة المعادية للأميركيّين تعتقد بما آمنت به فعلاً وهو أنّ المحطة راداريّة، كما أنّ الذي اختار الهوائيّ لم يكن إلاّ المهندس الجغرافيّ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة الذي قيل بأنّه كان يتجوّل في المكان بمظهر جذّاب مثير.

إنتهى بناء المستودع في آب ـ أغسطس ١٩٥٤ وكان الطابق السفليّ منه غاصًّا بالصناديق من "قطع التبديل" أو من "لوزام المكاتب". أمّا القبو فقد كان فارغًا وجاهزًا لاستقبال الأطنان المتلاحقة من التربة. لكن قبل البدء كان لا بدّ للستّة عشر رقيبًا من

أن يقوموا بلعبتهم المفضلة وهي "السوفتبول" وهي لعبة مشابهة للبيسبول لكنّ الكرة فيها أكبر وأقلّ قساوة.

كان أكثر الحسابات صعوبة وأهميّة تلك التي هدفت إلى تحديد النقطة الدقيقة التي يجب البدء بالحفر عندها من الأسفل إلى الأعلى للوصول إلى الكابلات السوفياتيّة. ولم يكن باستطاعة المهندسين حساب ذلك إلاّ إذا توفّرت لديهم نقطة علاّم في القطاع السوفياتيّ يعرفون أبعادها تمامًا، لذلك قرّروا إدخال شيء ما إلى القطاع السوفياتيّ معروف الأبعاد وكان كرة السوفتبول. لذلك كانت كلّ ضربة "طويلة" من كرة السوفتبول مقصودة، فكان الحرّاس من الشرطة الألمانيّة الشرقيّة يهرعون لالتقاط الكرة وإعادتها قبل أن يستطيع أحد التقنيّين العاملين داخل المستودع القيام بعمله في إجراء القياسات اللازمة، لذلك كان لا بدّ من إيجاد وسيلة أخرى لهذا الهدف. فطلبت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة إلى اثنَين من عملائها في ألمانيا الشرقيّة أن يجعلا أحد إطارات سيّارتهما ينفرز على طريق "شونفلدر"، وأثناء تغيير الإطار يضع أحد العميلَين مرآة عاكسة صغيرة على الطريق بواسطة التيودوليت الإلكترونيّ، الموجود خلف إحدى الفتحات الصغيرة ضمن المستودع، والذي يتلقّى الحزمة الضوئيّة من المرآة المعاكسة. واستطاع التقنيّون تحديد المسافة بدقّة بين النقطتَين ممّا جعل المهندسين يتوصّلون إلى تحديد أمكنة الكابالات بدقّة لا يتعدّى الخطأ فيها خمسة عشر سنتيمترًا. وانطلاقًا من نقطة تقع في الزاوية الشماليّة من القبو تمّ حفر بئر قطره خمسة أمتار ونصف، وعمقه ستّة أمتار، وغُمست في قاعه ركاسات ثقيلة لم يبق ظاهرًا منها إلاّ نصفها. من ثمّ أُنزلت فيه حلقة كبيرة من الفولاذ قطرها متران ومجهّزة برافعتَين هيدروليكيّتَين متوضّعتَين أفقيًّا حول دائرتها، ورُبطتا بالركاستَين والحلقة الحديديّة حتّى تتمّ الحماية اللازمة من الانهيارات وتكون بمثابة درع وُضعت على الجدار الترابيّ

الذي كانت تنطلق منه الحفريّات، وأضحى كلّ شيء جاهزًا في رحلة النفق الأرضيّ نحو الشرق باتّجاه "شونفلدر".

قام ثلاثة رجال مجهّزين بالمناقب والرفوش بنقب الجدار إلى عمق خمسة سنتيمترات وعملت الرافعتان واحتلّت الحلقة الدرعيّة مكانها المناسب. وعندما أصبح العمق المحفور بمقدار ثلاثين سنتيمترًا استطاع العاملون وضع أول الصفائح الفولاذيّة، وهكذا جرت العمليّة بالتتالي. وكانت كلّ صفيحة مجهّزة بثقب يسمح بصبّ الباطون تحت الضغط ليملأ كلّ الفراغات البينيّة ويمنع مخاطر الانهيارات السطحيّة. وقد استلزم بناء النفق نحو ألف متر مكعّب من الباطون، وعندما بلغ طول النفق مائة وثمانين سنتيمترًا، لم يعد من الضروريّ دعم الرافعتَين للدرع الفولاذيّ أمام ركاسات الأساس إذ إنّ ضغط سقف القسم المحفور كان كافيًا ليكون قاعدة دعم لتقدم الدرع. كان العمل جاريًا ليل نهار والمهندسون يتناوبون العمل على ثلاث دوريّات كلّ منها من ثماني ساعات، فكان ثلاثة منهم يقومون بالحفر واثنان ينقلان الركام في سكائب، ومن ثمّ بواسطة عربة صغيرة مجهّزة برافعة على شكل رفش كانت تنقل كلّ ذلك إلى مدخل النفق حيث يوضع في ملفاف ينقلها إلى قاع القبو حيث يجري تفريغها، وكان يبقى جزء من الركام داخل النفق فيضعه شخص سادس ضمن أكياس يتمّ ترتيبها على جوانب النفق ومن ثمّ توضع عليها مراوح التهوئة لتمدّ العاملين في النفق بالهواء المكيّف. وكانت صفائح الفولاذ المقوّس تأتي بالاتّجاه المعاكس للركام بعد أن يجري تفريغ النفق، وأُقيم في أعلى البئر مركز للمراقبة بحيث أنّ عمليّة النقب تجري في الاتّجاه السليم دون أيّ انحراف عن الخطّ المرسوم.

بعد خمسة عشر مترًا من الحفر وجدّ النقّابون المياه، واعتقد المهندس الجغرافيّ بأنّ ذلك ناشئ عن جيب مائيّ بسبب وجود طبقة من الطين الكتيم، لكنّ الرائحة التي

انبعثت من المياه هي التي عيّنت مصدر المياه إذ تبيّن أنّها ناشئة عن الحفرة الصحيّة التابعة للمستودع، وهكذا وقع المحظور عندما توقّع المخطّطون الابتعاد عن المقبرة فوقعوا في مخلّفات الحفرة الصحيّة، وكان لا بدّ من الاستمرار... وقد فرضت واجبات الأمن استمرار العمل في جميع الحالات، وكانت الرافعتان تصابان بالاستعصاء، وفي الحالات العاديّة كان يكفي أن تضربا بالمطرقة حتّى يعود العمل إلى طبيعته، لكنّ ذلك في تلك الحالة كان سيسبّب ضجّة، لذا لا بدّ من فكّهما وتركيبهما من جديد بعد كلّ استعصاء.

أمّا على السطح فكانت المراقبة مستمرّة ٢٤ ساعة على ٢٤ ساعة بواسطة جهاز تلسكوب فلكيّ من نوع "كويستار" كان موضوعًا تحت سقف المستودع، وكان مركز المراقبة موصولاً مع النفق بواسطة هاتف ميدانيّ بحيث أنّه، عند مرور دوريّة من الشرطة الألمانيّة الشرقيّة فوق رؤوسهم كان يصدر الأمر بالتوقّف عن العمل، فيرتاح بالتالي المراقبون من عملهم المرهق.

كان "هارفي" أهمّ عملاء وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة لا يأتي إلى مكان العمل إلاّ في الليل البهيم بعد أن يستعمل طريقًا ملتوية وبعد أن يغيّر سيّارته مرّة على الأقلّ.

إنتهى العمل في النفق في ٢٥ شباط ـ فبراير ١٩٥٥ وهرع هارفي إليه متفقّدًا فمشاه من أوّله إلى آخره، ووقف هنيهة تحت "شونفلد"، وكان هنالك باب سميك من الفولاذ، يفصل الخمسة عشر مترًا الأخيرة من النفق، كُتب عليه، من جهة الخصم الأخرى، العبارة التالية بالروسيّة والألمانيّة:

"ممنوع الدخول بأمر من الجنرال قائد القطاع".

أُقيم على رأس النفق درع آخر حتّى يجري الحفر الشاقوليّ إلى مستوى الكابلات الروسيّة، وتمّ اتّباع نفس التقنيّة، إلاّ أنّ الوجه الأماميّ للحلقة الفولاذيّة كان مجهّزًا برقاقات قابلة للنزع لكنّها تمنع السقف من الانهيار. وعندما تُنزع كانت تؤخذ كلّ واحدة بمفردها حتّى لا تكشف إلاّ جزءًا بسيطًا من الأرض، ومن ثمّ يجري حكّ التراب الباقي رويدًا رويدًا، ثمّ توضع الرقاقة في مكانها ويجري نزع التراب فوق الرقاقة المجاورة. وعندما ينتهي نزع التراب نهائيًّا كانت تُرفع الحلقة الفولاذيّة بواسطة الروافع بوصة بعد بوصة حتّى تصبح على مقربة من الكابلات التي ما إن ظهرت حتّى بدت ثلاثة فقط، ثخن كلّ واحدة منها بمقدار ثخن الذراع ومحاطة بالكاوتشوك الأسود، وبواسطة رافعة كهربائيّة تمّ شدّها نحو الأسفل ليستطيع التقنيّون العمل بشكل أسهل. وشُيّد سقف من الباطون المسلّح ليمنع كلّ انهيار بسبب مرور السيّارات على الطريق الكبرى، وكان لا بدّ من الزمن حتّى يعتاد العاملون في النفق على صوت السيّارات المنطلقة على الطريق فوق الرؤوس. وعُزلت الحجرة صوتيًّا لئلاّ تصبح مثل الطبل. وأُقيم عند مدخل النفق باب مضاعف من الفولاذ حتّى يمكن الحفاظ على ضغط زائد داخل النفق لمنع آزوت الكابلات الروسيّة من الانفلات عندما تجري عمليّة تسليخها، فالأزوت يحمي الأسلاك من الرطوبة ويسمح بالتأكّد من كمالها. ويسمح الضغط الزائد بمنع التسرّبات لكنّ تنفّس العاملين وتعرّقهم في جوّ بمثل هذا الثقل كان يؤدّي إلى رطوبة فائقة بحيث أنّه كان لا بدّ من الخروج بشكل منتظم حتّى يقوم جهاز تهوئة بتجفيف المكان.

كانت فترة وضع خطوط التنصّت بمثابة اللحظة الأكثر خطورة في هذه العمليّة المغامرة. وكان الألمان الشرقيّون يتأكّدون، بانتظام، من سلامة داراتهم بواسطة كشّاف للتسرّبات وهو جهاز حسّاس ينقل النبضات عن الخطّ ويسجّل قفزة عند كلّ انقطاع.

لذلك كان لا بدّ من اعتراض جزء في منتهى الصغر من الإشارة بحيث لا يستشعر الجهاز الضياع المرتقب من الطاقة. فبعد نزع الغلاف الواقي للكابلات ربط الخبراء الإنكليز، بعناية تامّة، خطوط التنصّت على الدارات الملوّنة. وتنقل هذه الأسلاك الإشارات إلى المؤسّسات المتواجدة في النفق، من ثمّ تعود إلى الخطوط الرئيسيّة بكاملها في الدارة الأصليّة. وتقوم الموسّعات بتجهيز الفئات من الصوت وتمرّ على الكابلات المغلّفة بالرصاص والملقاة على أكياس التراب الموجودة على جانبَي النفق، ومن ثمّ يسجّل الصوت على المسجّلات الكثيرة من نوع "أمبيكس" المنشّطة والموجودة في المستودع، الذي أصبح هكذا مكان طنين مائة وخمسين من المسجّلات التي تشتغل وتتوقّف حسب تواتر وإيقاع الإشارات التي تحوّلها.

لم يبقَ بعد ذلك إلاّ استغلال الغنيمة، وتلك هي مهمّة عظيمة الضخامة خاصّة إذا علمنا أنّ الكابلات الروسيّة تحتوي على ١٧٢ دارة تحمل كلّ منها ثمانية عشر قناة على الأقلّ. وكانت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة تخاطر بأن تصبح ضحيّة نجاح أعمالها، فكان لا بدّ من إيجاد وسيلة لغربلة تلك الكيلومترات من الأشرطة المسجّلة قبل أن تصبح المعلومات الموجودة غير صالحة للاستعمال. فقد تحتوي بكرة "عمليّة تحضيريّة لهجوم ضدّ برلين الغربيّة"، فماذا يمكن أن تنفع مثل تلك المعلومات إن لم يتمّ استغلالها في الوقت المناسب؟

منذ البداية كان بالإمكان مراقبة بعض الدارات محليًّا ومن ثمّ الإبراق إلى واشنطن أو إلى لندن بالمعلومات الناتجة والهامّة. ولم تكن الأهميّة موجّهة إلى دارات القيادة العليا السوفياتيّة بل إلى دارات الشرطة المحليّة في ألمانيا الشرقيّة، وذلك ممّا سمح بمتابعة تنقّلات فرق الصيانة ومعرفة برامج الشرطة الألمانيّة الشرقيّة الخاصّة بالمنطقة التي يجري التجسّس فيها. ربّما كانت هذه الدارات هي أوّل مَن شعر بوجود

عمليّة التنصّت. أمّا ما تبقّى من بكرات التسجيل الأخـرى فكـانت ترسـل إلـى الخطـوط الخلفيّة بواسـطة طـائرة عسـكريّة وتحـت حراسـة مشـدّدة. وكـانت التسـجيلات البرقيّـة ترسل إلى واشنطن والمحادثـات الهاتفيّـة إلـى لنـدن حيـث يقـوم فريـق مـن المهـاجرين الروس بترجمتها. وكانت تصـل إلـى مركـز T-32 فـي واشـنطن كـلّ المحادثـات التـي تجري معالجتها على الآلات الكثيرة التي كانت تعجز أرضيّة البناء عن تحمّل وزنهـا لكثرة عددهـا. وقـد أُعيـد تغليـف بنـاء مركـز T-32 بصفـائح فولاذيّـة لمنــع الذبذبـات الإلكترونيّة من الانفلات في الجو لتفادي تحذير المعسكر الخصم.

كانت الأشرطة تمرّ في أجهزة التمحيص بسرعة ١٥٠ سـنتم بالثانيـة، أي بسـرعة تزيد بأربع مرّات من سرعة تسجيلها الأصليّة، ويجري تفريق القنـوات الثمانيـة عشـر الموجودة في كلّ من الدارات. ومـن ثـمّ تمـرّر التسـجيلات الناتجـة عـن آلات قـراءة عاديّة مربوطة مع طابعات آليّة تطبع الكـلام بمعـدّل مائـة كلمـة فـي الدقيقـة. ثـمّ تُرفـع النتائج، بعد تطبيق طريقة نلسون عليها، إلـى مجموعـة مـن المـترجمين لترجمتهـا إلـى اللغة الإنكليزيّة.

كان بعض الـدارات يحتـوي علـى إشـارات مبهمـة، فتـمّ عرضـه علـى فريـق مـن خمسـة خبـراء فـي الاتّصـالات فـي "تورمبرغ". ولوحـظ، للمـرّة الأولـى، أنّ الـروس كانوا يستعملون أجهزة إرسال برقيّة ذات قناتَين فتنقل رسالتين مع بعضهمـا، وتتنـاوب أحرف الرسالة الأولى مع أحرف الثانية. فإذا كانت القناة الأولـى تنقـل كلمـة صـاروخ ص. ا. ر. و. خ. والثانية كلمة قذيفة ق. ذ. ي. ف. ة. فإنّ الشـريط المسـجّل يحتـوي علـى ص. ق.ا. ذ. ر. ى. ز, ف. خ. ة. وعندهـا توصّـل الخبـراء الأمـيركيّون إلـى اكتشاف تلك الطريقة التي كان الروس قد اعتمدوها من خلال طابعة برقيّة على ثـلاث قنوات.

في بعض الأحيان كان يختفي بعض الدارات، بدون أسباب معروفة، فيجري الاتّصال مع "تورمبرغ" لتحديد هويّات الدارات المفقودة، ويقوم فريق من وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بالبحث عنها بين أمواج الأثير، وغالبًا ما لوحظ أنّ الروس كانوا يحوّلون هذه الدارات إلى موجات بالراديو (اللاسلكي)، عندها كان العاملون في نورمبرغ يسألون عن السبب. كانت معالجة الأشرطة تزيد من إمكانيّة حدوث التسرّب، لذلك كان لا بدّ من الحذر الشديد. فجُمع عدد غفير من المتكلّمين بالروسيّة والألمانيّة وأعطيت لكلّ منهم مساحة لا تزيد عن خمسة أمتار مربّعة في غرفة بدون نوافذ، وقام معاون مدير القسم بزيارتهم فشرح لهم وضعهم قائلاً: "من الضروريّ لمصلحتكم ومصلحتنا جميعًا ألاّ تعلموا شيئًا عن مصدر هذه المعلومات الموضوعة بين أيديكم، ويجب ألاّ يعلم أحد بأنّنا جمعنا هذا العدد من المتحدّثين بالألمانيّة والروسيّة، فإن علم الخصم بذلك فلا شكّ في أنّه سيتساءل عن سبب ذلك ولربّما نتج عنه فشل عمليّاتنا".

رغم كلّ هذا اعترف تقرير صادر عن وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بأنّه كان من المعروف، منذ البداية، أنّ هذه العمليّة لن تستمرّ أبدًا، وأنّه كان يكفي حدوث خطأ واحد لاكتشافها، وذلك لا بدّ من أن يحدث اليوم أو غدًا وسيكتشف الألمان الشرقيّون غرفة التنصّت بالصدفة عندما يقومون بأعمال الصيانة.

وكان الإنكليز قد ارتكبوا خطيئة مبدئيّة لكنّه جرى إصلاحها في الوقت المناسب. فلم يقدّروا حقّ المقدرة كميّة الحرارة المنطلقة من الموسّعات المتواجدة على الخمسة عشر مترًا الأخيرة من النفق بين الباب "الجبهويّ" وفسحة غرفة التنصّت. وأضحى المكان شديد الحرارة رغم جهاز التهوئة، الأمر الذي عرّض العمليّة كلّها للافتضاح.

في صيف ١٩٥٥ وصل أخصّائيّ من وكالة المخـابرات المركزيّـة الأميركيّـة إلـى برلين ليتفحّص المشكلة ففتح الفتحات التي أُدخل منهـا الطيـن، وفتـح فـي التربـة ثقوبـًا مختلفة العمق ووضع فيها موازين حرارة متّصلة مع جهاز تسجيل فبرهنت تجربته عـن أنّ الأرض المحيطة بالخمسة عشر مترًا أصبحت شديدة الحرارة. وذلك يعني أنّه، منـذ حدوث بوادر البرد الأولى في برليـن، ستظهر المنطقـة الواقعـة فـوق غرفـة التنصّت بشكل واضح لأنّ الجليد لن يتشكّل فوقها ممّا سيجلب انتباه الشرطة الألمانيّـة الشـرقيّة، لذا أُقيم جهاز للتبريد على الماء وعادت الحرارة إلى قوّتها الطبيعيّة.

كما جرت لحظات ذعر أخرى إذ في صباح يوم التُقط على المسجّل الذي أُقيم فـي غرفة التنصّت، مجموعة من الضجيج الأصمّ، ولـم يستطع المراقب أن يلاحظ شيئًا بسبب الضباب الكثيف الـذي، مـا أن انقشع وظهرت الشـمس حتّـى تبيّـن أنّ الشـرطة الألمانيّة الشرقيّة قد أقامت مركز مراقبة لحركة السير فوق غرفة التنصّت تمامًا. أمّا ذلك الضجيج الأصمّ الذي تمّ تسجيله فلم يكن إلاّ ضربات حذاء الشرطيّ علـى الأرض حتّى تدفأ قدماه.

في ٢١ نيسان ـ أبريل ١٩٥٦، أي بعد أحد عشر شهرًا وأحد عشر يومًا من وضع أوّل مسـجّل "أمبيكـس" لتسـجيل إشـارات القيـادة العسـكريّة السـوفياتيّة، جـرى تسـجيل أحداث غريبة ومنذرة شكّلت علامات استغراب. لـم تكـن القضيّـة تتعلّـق بـالجليد الـذي يمكن أن يفضح وجود غرفة التنصّت، وعلى حسـب علـم وكالـة المخـابرات المركزيّـة الأميركيّـة لـم يحـدث أيّ شـيءغريب مـن شـأنه أن ينبّـه السـوفيات، علمًـا بـأنّ تحليـل عنـاصر المعلومـات المتوفّـرة والاتّصـالات المعترضــة علــى الكـابلات والمحادثـات المسجّلة على المسجّلات والمراقبة العينيّة الجارية من قِبَل وكالة المخـابرات المركزيّـة الأميركيّة أدّت إلى اكتشاف الأمر من جانب السوفيات بالصدفة فقط. بمثل هذه الجملـة

اختتم تقرير وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة "تشريح جثّة" النفق بعد اكتشاف أمره... وفي مستند آخر عزي أمر الاكتشاف إلى ظروف قاهرة خارجة عن إرادة وكالة المخابرات المركزيّة، هي أنّ أحد الكابلات أُصيب بضرر عظيم بسبب هطول الأمطار المستمرّ، ويبدو أنّ الماء المتسرّب اخترق أحد الكابلات فجعله غير قابل للاستعمال الأمر الذي أجبر السوفيات على إجراء الإصلاحات الضروريّة وانتهى الأمر باكتشاف جهاز التنصّت.

وبما أنّ هذا الاكتشاف قد كان منتظرًا فلنذكر التحليل الذي قدّمته وكالة المخابرات المركزيّة في هذا الشأن.

إنّ الذين اهتمّوا مباشرة بإدارة هذه العمليّة كانوا متّفقين جميعًا على أنّ السوفيات لو اكتشفوا النفق فإنّهم لم يكونوا ليفضحوا أمره. وكان الجميع متأكّدين من أنّه لا يمكن للسوفيات أن يعترفوا بأنّ الأميركيّين كانوا، خلال أشهر كثيرة، مطّلعين على كافّة محادثاتهم وعلى أعلى المستويات، خوفًا من إراقة ماء وجوههم. لذلك كانت الصدفة هي التي فضحت الأمر إذ كان قائد حامية برلين السوفياتيّ غائبًا عندما جرى اكتشاف النفق وكان يقوم مقامه العقيد "إيفان كوتسيوبا" وكان ارتكاسه غير منتظر: فدعا كلّ صحافيّي برلين إلى مؤتمر صحافيّ تبعته زيارة إلى النفق والمؤسّسات التابعة له، فساهمت بادرته هذه في إعطاء النفق دعاية ضخمة حتّى أضحت قضيّة تجسّس النفق من أكثر القضايا شهرة في ما بين الحرب العالميّة الثانية وحادثة الطائرة U-2، وأصبح القطاع السوفياتيّ من النفق أعظم المعالم السياحيّة جاذبيّة في برلين حتّى أنّهم جهّزوه بمقصف. ولو كان الولوج إلى آخر النفق مسموحًا لتبيّن أنّه يؤدّي إلى محطّة راداريّة بسيطة عليها هوائيّ ضخم حديث. هذا ما كان تعليق أحد المراسلين الغربيّين ليبرّر أمام قرائه موضوع النفق.

كلّ هذا حصل في الوقت الذي امتنعت الولايات المتّحدة عن أيّ تعليق.

كان هدف العقيد كوتسيوبا أن يفضح، أمام العالم، التآمر الأميركيّ الإمبرياليّ. لكنّه لم يكن يعرف فعلاً نفسيّة الجمهور الغربيّ لا سيّما وأنّ النفق أضحى شهيرًا جدًّا وصرحًا من صروح العبقريّة الأميركيّة. وكتبت صحيفة "نيويورك هيرالد تريبيون" ممجّدة النفق فقالت: "إنّه مشروع جريء إلى أبعد حدود الجرأة، وإذا كان حقًّا قد حُفر من قِبل الاستخبارات الأميركيّة فإنّ هذا النفق هو أمثولة عن القدرة والفعاليّة والشجاعة، ولا نظنّ بأنّ أيّ جهاز استخبارات في العالم أجمع قام بتنفيذ عمليّة بمثل هذه الدقّة والصعوبة والمهارة والخطورة. أمّا مجلّة التايم فكتبت تقول، إنّه نفق العجائب. وسمّته الواشنطن بوست: نفق الحبّ، لِما كان يلاقي المواطن الأميركيّ من الإعجاب والحبّ من محبّي الولايات المتّحدة.

لقد قدّم هذا النفق سيلاً من المعلومات للذين عملوا في معالجة بكرات التنصّت حتّى أيلول - سبتمبر ١٩٥٨، أي بعد عامَين على افتضاح أمره.

ما كانت قيمة هذه المعلومات؟ قال نائب مركز T-32 إنّ النفق كان مصدرًا هائلاً من أوامر المعركة، فلقد كنّا نعرف، في كلّ لحظة، مواضع القوّات السوفياتيّة، وكان لذلك أهميّة في ذلك الحين. كما أنّ هذا النفق سمح لنا بالتأكّد من قيمة مصادرنا الأخرى من المعلومات وتحديد العملاء الذين كانوا يغشّوننا، وعزّز ثقتنا بأنفسنا.

في الواقع إنّ هذا النفق فضح الأوضاع الفوضويّة وبدائيّة شبكة الخطوط الحديديّة في ألمانيا الشرقيّة، الأمر الذي عزّز اطمئنان الغرب إلى عدم قدرة السوفيات على الهجوم المفاجئ على برلين الغربيّة، وجعل البريطانيّين والأميركيّين، على الأقلّ، يواجهون ذلك الاحتمال بأعصاب باردة. لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ المعلومات التي تمّ الحصول عليها كانت ثانويّة إزاء الصدمة السيكولوجيّة التي حدثت عند اكتشاف النفق.

وبفضل أعمال التجسّس استطاع الأميركيّون أن يعلموا بأنّ الروس ينوون الاحتفاظ بـ "تشارل داشر" الجنرال الذي يترأس القطاع الأميركيّ من برلين عندما كان سيتوجّه بزيارة رسميّة إلى معرض لايبزيغ. لكن هل كان بالإمكان استعمال هذا النبأ؟ لو ألغى داشر زياراته لشكّ الروس بأمر تسرّب المعلومات في أجهزة اتّصالاتهم. وبالتالي فقد جرى الإعلان عن أنّ الجنرال داشر أُصيب بالتهاب رئويّ ألزمه الفراش طيلة أيّام المرض.

كما أنّ النفق كشف عن أنّ زوجة رئيس القوّات المسلّحة السوفياتيّة في ألمانيا الشرقيّة تتاجر بالسجّاد في السوق السوداء، فلقد سُجّل صوتها وهي تشتكي لزوجها من أحد السائقين البرلينيّين الذي رفض حمل السجّاد حتّى شقّتها.

وعندما أقام الروس حاجزًا على الطريق العام الرئيسيّ الواصل بين ألمانيا الغربيّة وبرلين، أدّت معلومات النفق إلى عدم جدوى التفسيرات الناشطة التي قدّمها خبراء واشنطن ولندن، في موضوع الكرملين، الذين كانوا يفتّشون عمّا جعل الروس يقومون بهذه الخطوة وماذا فعل الغربيّون لحثّ السوفيات على القيام بهذا العمل. لكنّ معلومات النفق أكّدت على أنّ ذلك الحاجز لم يكن إلاّ بسبب تصرّف فرديّ لأحد الرقباء الروس عندما علم بأنّ زوجته تخونه مع رئيسه فانصبّ غضبه على الأميركيّين.

لكنّ النفق سمح، أيضًا، بجس نبض السوفيات فلم يجرِ تحرّك في الجيش الروسيّ في أيّ مكان من أوروبّا الشرقيّة إلاّ وعرفت به الاستخبارات الأميركيّة والقوى الغربيّة الأخرى.

عند إنشاء وكالة المخابرات المركزيّة عام ١٩٤٧ قال وزير الخارجيّة الأميركيّة جورج مارشال: "إنّني أهزأ بما تفعله وكالة المخابرات المركزيّة لكنّ الشيء الوحيد الي أطلبه منها هو أن تكون قادرة، إذا أراد الروس مهاجمتنا، على أن تعلمنا بذلك

مباشرة. وهكذا تمكّنت وكالة المخابرات المركزيّة، بواسطة نفق برلين، من أن تقوم بذلك الدور في الوقت الي لم يكن لها، في الجهة الأخرى لِما يسمّى بالستار الحديديّ، أيّ إمكانيّة لفعل ذلك.

لم يكن لوكالة المخابرات المركزيّة إلاّ هدف واحد هو أن تعيد الكرة مرّة أخرى بواسطة نفق آخر أُعطي اسمًا رمزيًّا هو "برونز"، والذي كان مقدّرًا له الوصول إلى ما تحت المركز الهاتفيّ لبرلين الشرقيّة، لكنّ البيت البيض رفض الاقتراح رغم أنّ الرئيس أيزنهاور ساند عمليّة "غولد" لكنّه بدا وكأن الصدمة المفجعة قد أصابته عندما علم بأنّ نتيجة "غولد" كانت اختراق حرمة أراضي ألمانيا الشرقيّة.

في الواقع، إنّ المشروع كان قد عُرض على الرئيس أيزنهاور بشكل عموميّ جدًّا ولم يطرح هو أيّ سؤال تقنيّ. هذا ما أكّد عليه "ديلون أندرسون" مستشار الرئيس في القضايا المتعلّقة بالأمن القوميّ قائلاً: "لم نكن نعرض على الرئيس إلاّ جوهر المعلومات الأكثر أهميّة لكنّه برأيي لم يكن يحرص على أن يعرف أنّه يجب أن نحفر نفقًا لنحصل على مثل ذلك". وهكذا تواجد التبرير اللازم لاختراق حرمة سيادة دولة مستقلّة.

ومنذ ذلك الوقت اضطرّت وكالة المخابرات المركزيّة إلى الاكتفاء بوسائل أقلّ إبهارًا لكنّها بنفس مستوى الحذاقة، على الأقلّ في ما يختصّ باعتراض اتّصالات الخصم. فكان يجري إرسال العملاء الحاملين أجهزة متخفيّة قادرة على تسجيل الإشارات المنبعثة من الأسلاك، ليقفوا تحت الخطوط الهاتفيّة المعلّقة. كما جرى التفكير بابتكار مقاطع نهائيّة مزيّفة على العمود البرقيّ، مصنوعة من البلاستيك ومحتوية على جهاز إرسال واستقبال يستطيع، من جهة، أن يلتقط الإشارات المنبعثة من الأسلاك، من جهة أخرى يرسلها إلى محطّة تنصّت واقعة في برلين

الغربيّة. لكنّ تلك الأمور لم تكن لتقارن بالثغرة التي فتحها النفق على الاتّصالات السوفياتيّة.

وفي خلال حفل سريّ مدح ألن دالاس العميل هارفي على إنجازه وعلّق على صدره الميداليّة التمييزيّة للوكالة، ثمّ حيّا النفق قائلاً بأنّه أحد المشاريع الأكثر جرأة وإثمارًا من بين كلّ الأعمال المماثلة عبر التاريخ.

هارفي هذا الذي حاز على إعجاب ألن دالاس، أصبح بعد عشر سنوات صاحب الإسم الذي شُطب من مكتب التحقيقات الفدراليّ وهو الذي فضح "كيم فيلبي" أكبر خلد للسوفيات في أجهزة الاستخبارات الغربيّة، وهو الذي أدار عمليّة "غولد" أعظم تسلّل لوكالة المخابرات المركزيّة عبر الستار الحديديّ، حتّى أضحى أكثر الجواسيس الأميركيّين شهرة. ولم يكن ليضاهيه في التفوّق داخل الوكالة إلاّ "أنغلتون" الذي نجح، بواسطة اتّصالاته مع الإسرائيليّين، في الحصول على نسخة من التقرير السنويّ السريّ الذي يفضح ستالين، وكان قد قدّمه خروتشوف للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ عام ١٩٥٦، لكنّ ذلك النجاح أدّى إلى مأساة رهيبة، حسب تعبير أنغلتون، وقام دالاس متجاوزًا رأي أنغلتون فقدّم نسخة من هذا التقرير إلى صحيفة نيويورك تايمز بعد أن عدّل من نصوصه تعديلاً واضحًا بحيث شعرت شعوب أوروبّا الشرقيّة جميعها بأنّ السوفيات يتآمرون على مصالحهم. وبالرغم من أنّ السوفيات أذاعوا النصّ الرسميّ للتقرير كما جرى توزيعه في مجلس السوفيات الأعلى، لم تقتنع كافّة شعوب أوروبّا الشرقيّة بأنّ النصّ المعلن هو النصّ الحقيقيّ بل آمنوا بما بثّته إذاعة أوروبّا الحرّة وما نشرته صحيفة نيويورك تايمز. وسبّب الغليان الناشئ عن هذا التقرير ثورة المجر، وكانت الاستخبارات الأميركيّة مستعدّة للتدخّل بعملائها وعناصرها من الكوماندوس الهنغاريّين المهاجرين الذين كان يجري تدريبهم في قاعدة

سريّة في ألمانيا الاتّحاديّة، لكنّ تلك المؤامرة باءت بالفشل الذريع. وقد كان لأنغلتون تحليلاً آخر في هذا المجال. وربّما كان محقًّا في الاستنتاج القائل بأنّ كلّ نجاح في عالم التجسّس تعقبه نكسة ذات انعكاسات كارثويّة[١].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة، ص٢٥٤ ـ ٢٧٠.

التعايش الإستخباراتي في نهاية الحرب الباردة

في نهاية العقد التاسع من القرن العشرين، ذكر بعض الباحثين أنّ الحرب الباردة قد تكون انتهت... لكنّ وكالات الاستخبارات العالميّة لا تزال تقاتل من أجل الحصول على موازنات أكبر وبنفس الوقت تعمل على إعادة توزيع قوّاتها وتحديد قياداتها الجديدة.

الموضوع، تناولته مجلّة "تايم" الأميركيّة فقالت:

ممارسة خيبة الأمل تمثّل للجواسيس فنّ البقاء... وفي هذا المجال عمل مواطن ألماني غربي خبير بالإلكترونيّات خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة في قلب المقرّ العام لحلف الأطلسيّ في العاصمة البلجيكيّة بروكسل حيث أشرف على حلّ رموز الشيفرة السريّة المتعلّقة بأدقّ المعلومات عن الحلف الأطلسيّ.

لم يواجَه الرجل في عمله بأيّ تساؤل حول صدق نواياه وإخلاصه... إلاّ أنّه قبل أسبوعين انكشف سرّه استنادًا لمعلومات وردت من الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة... فقام البوليس البلجيكيّ بتفتيش منزله بضواحي بروكسل وعثر على أجهزة اتّصال وحقائب مزدوجة القعر، إلى جانب مستندات أطلسيّة سريّة للغاية...

ويُعتقد أنّ الخبير "هاينز هاموت فيرنر" كان يعمل جاسوسًا منذ عام ١٩٦٩ نقل خلالها كافّة المعلومات عن حلف الأطلسيّ وألمانيا الغربيّة لرؤسائه في برلين الشرقيّة.

عمليّة الكشف عن الجاسوس فيرنر قبل عام كانت ستثير ضجّة واسعة... أمّا يومذاك، وبعد بدء المفاوضات لتوحيد ألمانيا والأجواء الدافئة في العلاقات بين الشرق

والغرب، فإنّ القصّة بقيت في حدودها الدنيا... لأنّ عالم الجواسيس الذين كانوا يتصارعون في وسط أوروبّا لمصلحة حلفي وارسو والأطلسيّ كان قد بدأ يشهد تغييرات واسعة.

وفي تلك الآونة (أواخر ثمانينات القرن العشرين) بدأت الصحف والمجلاّت السوفياتيّة بنشر التفاصيل عن أوجه الحياة في الاتّحاد السوفياتيّ والتي طالما سعى الأميركيّون عبر وكالة استخباراتهم CIA لمعرفتها... وقام رئيس تشيكوسلوفاكيا "فاكلاف هافل" بالكشف عن متفجّرات الـ"سمتكس" الرهيبة التي صدرت كميّات كبيرة منها لعدّة دول، بينها ليبيا، فيما حلّت سلطات ألمانيا الشرقيّة جهاز استخباراتها، لكنّ هذا لم يوقف عمليّة التجسّس المتبادلة بين السوفيات ودول أوروبّا الشرقيّة والغرب بشكل عامّ، في محاولة للاحتفاظ بمصدر ثمين للمعلومات مع تغيير في نوعيّة الطلب والنشاطات.

فالسوفيات مثلاً، كانوا يحاولون تنشيط الـ"بيريسترويكا" عن طريق الحصول على أسرار التكنولوجيا الغربيّة، ويكلّفون عملاءهم في الولايات المتّحدة بالبحث في سجلاّت الكونغرس والمكتبات الكبرى للتعرّف عن كثب على أسرار الإدارة.

أثناء ذلك، لا تبدو موسكو أو واشنطن على استعداد للتخلّي عن مهنة التجسّس. إذ إنّ دوائر الاستخبارات في كلّ من البلدين كانت قد بدأت البحث عن طرق جديدة للحصول على معلومات محدّدة وكذلك زيادة موازناتها. وكان يسعى الجانبان لدرس إعادة توجيه العمليّات وتمويلها بعد تغيير الأوضاع في العالم.

يقول السناتور الديمقراطيّ "دايفيد بورني"، عضو لجنة الاستخبارات في الكونغرس: "في الوقت الذي يتراجع فيه سباق التسلّح فإنّ سباق التجسّس يتقدّم"...

كانت لا تزال موسكو وواشنطن تعملان بجديّة تامّة على مراقبة ترسانات السلاح في البلدين استنادًا للمعلومات المتوفّرة عبر الأقمار الاصطناعيّة وأجهزة الكومبيوتر... وكان يبدو الجانبان متعطّشين للحصول على معلومات عن المناطق التي تتطلّب دراسات إنسانيّة وتحليلات حديثة... ويقول "وليام وبستر" مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA في حينه: "إنّ الإصلاحات التي أدخلها غورباتشوف أصبحت تتطلّب توفير أكبر قدر من المعلومات الاستخباراتيّة خاصّة في مجالات نوايا الكونغرس ومسائل الدفاع والتكنولوجيا المتقدّمة... وبالنسبة للولايات المتّحدة، فإنّها لا تزال تحتاج لمعلومات دقيقة عمّا يحدث في أوروبّا الشرقيّة وكذلك العالم الثالث"...

ويضيف "ستانفيلد تورنر" المدير السابق للـ CIA: "إذا لم ننشئ شبكة استخبارات عالميّة واسعة اليوم فإنّنا لن نحصل عليها بعد عشرة أعوام عندما نحتاجها"...

وتجمّعت معلومات في حينه عن أنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB لم يخفّف نشاطات عملائه... إذ قال وبستر: "نحن نشاهد علامات بأنّ السوفيات أصبحوا أكثر عدائيّة وأصلب مواقف... وهناك المزيد من الخنادق تصنع"... وأشار إلى محاولات سوفياتيّة جارية لاستخدام عملاء جدد سواء في أوروبّا أم الولايات المتّحدة.

وكشف جاسوس سوفياتيّ لجأ إلى الغرب في تلك الحقبة عن الوحدة T التي تتخصّص في مجال التجسّس الصناعيّ... وأنّها جمعت أكثر من ٢٥ ألف وثيقة فنيّة وأربعة آلاف قطعة من المعدّات بين ١٩٨٤ و١٩٨٨.

وكانت تتعاون عدّة أجهزة تجسّس أفريقيّة مع الـ KGB لجهة الحصول على الأسرار الأميركيّة في الخارج.

وقال معاون رئيس مكتب التحقيقات الفيدراليّ الأميركيّ FBI في حينه "أوليفر روفيل": "التجسّس السوفياتيّ أصبح أكثر عدائيّة بشكل كبير في العقد الأخير".

من جهته كان جهاز الـ KGB يشكو من ارتفاع عدد المواطنين السوفيات الذين يسافرون إلى الخارج، ويتعرّضون لإغراءات من قبل الأجهزة الاستخباراتيّة الغربيّة... وأشار إلى أنّ المحاولات تضاعفت ثلاث مرّات بين ١٩٨٥ و١٩٨٨.

وحسب المعلومات التي نشرتها الصحف السوفياتيّة في حينه فإنّه تمّ اكتشاف ٣٠ جاسوسًا سوفياتيًّا كانوا يعملون لصالح الغرب في السنوات الأخيرة...

وفي العام ١٩٨٩، كان من المتوقّع قيام حوالي ١٠٠ ألف سوفياتي بزيارة الولايات المتّحدة، ممّا كان سيعطي الـ CIA مجالاً واسعًا للتقرّب من هؤلاء المواطنين العاديّين، وسيكون من الجنون عدم قيام الأميركيّين بمحاولة استخدام بعضهم للتجسّس على بلادهم بهدف إقامة شبكة جديدة تلاحق أخبار وتطوّر سياسة الـ"غلاسنوست".

إلاّ أنّه على صعيد المستقبل، كما كان يُنظر إلى الأمر في نهاية ثمانينات القرن العشرين، فإنّ التركيز الأميركيّ والسوفياتيّ سيكون على موضوع مراقبة اتّفاقات تخفيض السلاح الاستراتيجيّ، لأنّه بحلول نهاية العام ١٩٨٩، كان من المقرّر أن يوقّع الجانبان خمسة اتّفاقات في هذا المجال، بينها واحد للصواريخ البعيدة المدى، ممّا سيتطلّب مراقبة أماكن تواجدها أو تجاربها عبر التسلّل إلى المواقع العسكريّة السريّة لكلّ من البلدين.

وقالت تايم: إنّ التحدّي الرئيسيّ للاستخبارات الأميركيّة سيكون إقناع الكونغرس بعدم تخفيض موازنتها لأنّها قادرة على توفير أدقّ التفاصيل والمعلومات عن الجهد العسكريّ السوفياتيّ...

وكان هذا سيدخل في الاعتبارات عند درس موازنة الـ CIA التي كانت ستصل إلى ٣٠ مليار دولار عام ١٩٨٩، في الوقت الذي كان متوقّعًا فيه زيادة الموزانة الخاصّة بالتجسّس المضادّ ومراقبة التسلّح، فكان من المتوقّع أن يطرأ تخفيضًا ملحوظًا على بقيّة النشاطات ومنها المتعلّقة بالتعرّف على تحرّكات القوّات السوفياتيّة وبرامجها في حلف وارسو إلى جانب برامج الأقمار الاصطناعيّة وجمع المعلومات التكتيكيّة.

لكنّ مشاكل الـ KGB كانت تتجاوز مسألة الموازنة لأنّها كانت تحاول منذ عام ١٩٨٨ تغيير صورتها القديمة المرتبطة بجهاز القمع التابع للنظام.

ودعا رئيس الجهاز أنذاك، فلاديمير كرويشكوف، إلى اعتباره حامي العدالة والداعم لسياسة الـ"بيريسترويكا" التي أطلقها الرئيس السوفياتيّ غورباتشوف... وأنّها السلاح الرئيسيّ للدولة ضدّ الحرب المنظّمة حيث كان يقوم أكثر من ٨٠ بالمئة من أفراد الجهاز بخوض معركة ضدّ اللصوص والمجرمين ومهرّبي المخدّرات. وفي نهاية عام ١٩٨٩ استقبل كرويشكوف مجموعة من النوّاب السوفيات في مكتبه بجادة "دجرجنسكي" دعوه إلى تحويل المقرّ إلى متحف لضحايا الستالينيّة... وأبلغهم كرويشكوف بأنّ هناك تغييرًا وإصلاحات في الجهاز بحيث ستخرج من المقرّ الحقيقة والعدالة والنزاهة...

وقد أعرب الكثير من السوفيات عن اقتناعهم بصحّة حدوث التغيير في جهاز الـKGB خاصّة وأنّ أحدًا لم يكن يحلم بزيارة مقرّه قبل أربعة أعوام فقط من ذلك التاريخ.

وبدا أنّ موسكو لن تتراجع عن الاحتفاظ بأمبراطوريّتها التجسّسيّة رغم خروج دول أوروبّا الشرقيّة من فلكها بعد أن كانت تتعاون معها في السابق. ولوحظ انتقال

ماركوس وولف، الرئيس السابق للاستخبارات الألمانيّة الشرقيّة من برلين إلى موسكو لمساعدة KGB في عمليّاتها التالية بعد توحيد ألمانيا[1]...

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص١٢٤ ـ ١٢٨.

في عهد أندروبوف

أعطى انتخاب أندروبوف سكرتيرًا عامًا دفعة مهمة للعملية RYAN. في بداية ١٩٨٣، انضمّ بعض مصالح الاستعلامات في الكتلة السوفياتية إلى العملية. في لندن، جاء الدعم الأهمّ من مصلحة الأمن التشيكية التي أخبر سفيرها المقيم زميلاً له في الـ K.G.B أنّها المرة الأولى التي تعالج فيها مصلحته مسائل عسكرية. وفي شباط ـ فبراير، تلقّى السفراء المقيمون في عواصم الدول الأعضاء في الـ OTAN تعليمات "شخصية للغاية" عليهم الاحتفاظ بها في ملفاتهم الشخصية وتعطيهم إيضاحات إضافية حول التهديد النووي الغربي والتدابير الواجب اتباعها لتعطيله. وأكّد المركز، خطأً، أن نَشْر الصواريخ Pershing II في ألمانيا الفدرالية في نهاية العام سيجعل الأهداف الروسية على بُعد ٤ إلى ٥ دقائق بالطائرة، ممّا لا يعطي القادة السوفيات الوقت حتى للوصول إلى ملاجئهم (لم تُذكر أبدًا في برقيات الـ K.G.B الصواريخ الـ ٢٠ SS السوفياتية المصوّبة نحو أوروبا الغربية). هذا التوجيه المُرسل إلى غوك يحتوي على مقاطع محزنة مضحكة لا إرادية تكشف عن ثغرات مخيفة في طريقة رؤية المركز للغرب بشكل عامّ وللمجتمع البريطانيّ بشكل خاصّ. ففي الواقع، يُقال فيه للسفير المقيم "ازدياد المشتريات وارتفاع سعر الدم... دليلان مهمّان"، على الأرجح، على التحضيرات البريطانية للحرب النووية: تلقّى الأمر بالتبليغ فورًا عن كلّ تغيّر في الأسعار (نسي الـ PDG أنّ المتبرّعين بالدم متطوّعون).

فالصورة الغريبة المُشبعة بنظرية المؤامرة التي يصوّرها "المركز" عن المجتمع البريطاني المحكوم بالعناصر الإكليريكية والرأسمالية في "المؤسسة"، قادته أيضًا إلى أمْر غوك بالاستعلام عن إمكانية معرفة قُرب وقوع المُحرقة النووية من مسؤولين إكليركيين ومن مصارف كبيرة. كانت مقاطع أخرى من التوجيه أقلّ شذوذًا؛ كانوا يعلمون تفاصيل دقيقة على الأرجح حول مختلف سمات الخطر التي تستعملها قوات الولايات المتحدة والـ OTAN في إجراءات التحرك...

كان ضغط العمل الذي تسبّبه RYAN للمراكز في بلدان الـ OTAN كبيراً للغاية. فعلى مقرّ لندن، مثل آخرين طبعًا، أن يعدّ بانتظام السيارات المركونة والنوافذ المُضادة خلال وخارج أوقات العمل في كلّ المباني الحكومية والمنشآت العسكرية المتعلقة بالحرب النووية، وأن يُبلّغ فورًا عن أيّ ابتعاد عن الحالة الطبيعية. وعليه أيضًا اكتشاف خطوط سير وتوجّهات ووسائل إجلاء أعضاء الحكومة وعائلاتهم، بالإضافة إلى وَضْع خطط تسمح بمعرفة ما إذا كانت هناك تحضيرات. كان ذلك كثيراً على غوك: ابتسم للغاية تجاه هذه المتطلّبات اللاواقعية للمركز وأعطى هذه الملاحظات المفصّلة المضجِرة إلى الضابط الشاب المسؤول عن التدوين. ولم يكن يملك هذا الأخير أحدًا تحت تصرّفه (وحتى لو ملك...، فلا يمكنه مغادرة لندن دون إذن مكتب الأجانب - تفصيل مهّم غاب بشكل غير مفهوم عن بال المركز). وتحت عصا غوك المخمورة أحياناً، جاءت أوقات بدت فيها نهاية العملية RYAN في بريطانيا العظمى وكأنها تشبه فيلماً للـ"إخوة ماركس Marx Brothers" أكثر مما تشبه فيلم "دكتور فولامور Docteur Folamour".

في ٢٥ شباط - فبراير ١٩٨٣، أمر "المركز" مراكزه الثلاثة في الولايات المتحدة بالبدء في التخطيط لـ "تدابير فعّالة" من أجل الحؤول دون إعادة انتخاب ريغان في

تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٤. كان المركز مقتنعًا أن الرئيس يعتبر الضربة النووية الأولى خيارًا سياسيًا جادًا. رغم متابعة محادثات جنيف حول نزع الأسلحة، أكّد "المركز" أنه لا يوجد أيّ احتمال اتفاق وأنّ أيّ مرشح آخر، جمهوري أو ديمقراطي، مُفضّل. وتلقّت المراكز في الولايات المتحدة الأمر بإقامة اتصالات في فِرَق جميع المرشحين المحتملين وفي المقرّات العامة للحزبين. وأُبْلِغَ السفراء المقيمون خارج الولايات المتحدة عن مدى إمكانية إرسال عملاء للمشاركة في هذه العملية. كان الهدف الرئيسي من هذه الاتصالات جَمْع أكبر عدد ممكن من المعلومات لإفقاد ريغان قيمته خلال الحملة وإيجاد وسائل جديدة لنشرها. في نفس الوقت، تلقّت كلّ المراكز في بلدان الـ OTAN وفي بلدان أخرى كثيرة في العالم الأمر بإشاعة الشعار: "ريغان = الحرب Reagan: eto voina". وأعلن المركز عن ٥ "مواضيع" في "التدابير الفعّالة" يجب الأخذ بها للتقليل من قيمة السياسة الخارجية للرئيس: مغامريّته العسكرية؛ مسؤوليته الشخصية في تسريع سباق التسلّح؛ محاولات إدارته سَحْق حركات التحرّر الوطني؛ مسؤوليته عن التوتر مع حلفائه في الـ OTAN. وتتضمّن "المواضيع" في السياسة الداخلية تمييز الرئيس المزعوم تجاه الأقليات؛ فساد إدارته؛ عبوديّته تجاه العقدة العسكرية ـ الصناعية.

ينسب السفراء المقيمون لأنفسهم بسهولة، غالبًا دون سبب، الفضل في المقالات العديدة التي تمطر الصحافة ضد ريغان. وأصبحت حدود نتائجهم في الغرب واضحة مع فشل محاولات كلّ المراكز في بلدان الـ OTAN إشاعة الشعار ريغان = الحرب الذي علّق عليه "المركز" أهمية كبيرة. بينما كان الـ PDG يحضّر، دون فعالية كبيرة، سقوطه، كان ريغان نفسه يطلب من الأميركيين علانية "الصلاة من أجل كلّ الذين يعيشون في الظلمات التوتاليتارية". وقال في ٨ آذار ـ مارس أثناء المؤتمر السنويّ

للجمعية الوطنية للإنجيليين في أورلاندو (فلوريدا) إنّ الإدارة السوفياتية هي "مقرّ الشرّ في العالم الحديث[1]". كان واضحًا أنّه يتكلّم انطلاقًا من قناعته.

بعد ١٥ يومًا، أخذ "التهديد النووي" المتمثّل بالولايات المتحدة بُعدًا جديدًا حين أعلن ريغان عن وَضْع مبادرة الدفاع الستراتيجية (IDS) موضع التنفيذ، وهي معروفة أكثر تحت اسم "حرب النجوم"، وتشكّل درعًا دفاعيًا في الفضاء يستعمل تقنية اللايزر لتدمير الصواريخ السوفياتية في الهواء قبل أن تبلغ أهدافها الأميركية. ومن أجل انتزاع الميزانية الضخمة الضرورية للـ IDS من كونغرس بخيل للغاية، قامت الحكومة بحملة دعائية على التلفزيون تُظهر أطفالاً أميركيين (لا أوروبيين) ينامون باطمئنان تحت قبّة فلكيّة واقية تعود للـ BD للبحث الوهميّ أكثر ما تعود للبحث العلميّ.

في البداية، بدت "حرب النجوم" خيالية للغاية حتى تشكّل تهديدًا حقيقيًا (لكنّ المركز غيّر رأيه في ما بعد). على أيّ حال، تثبت بلاغة الـ IDS نفسها أنّ ريغان بات يعتقد أكثر فأكثر بإمكانية الانتصار في حرب نووية.

تمنّى "المركز" التصدّي أكثر ما يمكن للاحتمالات الانتخابية للحليف الرئيسي لرونالد ريغان، مارغريت تاتشر. وبدأ الـ K.G.B حملات "تدابير فعّالة" ضدّها حتى قبل أن تصبح رئيسة وزراء عام ١٩٧٩. كانت معظم هذه الحملات غير متقنة للغاية حتى تكون فعّالة. اتّهم غورديفسكي شخصيًا في حالة صحافي استخدمه الـ K.G.B هو آرن هيرلوف بيترسن عميل نفوذ دانمركيّ جنّده عام ١٩٧٣ ليونيد ماكاروف، سفير الـ K.G.B في أوسلو في ما بعد.

---

١ - Hersh Saeymour M., *The Target is Destroyed*, Faber (London,1986), p. 16

كان بيترسن مفكرًا يساريًا ساذجًا يتحمّس دوريًا لأبطال عجيبين مثل كيم إيل سونغ، بول بوت أو القذافي. تعامل بالتتابع مع ماكاروف، ستانيسلاس تشيبوتوك، فاديم تشيرني وفلاديمير ميركولوف من ١٩٧٣ حتى ١٩٨١، وقَبِل ليس كتابة مقالات حسب توجيهات ضباطه المتعامل معهم فقط بل نشَر من حين لآخر وباسمه مقالات وانتقادات كتبتها المصلحة "أ" بالإنكليزية. وكانت نوعيتها الأدبية كما ذكاؤها السياسيّ سيئين للغاية.

أوّل إنتاج K.G.B ـ بيترسون ضد السيدة تاتشر كان كتيّبًا عام ١٩٧٩ عنوانه "جنود الحرب الباردة" يعطيها الشرف بأن تكون على رأس الحملة المعادية للسوفيات في أوروبا. رغم افتخار المركز بعمله، احتوى الكتيّب على أخطاء أكيدة. هكذا اعتُبر الوزير السابق المحافظ، ريجنالد مودلينغ، "عماليًّا يمينيًّا: واتُّهمت السيدة تاتشر نفسها بتغذية المشاعر العنصريّة وبتشجيع "النفوذ الرأسمالي" وبالقيام "بحرب ضد العمال البريطانيين". كان "جنود الحرب الباردة" الآخرون حيوانات المصلحة "أ" السود، اللورد شالفونت (المعتبر عدة مرات "وزير نزع السلاح") والسيناتور هنري "سكوب" جاكسون وباري غولد واتر وجوزيف لونس وأكسل سبرينغر وفرانز جوزيف ستروس.

كان المقال الانتقاديّ التالي المنشور عام ١٩٨٠ وعنوانه "المحافظون" مخصّصًا بكامله للسيدة تاتشر. وادّعى الهجاء رغم أنّ الـ K.G.B لم ينجح أبدًا في هذا النوع، وحمل عنوانًا ثانويًا هو "القشّاش (أي Tatcher بالإنكليزية) العاجز عن إصلاح سقفه". مع ذلك، حلّ الهجوم العنيف سريعًا محلّ الهجاء: بسبب انزعاجها من اشتهارها "بقلة جدارتها فيما يخصّ الشؤون الحكومية"، وكونها مدعومة بسبب "علاقاتها الشخصية بالرأسمال الكبير" و"مصالح الاحتكارات الكبرى، اختارت تاتشر طريق الحرب"...

عندها انتهت الإنتاجات التعاونية بين K.G.B - بيترسون. حين أُوقف في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨١، اتُّهم بيترسون بالتعاون مع الـ K.G.B. رغم ذلك، عام ١٩٨٢، بعد أن تأكّد وزير العدل أنّ المخططين الأساسيين - ضباط من الـ K.G.B - غادروا البلاد، عَدَلَ عن ملاحقته، وأُفرج عنه، ممّا أغضب طبعًا مصلحة الأمن الدانماركية.

في ١٦ أيار - مايو ١٩٨٣، دعا السفير السوفياتي في لندن، فيكتور إيفانوفيتش بوبوف، إلى اجتماع للدبلوماسيين والضباط الكبار في الـ K.G.B وفي الوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية للتشاور في انتخابات حزيران - يونيو في بريطانيا العظمى. أَجْمع الكلّ على أنّ السيدة تاتشر والمحافظين سيربحون وأنّه لا يمكن لا للسفارة ولمقرّ الـ K.G.B أن يؤثّرا في النتيجة. لكنّ موسكو فكرت بطريقة مختلفة. في ٢٣ أو في ٢٤، تلقّت السفارة نصّ الجواب السوفياتي على رسالة سابقة من حزب العمال حول نزع الأسلحة، اعتقدت موسكو أنّه يمكن لهذا النص أن يساعد العماليين، فقُدِّم في المقرّ العامّ لهؤلاء لكن رُفض الاطّلاع عليه قبل انتهاء الانتخابات.

في ٢٣ أيار - مايو، تلقّى المقرّ برقية تعلن عن وصول مستند مهمّ قريبًا يحدّد "المواضيع" الممكن إدخالها في الحملة الانتخابية. احتاج هذا النص الجديد المكتوب بمزيج غريب من الإنكليزية والروسية لبعض الوقت كي يُفهم ولم يصبح جاهزًا قبل ٢٧ أيار - مايو. واعتبر المقرّ أنّه من الصعب استخدامه للتأثير على الحملة العمّاليّة فلم يتخذ أيّ تدبير. وفي ١٠ حزيران - يونيو، حققت السيدة تاتشر انتصارًا ساحقًا.

بعد الانتخابات بفترة قصيرة، تلقّى مقرّ لندن من المركز برقية تقول إنّ إدارة ريغان تتابع تحضيراتها من أجل حرب نووية، وتؤكّد مرة أخرى الأولوية الواجب إعطاؤها للعملية RYAN.

لم يكن أيّ ضابط في الخطّ PR يعتقد بوجود خطر هجوم نوويّ غربيّ حقيقيّ، إلاّ في حالة أزمة شرق ـ غرب كبيرة. وحاول غورديفسكي واحد زملائه إقناع غوك بأنّ أمر المركز بجَمْع المعلومات عن التحضير لهجوم نووي بالإضافة إلى إرسال معلومات إلى موسكو تُعدّد تحضيرات محتملة ممّا يؤدي إلى طلبات استعلامات جديدة، كل ذلك يخلق حلقة مفرغة تزيد كثيرًا وبشكل خطير حالة التوتّر في موسكو، فقد هنّأ "المركز" مثلاً على تقرير من مقرّ لندن يتعلق بحملة حكومية لتجنيد متبرعين جدد بالدم. في هذه الحالة كما في حالات أخرى، علّق بشكل واضح على حدث هو في الحقيقة عاديّ في الحياة البريطانية أهمية خطيرة للغاية.

في ١٢ آب ـ أغسطس ١٩٨٣، أرسل المركز تعليمات إضافية موقّعة من كريوتشكوف شخصيًا إلى مراكز بلدان الـ OTAN، تتضمّن جدولاً بنشاطات مصالح الاستعلامات الغربية يمكن أن يساعد كمرشد إلى تحضيرات من أجل هجوم نوويّ مفاجئ. كان الجدول الذي أعطاه المركز الصورة المقلوبة لخطط الـ K.G.B والوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية في حالة الحرب ضد الغرب: "زيادة عمليات المعلومات الخاطئة" الموجّهة ضد الاتحاد السوفياتي وحلفائه؛ "تسلّل سريّ لفِرق مخرّبين يملكون وسائل نووية، جرثومية وكيميائية" إلى حلف وارسو؛ "توسيع شبكة مدارس الإعداد للتخريب" واستخدام مهاجرين من أوروبا الشرقية على الأخصّ؛ "زيادة التدابير القمعيّة" ضد المنظمات أو الأفراد التقدميين.

حلّ زمن التوتر شرق ـ غرب الأقوى بعد انتخاب ريغان بعد إسقاط طائرة على الخطّ الكوري، KAL100 فوق بحر اليابان في الساعات الأولى من أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٣، وكانت قادمة من انكوراج في ألاسكا إلى سيول ودخلت خطأ في المجال الجوّي السوفياتي. سمعت محطة اعتراض ـ تفكيك يابانية في ميزاوا تقع على بعد

٦٠٠ كيلومتر شمالي طوكيو، قائد طائرة الاعتراض السوفياتية يطلق صاروخين ثم يعلن، في الساعة ٣ والدقيقة ٢٦ صباحًا (بتوقيت طوكيو): "دُمِّر الهدف". في البداية، تساءلت ميزاوا ما إذا كانت قد سمعت تدريبًا سوفياتيًا اصطُنع خلاله إطلاق صواريخ. بعد عدة ساعات، أدرك أنه سمع آخر لحظات الطائرة KAL100، وقُتل الـ ٢٦٩ راكبًا بالإضافة إلى أعضاء الطاقم[١].

يمكن تفسير المأساة بعدم أهلية الطيران السوفياتي وطيران الخطوط الجوية الكورية معًا، بالإضافة إلى احتقار الحياة الإنسانية في الحالة السوفياتية. قبل ٥ سنوات، كانت قد انحرفت طائرة بوينغ ٧٤٧ من الخطوط الجوية الكورية، KAL902 عن مسارها خلال الرحلة باريس ـ سيول، وعبرت الحدود السوفياتية قرب مومانسك، وفَقَدَ الدفاع الجويّ أثرها فوق شبه جزيرة كولا المحصّنة بضخامة. أخيرًا اعتُرِضَت وأُجْبِرَت على الهبوط على بحيرة جليدية بعد أن أُصيبت. لكن لم تُدمَّر، فالصاروخ قتل اثنين من الركاب وجرح ١٣ آخرين، وقد اعتُبِرت الدفاعات الجوية السوفياتية، ليس دون وجه حقّ، "القطاع الزراعيّ في القوات السوفياتية المسلّحة".

عام ١٩٨٧، ستصبح سخرية العالم حين سيتمكن شاب ألمانيّ غربيّ هو ماتياس روست من الهبوط بالـ Cessna التي يملكها في الساحة الحمراء في قلب موسكو...

خلال ليل ٣١ آب ـ أغسطس ١ أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٣، وحسب السفير المقيم في لندن أركادي غوك الذي كان في عطلة في روسيا آنذاك، لم تعمل بشكل صحيح ٨ من أصل ١١ محطة مراقبة في شبه جزيرة كامشاتكا وفي جزيرة ساخالين اللتين حلّقت فوقهما الـ KAL007. فالتبديلات الإدارية الجديدة بإلغائها الهيئة المستقلّة السابقة

---

١ - Hersh Seymour M., *The Target is Destroyed,* Faber (London,1986), ch. 5-8.

لـ"المقاطعات العسكرية من أجل الدفاع الجويّ" وبوضعها تحت قيادة الهيئة العسكرية العادية، زادت من الفوضى. فليس لدى القيادة الإقليمية الخبرة في التعامل مع الانتهاكات الخطيرة للمجال الجويّ، فتأتي ردّة فعلها مزيجًا من الارتباك والعنف...

حين اكتشفت الطائرة KAL007، قامت قيادة الجيش بعدة محاولات من أجل طَلَبِ التعليمات من موسكو. بعد تبادل مبهم (اعترضته محطات الإصغاء الأميركية واليابانية)، ذكّر خاباروفسك مركز القيادة في جزيرة ساخالين بالقواعد التي تتطلّب التحقّق الأكيد من الجسم الغريب قبل إطلاق النار، وهي قواعد تجاهلها ساخالين، ودَمّر الطائرة KAL007 بصاروخين "طيّار مُطارِد" لا يستطيع أن يحدّد على ماذا هو يطلق النار. في مختلف مراحل الأزمة، اعتقد بعض أعضاء السلسلة القيادية المرتبكة المهتمة بالجسم الغريب أنّ هذا الأخير ليس طائرة بوينغ مدنية بل طائرة تجسّس أميركية RC-135. مع ذلك، كان غوك متأكدًا للغاية أنّه في الوقت الذي أُسقطت فيه الطائرة، أدرك خاباروفسك أنّ الأمر يتعلّق بهدف مدنيّ.

كانت ردّة الفعل السوفياتية الرسمية الأولى على تدمير طائرة البوينغ الكورية الجنوبية إنكار أيّ صلة بها. شرحت "تاس" أنّ الصيادين السوفيات "حاولوا ببساطة تقديم النجدة بتوجيههم الجهاز نحو حقل الهبوط الأقرب". كان الارتباك في موسكو حول التعامل مع المأساة كبيرًا لدرجة أنّه، خلال ٣ أيام، لم تتلقّ لا السفارة السوفياتية ولا مقرّ الـ K.G.B في لندن (كما في العواصم الأخرى دون شك) أقلّ توجيه بشأن التوضيحات الواجب تقديمها. ثم، في ٤ أيلول ـ سبتمبر، تتابعت سريعًا ٣ برقيات "مستعجلة" (Molniya) من "المركز" إلى المقرّ؛ في نفس الوقت، تلقّت السفارة اتصالات مشابهة من وزارة الشؤون الخارجية.

أكّدت الرسالة الأولى أنّ إدارة ريغان استخدمت الطائرة KAL007 لتثير في العالم أجمع هستيريا معادية للسوفيات؛ وأصبحت هذه الحملة عنيفة لدرجة أنّ المقرّ تلقّى الأمر بالاتفاق مع السفارة والوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية وممثل الحزب من أجل حماية المواطنين، المباني، السفن والطائرات السوفياتية من هجومات محتملة، تحتوي البرقيتان الأخيرتان على "مواضيع" لـ "التدابير الفعّالة" تهدف إلى إلقاء المسؤولية على عاتق الأميركيين والكوريين. وأكّد المركز وجود تعاون عسكريّ واستخباراتي وثيق بين الولايات المتحدة والخطوط الجوية الكورية. يمكن أن نفترض إذًا أنّ الطائرة KAL007 كانت تلعب دورًا تجسّسيًا حين حلّقت فوق الأرض السوفياتية.... وقد دُعّمت هذه القصة في ما بعد بشهادات مخترعة تقول إنّ الكابتن الكوريّ الجنوبيّ شون بيونغ تبجّح بمهمات استخباراتية سابقة وأظهر لأصدقائه جهاز التجسّس في طائرته[1].

لم تعترف أيّ برقية أرسلها المركز في ٤ أيلول ـ سبتمبر بشكل واضح بأنّ طائرة الاعتراض السوفياتية أطلقت النار على طائرة البوينغ، حتى ولو لم يتأكّد العكس. شيء آخر مهمّ: لم تقل ما إذا كان جيش الجوّ السوفياتي يعلم أو لا يعلم أنّه يهاجم طائرة مدنية. بعد يومين أو ثلاثة، أرسل "المركز" برقيتين أخريَيْن مع "مواضيع" لـ"التدابير الفعّالة" تقول إنّ الأميركيين واليابانيين كانوا على اتصال دائم عبر الراديو مع الطائرة KAL007 أثناء وجودها غير الشرعيّ في المجال الجويّ السوفياتي، وكانوا يعلمون هنا أيضًا وبشكل دائم موقعها المحدّد، وزعموا أنّه، في وقت ما، أعلن قائد الطائرة بواسطة الراديو: "وصلنا فوق كامشاتكا".

---

١ - Hersh, *The target is Destroyed*.

ولمساعدته على تأكيد نظرية المؤامرة، طلب "المركز" أيضًا من المراكز جَمْع معلومات تتعلق بركاب الطائرة؛ وتمنّى بشكل خاصّ اكتشاف علاقات بين بعضهم وبين مصالح استخبارات غربية مّا يؤيّد روايته للأحداث.

أثناء مؤتمر صحافي مدته ساعتان، في ٩ أيلول ـ سبتمبر في موسكو، أعلن رئيس مجلس قيادة القوات المسلّحة السوفياتية، الماريشال نيقولاي أوغاركوف، أنّ بعثة "أثبتت بشكل قاطع أنّ الوجود غير الشرعيّ لطائرة الخطوط الجوية الكورية الجنوبية في المجال الجويّ السوفياتي كان عملية تجسّس متعمّدة ومحضّرة بعناية بقيادة بعض المراكز الواقعة على أرض الولايات المتحدة واليابان".

ذُهل كلّ الدبلوماسيين السوفيات وضباط الـ K.G.B الذين تناقش معهم غورديفسكي من الضرر اللاحق بالصورة العالمية لبلادهم. قليلون من صدّقوا التفسير الرسمي، واعتبره كثيرون مضحكًا... غضب "المركز" من مقابلة أُجريت على شاشة المؤسسة البريطانية للإرسال في ١٨ أيلول ـ سبتمبر مع رئيس تحرير البرافدا أثناء رحلة إلى لندن، حيث نثر ف. ج. أفاناسييف الشك حول الرواية الرسمية. قال لسائله: "لن أقول إنّي كنت سعيدًا للغاية من تقاريرنا الأولى. من هذه الناحية، أعتقد أن عسكريينا مخطئون. من المؤكد أنهم قاموا ببعض الأخطاء، ربّما لم يكونوا واثقين ممّا حدث". تلقّى مقرّ لندن برقية مستعجلة من المركز يطلب فيها نصّ المقابلة الكامل. بدأت مستكتبة في الـ K.G.B بتدوين تسجيل قام به ضابط خدمة السفارة، لكنها لم تتمكّن من إنهائه قبل نهاية يوم عملها. صباح اليوم التالي، وصلت برقية ثانية تطلب تبليغًا فوريًا للتسجيل. وأنهت المستكتبة عملها بسرعة.

خلال الساعات التي تلت تدمير الطائرة KAL007، قامت إدارة ريغان بتجربة أطلق عليها هنري أ. كاثوجي آر، وهو معاون سكرتير في وزارة الدفاع في ما بعد،

اسم "السعادة في أن تكون تمامًا على حقّ". أثبتت "أمبراطورية الشرّ" أنها كذلك. وبدا سكرتير الدولة جورج شولتز غاضبًا وهو يهزّ تقريرًا من مصالح الاستعلامات يحمله في يده ويؤكّد في صباح ١ أيلول ـ سبتمبر أنّه لا يوجد أيّ شك: لقد عرف الطيّار السوفياتي أن طائرة البوينغ جهاز مدنيّ وأطلق عليها النار ببرودة. أثناء برنامج تلفزيزني مثير يهدف إلى الإثبات أنّه "لا يمكن لأيّ طيّار أن يخطئ فيظنّ ذلك شيئًا آخر غير طائرة مدنية"، قام الرئيس ريغان بحركة لا مثيل لها سابقًا بتقديمه مقتطفات من التبادلات التي اعترضتها محطات الإصغاء بين الطيار السوفياتي والمراقبة على الأرض. وأتى السفير جان كيرك باتريك بمقتطفات أخرى أثناء عَرْض سمعيّ ـ بصريّ في الأمم المتحدة؛ هذه الأخيرة كانت محترسة بقدر ما كانت مثيرة. أُلغِيَتِ الشتائم السوفياتية من الترجمة المجهّزة للجمعية العامة. وتُرجم هتاف الطيار السوفياتي قبل أن يطلق صواريخه "Yolki Palki" (بفظاظة: "اللعنة!") بشكل أحمق بـ "Fiddlesticks" (هراء!).

كان الهدف الرئيسيّ من هذا التمرين المسرحيّ الإثبات، حسب تعبير جان كيركباتريك نفسه، أنّ "العنف والكذب هما أدوات السياسة السوفياتية الطبيعية". لم تكن تلك المرة الأخيرة التي تشوّه فيها إدارة ريغان حججًا قوية بالمبالغة فيها... أثناء جلسة سريّة للجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، بدا أنّ محلّلي وكالة الأمن الوطنية في الولايات المتحدة يعتقدون أنّ الطيّار السوفياتي كان يجهل أنّ هدفه طائرة مدنية. تدريجيًا، انتقلت المشكلة من المسؤولية السوفياتية في موت ٢٦٩ شخصًا إلى مصداقية الاتهام الأميركي. وفي محاولة للحكومة لدعم اتهامها الأوّل ـ جريمة متعمّدة ومرتكبة ببرود ـ، أصبحت أحاديث الناطقين الرسميين أكثر فأكثر مراوغة[١].

---

١ - Hersh, *The Target is Destroyed*, ch. 9-14.

خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨٣، كان تشجيع نظرية المؤامرة التي وضعتها موسكو أحد الأولويات الرئيسية لمراكز الـ K.G.B: نفذت الطائرة KAL007 مهمة تجسّس للـ CIA. في بيانه السنوي لعام ١٩٨٣، نسب الخط PR في مقرّ لندن لنفسه نجاحات عظيمة: "لقد نجحنا في إلهام عدد معيّن من الأحاديث والمنشورات التي أحسنت إلينا في هذه المسألة، وبفضل جهود المقرّ، عُرِض في التلفزيون ما يثبت النوايا المخيفة للإدارة الأميركية... هنّأ المركز مقرّ لندن على نتائجه: "تستحقّ جهود فريق الخطّ PR من أجل إعاقة الحملة المعادية للسوفيات حول الطيارة الكورية الجنوبية اهتمامًا خاصًا للغاية".

كما يحدث غالبًا، بالغ الـ K.G.B في تقدير نجاح "تدابيره الفعّالة" على الأقلّ في الغرب. فهنا، في الواقع، ساعدت الشكوك حول الرواية الأصلية للأحداث التي أعطتها إدارة ريغان أكثر من الدعاية السوفياتية في نموّ نظرية المؤامرة من الـ CIA.

فالرواية التي انتشرت في بريطانيا العظمى حول هذه المؤامرة، وهي رواية العالِم السياسيّ ر. و. جونسون من أوكسفورد، لا تدين بشيء للوحي السوفياتي. كتب جونسون: "ابتعدت كثيرًا عن التفسير "الرسمي" للأحداث الذي وضعته إدارة ريغان إذ وصفت مسائل كثيرة مثيرة مجزّأة[1]".

حين نشرت مجلة Literatournaya Gazeta ترجمة محرّفة لمقال نشره جونسون في مجلة Guardian، "احتجّ البريطانيّ بشدة". بكلّ بساطة، كانت بعض "التدابير الفعّالة" السوفياتية غير ناجحة. فزيارة واحدة إلى موسكو، بدعوة من السوفيات، للصحافي سيمور هيرش، الحاصل على جائزة Pulitzer، أدّت إلى تقويض قناعته بوجود مؤامرة

---

١ - Johnson R. W., *Shootdown: The Verdict on KAL 007,* Chatto and Windus (London,1986)

من الـ CIA. فقد قال نائب وزير الشؤون الخارجية، جيورجي كورنينكو، لهيرش بصراحة: "مهمتك هي أن تعلن أنّ الطائرة كانت دخيلة[1]".

كانت النتيجة الأخطر لمأساة الطائرة KAL007 ازدياد الاقتناع بوجود مؤامرة معادية للسوفيات تدبّرها إدارة ريغان، في المركز كما في الكرملن.

رغم وعيهم الكامل لأخطاء دفاعهم الجويّ الكبيرة، اقتنع معظم القادة في الاتحاد السوفياتي - أندروبوف، أوغاركوف وكريوتشكوف طبعًا - ان طائرة البوينغ كانت تنفّذ مهمة تجسّس للولايات المتحدة. واستمرّ غروميكو يؤكّد، حتى في عهد غورباتشيف، أنّه من الواضح "لمن يملك درهمي ذكاء... أنّ الطائرة في الواقع أميركية وتحمل فقط علامات فارقة كورية جنوبية". حتى أولئك الذي يشكّون بنظرية المؤامرة من الـ CIA، اعتبروا الإدارة الأميركية للأزمة تصعيدًا مقصودًا وعنيفًا للتوتّر شرق - غرب. أُعيد الطلاب السوفيات في الولايات المتحدة إلى بلادهم بحجة أنّ الهستيريا المعادية للسوفيات تعرّضهم للخطر. استُقبلوا في الاتحاد السوفياتي كلاجئين قادمين من منطقة حربية.

أدّى الصراع السوفياتي - الأميركي حول تدمير الطائرة الكورية الجنوبية سريعًا إلى إفشال مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية حول الأمن الأوروبي الذي افتُتح في ٨ أيلول - سبتمبر في مدريد. وأعلن غروميكو: "ينزلق الوضع العالمي نحو هاوية خطيرة للغاية... فالمشكلة رقم ١ بالنسبة للعالم هي تجنّب حرب نووية". وأكّد الوزير فيما بعد أنّ لقاءه بشولتز خلال الاجتماع "كان على الأرجح التبادل الأكثر فظاظة بالنسبة إليّ مع سكرتير دولة أميركيّ، ومع ذلك، كانت لي محادثات مع ١٤ منهم".

---

١ - Hersh, *The Target is Destroyed*, p. 176.

قبل قضية طائرة البوينغ بفترة قصيرة، اختفى أندروبوف المريض آنذاك للغاية عن الأنظار ولم يظهر بعد ذلك. رغم ذلك، استنكر من فراشه في ٢٨ أيلول - سبتمبر السياسة الأميركية المكتوبة بأسلوب معقّد ومرموز لا مثيل له منذ الحرب الباردة. وقال إنّ الولايات المتحدة "بلد فُرِضَ عليه ذهان عسكريّ مخيف". فريغان مسؤول عن "مُغامِرِيَّة قصوى... إذا كان أحد ما لا يزال يحتفظ بأوهام حول إمكانية تطوّر إيجابيّ لسياسة الإدارة الأميركية الحالية، فإنّ الأحداث الأخيرة قد بدّدتها نهائيًا".

لم يستبعد أندروبوف فقط كل إمكانية تفاهم مع ريغان؛ لقد أوصى أيضًا بطريقة مقلقة أنّ أزمة عالمية كبيرة تقترب: "إنّ الإدارة الأميركية تذهب بعيدًا في طموحاتها الإمبريالية حتى أنّه يمكننا أن نتساءل ما إذا كانت واشنطن لا تزال تملك كوابح تسمح لها بعدم تخطّي الحدود التي يجب على كل شخص متّزن أن يخدمها"...

كانت نتيجة مأساة الطائرة KAL007 إذًا زيادة الأهمية المُعطاة من "المركز" للعملية RYAN، وأمضى أندروبوف الشهور الخمسة الأخيرة من حياته كعاجز شكّاك لدرجة المرض، يثير أفكارًا سوداء حول الاقتراب المحتمل لنهاية العالم النووية.

في ذروة أزمة طائرة البوينغ الكورية الجنوبية، ولكن لأسباب مستقلّة، أصبح السفير المقيم في لندن فجأة سخرية المركز. في أحد عيد الفصح، قبل ٥ أشهر، وضع ميخائيل بيتاني، وهو سكير يعمل من أجل الجاسوسية المضادة في مصلحة الأمن البريطانية، مغلّفًا في صندوق رسائل منزل غوك غي هولاندبارك. وجد السوفياتي فيه تقريرًا عن الملف الذي جَمَعته مصلحة الأمن البريطانية، منذ عدة أشهر خلت، من أجل طَرْد ٣ ضباط استعلامات سوفيات، بالإضافة إلى تفاصيل التحقّق منهم، واقترح بيتاني معلومات إضافية وعيّن كيفية الاتصال به. ووجد غوك نفسه أمام الفرصة الأولى منذ ربع قرن لتجنيد ضابط من مصلحة الأمن البريطانية أو من مصلحة

المخابرات السرية البريطانية. إلاّ أنّ اقتناعه بنظرية المؤمرة قاده إلى المغالاة في التدقيق: بدا له أنّ كل الحكاية تتضح بالتحدّي. وأيّده المسؤول عن الخطّ KR، ليونيد إيغريوفيتش نيكيتنكو الذي لايهتم كثيرًا بمجادلة غوك السريع الغضب. تكلّم غورديفسكي قليلاً لكنّه أبلغ مصلحة الأمن البريطانية. في شهري حزيران ـ يونيو وتموز ـ يوليو، وضع بيتاني رزمتين أخريين مليئتين بملفات سرية في صندوق غوك، فأعطى هذا الأخير ما اعتُبر دليلاً قاطعًا على تحدٍّ من مصلحة الأمن البريطانية.

بعد أن يئس بيتاني من السفير المقيم، قرّر بيتاني عندئذٍ أن يجرّب حظّه مع الـ K.G.B في فيينا، لكنّه أوقف في ١٦ أيلول ـ سبتمبر قبل عدة أيام من التاريخ المحدّد لسفره. آذى ذلك سمعة غوك إلى الأبد، وبعد فترة قصيرة من الحُكم على بيتاني بالسجن لمدة ٢٣ سنة، وفي الربيع التالي، اعتُبر غوك نفسه شخصًا غير مرغوب فيه. وكانت النهاية المضحكة لإقامته في لندن خاتمة بمستوى سِنِيْهِ الأربعة كسفير مقيم. ومع ذلك، بقي في لندن ما فيه الكفاية للإشراف على المرحلة الأخطر من العملية RYAN.

ارتفعت وتيرة التوتر خلال شهرين بعد قضية طائرة البونغ. في ٦ تشرين الأول - أكتوبر حصل ليش فاليسا الذي كان المركز يعتبره عنصرًا من المؤامرة الغربية ـ الصهيونية لزعزعة استقرار أوروبا الشرقية، على جائزة نوبل للسلام...

في ٢٥ تشرين الأول ـ أكتوبر أكّد الناطق باسم البيت الأبيض، لاري سبيكس، لوسائل الإعلام، أنّ فكرة الاحتلال الأميركي لجزيرة غرينادا هي فكرة "سخيفة"... في اليوم التالي، نزلت قوات الولايات المتحدة في الجزيرة وأسقطت نظام موريس بيشوب ذا الطابع الماركسي ـ اللينينيّ. وخشي الساندينيون في نيكاراغوا أن يكونوا التالين على الجدول. المركز أيضًا خشي ذلك. ووصل جنون العظمة في "المركز" إلى ذروته

خلال تجربة قيادة النـاتو، "Able Archer 83"، التـي جـرت مـن ٢ حتـى ١١ تشـرين الثاني - نوفمبر لاختبار الإجراءات النووية. احتفظت الخطط السوفياتية لإثـارة هجـوم مفاجئ ضد الغرب بفكرة استعمال مناورات فقط كغطاء لهجوم حقيقـيّ؛ تسلّطت علـى المركز فكرة إمكانية أن تكون الخطط الغربية مشابهة تمامًا لخططه. قلقت موسكو مـن ميزتين اثنتين لـ"Able Archer 83" فإجراءات وأحجام الرسائل المستعملة للانتقـال مـن حرب تقليدية إلى حـرب نوويـة كـانت مختلفـة عـن تلـك المسـتخدمة خـلال المنـاورات السابقة للناتو. من جهة أخرى، وبمناسبة هذه التجربة، مـرّت قـوات وهميـة مـن النـاتو بكلّ المراحل، من المرحلة الطبيعية إلى مرحلة الإنذار العامّ.

بالرغم من أنّ أيّ إنذار حقيقـي لا يخـصّ أيّ فرقـة فعليّـة فـي النـاتو، فقـد أقنعـت تقارير متشائمة من الـ K.G.B المركز بالعكس. وأقـرّت فـرق المراقبـة حـول القـواعد الأميركية في أوروبا أنّ تغيّرًا حدث فـي نظـام الأربـاع للضبـاط وفـي ملاحظـة سـاعة صمت علـى الراديو، فـي بعـض القواعد، مـن السـاعة ٦ حتـى السـاعة ٧ (بتوقيـت موسكو). فـي الجـوّ المتوتّـر الـذي خلقتـه أزمـات وبلاغـة الأشـهر السـابقة، اسـتنتج الـ K.G.B أنّ القوات الأميركية وُضعت في حالة الإنذار كما يمكن أن تكون قد بـدأت العدّ العكسيّ لحرب نووية.

في ٦ تشرين الثاني - نوفمبر، أرسل المركـز إلـى مقرّ لنـدن جـدولاً مفصـلاً عـن الدلائل المحتملة للتجهيزات، وللمرة الأولى، أظهر سجل اسـتحقاقات المخطـط الغربـي الخياليّ للضربة الأولى: "يمكن أن نفترض أنّ المهلة الممتدة من أوّل قرار للـ RYAN حتى الأمر بالضرب ستكون قصيرة، من ٧ إلى ١٠ أيام دون شك". أثنـاء هـذا الوقـت القصير قبل نهاية العالم، "لا بـدّ أن تظهـر تجهيـزات هجـوم مفـاجئ فـي طريقـة عمـل المعنيين بالإجراء". وأعطى المركز جداول كثيرة: البريطانيون الذين يمكن أن يشاركوا

على الأرجح في المفاوضات مع الولايات المتحدة قبل الضربة الأولى؛ المنشآت المهمة لوزارة الدفاع وتحصينات القيادة السريّة؛ مكاتب الـ OTAN في بريطانياالعظمى؛ القواعد الجوية النووية الإنكليزية والأميركية؛ القواعد النووية التحتمائية؛ ورشات التصليح ومخازن الذخيرة؛ مراكز الاتصالات والاستعلامات التقنية، بالإضافة إلى "نشاط غير طبيعيّ" في هذه الأماكن المختلفة مع إلغاء الإجازات، توقّع "المركز" أيضًا أن يدلّ على قرب المُحرقة "نشاط غير طبيعيّ" في Downing Street 10 بظهور عدد كبير من الجنود والشرطيين المسلّحين في الشوارع وبفتح قنوات جديدة لأهداف عسكرية وبترحيل عائلات "النخبة السياسية، الاقتصادية والعسكرية" للمواطنين الأميركيين في بريطانيا العظمى... يجب على مِلاك السفارة والـ CIA البقاء في ملاجئ السفارة...

في ٨ أو ٩ تشرين الثاني - نوفمبر (لا يذكر غورديفسكي التاريخ بالضبط)، أُرسلت برقيات مستعجلة إلى مراكز الـ K.G.B والوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية في أوروبا الغربية تتحدث عن حالة استنفار، خيالية تمامًا، في القواعد الأميركية. أعطى "المركز" سببين محتَملين: أمن القواعد الأميركية بعد موت أكثر من ٢٤٠ من المارينز خلال اعتداء في بيروت؛ مناورات عسكرية في نهاية العام. لكنّ البرقيات أكّدت بوضوح أنّه يمكن أن يكون هناك تفسير آخر؛ يشير هذا الاستنفار إلى بداية التحضيرات من أجل ضربة نووية أولى. وتلقّت المراكز الأمر بإعطاء تقرير طارئ عن أسباب هذا الاستنفار ودلائل RYAN الأخرى.

مع نهاية الـ "Able Archer 83"، هدأت مخاوف "المركز" قليلاً. ويمكن أن نفترض وجود علاقة ما بين تنبيهات غورديفسكي لمصلحة الاستخبارات السرية البريطانية حول ردّة فعل المركز على التجربة وبين محاولات الغرب غير المباشرة

لتطمين الاتحاد السوفياتي. لكن لم يؤدِّ ذلك إلىانفراج ظاهر فورًا في التوترات شرق - غرب. في ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٣، وفي حين بدأت الصواريخ Cruise و Pershing II بالوصول إلى بريطانيا، تركت البعثة السوفياتية مفاوضات جنيف حول القوى النووية المتوسطة. ولم يبدُ أيّ رغبة في التخفيض من أولوية العملية RYAN.

في بيان عن نشاط مقرّ لندن للعام ١٩٨٣، اضطرّ غوك إلى قبول "عدم كفاية" في الحصول على المعلومات حول "خطط الولايات المتحدة والـ OTAN النوعيّة من أجل التحضير لهجوم نوويّ مفاجئ ضد الاتحاد السوفياتي". ولم يُخفِ المركز استياءه.

ما لم يتمكن لا هو ولا غوك من إدراكه هو أنّ هذا العجز عن اكتشاف "الخطط النوعية للولايات المتحدة والـ OTAN" يعود ببساطة إلى عدم وجود الخطط المزعومة! فلو كانت هذه الخطط موجودة حقًا لاكتشفها تريهولت بالطبع خلال، إذا لم يكن قبل، مروره بالكليّة النروجية للدفاع في ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ حين كان مكلّفًا بأجهزة الـ OTAN. لكن، وكما حدث ذلك غالبًا في الماضي، كانت نظريات المؤامرة الغربية راسخة عميقًا في عقلية "المركز" لدرجة أنّ عدم وجود الدليل، بالإضافة إلى احتماليتها حتى، لا يكفيان لاختفائها.

في بداية ١٩٨٤، أعطى المركز إلى مقرّ لندن الأمر بمراقبة أربعة دلائل RYAN إضافية: محاولات لإثارة "مشاعر السوفيات" لا سيّما في المصالح المدنية وفي القوات المسلّحة؛ نَقْل ٩٤ صاروخ Cruise يؤكد "المركز" أنها وُضعت في Greenham Common محاطة بمتظاهرين سلميّين، بالإضافة إلى نَقْل صواريخ ستُنشر في موليسوورث؛ نَشْر وحدات غير مقاتلة (مثل وسائل النقل الأميركية) ووكالات مدنية ستوضع على الأرجح على أهبة الاستعداد للحرب؛ نشاطات المصارف والمواقع والمسالخ. وتوضح نوعية الدلائل الأخيرة بعض عناصر نظريات المؤمرة الغربية التي

لا تزال تضغط على فَهْم الـ K.G.B "للتهديد الغربي". وقاده قصر النظر الأيديولوجيّ إلى الاعتقاد بأنّه، بعد هجوم نوويّ، ستعتبر الدول الرأسماليّة المحافظة على النظام المصرفيّ كأحد أولويّاتها الرئيسية: "يمكن للمِلاك المصرفي من هذا المنظور وعلى كلّ المستويات أن يملك معلومات تفيدنا حول ما يجب القيام به". اعتقد "المركز" أيضًا أنّ للصناعة الغذائية خططها لذبح كمية كبيرة من الماشية ولتخزين اللحم في غرف مبرّدة...

في كانون الثاني - يناير ١٩٨٤، عقد المركز مؤتمرًا على مستوى عال للنظر في "نتائج العمل المُنجز في ١٩٨٢ - ١٩٨٣". أكّد خطاب كريوتشكوف الافتتاحيّ من جديد أنّه ما زالت للعملية RYAN الأولوية المطلقة في الـ PDG وأعطى دلائل مهمة على جنون عظمته تتعلق بالتهديد الغربي. قال إن تهديد الحرب النووية بلغ "أحجامًا خطيرة". ونشأ هذاالتهديد من التناقضات الملازمة للنظام الراسمالي. "تودّ الاحتكارات الأميركية استعادة مواقعها المفقودة خلال العقود الأخيرة وغزو مواقع جديدة". ترتكز خطط البنتاغون من أجل حرب نووية على "الفكرة الاستيهامية بسيطرة عالمية". بدأ البيت الأبيض "بتحضير الشعب نفسيًا للحرب النووية". فتعمُّق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في العالم الرأسمالي مع الركود الاقتصاديّ والبطالة الكبيرة، كلّ ذلك يؤدي إلى توقّع الحرب، خاصة بالنسبة للإمبرياليين الأميركيين، كحلّ لمشاكلهم، فقرار الرأسماليين بالتخلي عن الانفراج لتحضير حرب نووية هو "ردّة فعل طبقية على توطّد المواقع الاشتراكية"، توطّد أثبتته التوسّعات الجارية في العالم أجمع بواسطة حركات التحرّر والقوى التقدمية.

هكذا شكّل الحصول على نسخ عن خطط الحرب السرية للولايات المتحدة وللناتو المهمة الأهم للـ PDG. وبالإضافة إلى التهديد الإمبريالي الخارجي، كان يوجد نموّ

واضح "للنشاط التخريبيّ لمنظمات المهاجرين والقوميين والصهاينة" ولنشاط المصالح الغربية للاستعلامات... وأُرسلت نُسخ عن خطاب كريوتشكوف إلى المراكز في الخارج.

لا يمكن أن تكون لندن المقرّ الوحيد الذي انشغل فيه ضباط الـ K.G.B بتشاؤم الإدارة أكثر منه بالتهديد بهجوم نووي من الغربيين. أثناء الأشهر التالية، أصبحوا ميالين إلى ملاحظة ظهور تفسير في موسكو أقلّ هذيانية لسياسة الولايات المتحدة والناتو.

ويبدو أنّ موت أندروبوف في ٩ شباط ـ فبراير ١٩٨٤ سهّل هذا التبدّل. مثل هذا الأخير، كان خليفته ومنافسه السابق كونستانتين تشيرنينكو في صحة سيئة حين أصبح سكرتيرًا عامًا؛ لن يعيش سوى عام ونيف. لكنّ شكّه كان أقل مرضية حول المؤمرات الغربية من أندروبوف في نهاية حياته. وعرف غودريفسكي، بواسطة سكرتاريا كريوتشكوف، أنّ هذا الأخير ذُهل من انتخاب تشيرنينكو ويخشى كمحميّ سابق لأندروبوف أن يُطرد.

ظهر سكون خفيف للتوتر شرق ـ غرب أثناء جنازة أندروبوف التي حضرتها السيدة تاتشر ونائب الرئيس ريغان، جورج بوش، وقادة غربيون آخرون... وأعلن السفير السوفياتي في لندن، فيكتور بوبوف، أثناء اجتماع مختلط لمِلاك السفارة والـ K.G.B، أنّ السيدة تاتشر سعت إلى سحر مضيفيها. وبدت رسمية كما ينبغي أثناء الاحترام لمتوفى في قصر الكونغرس، وبخلاف القادة الغربيين الآخرين، لم تثرثر خلال المؤتمر الذي انتهى بشيء من قلة الاحترام بسبب سقوط نعش أندروبوف غير المقصود. وتحادث تشيرنينكو لمدة ثلاثة أرباع الساعة مع رئيسة الوزراء البريطانية بينما لم يُمضِ سوى ٢٥ دقيقة مع نائب الرئيس الأميركي. واستنتج بوبوف أنّ الوعي

الذي أظهرته مارغريت تاتشر في هذه المناسبة بالإضافة إلى حسّها السياسيّ الرائع تركا انطباعًا قويًّا. ورغم تمسّكه بحذر موسكو حول إمكانيات نموّ العلاقات شرق ـ غرب، كان واضحًا أنّ السفير لا يأخذ مأخذ الجدّ فكرة هجوم نوويّ مفاجئ.

في آذار ـ مارس، جاء إلى لندن ن. ف. شيشلين، وهو متخصص مهمّ في الشؤون الخارجية في سكرتاريا اللجنة المركزية، وتناقش طويلاً مع مِلاك السفارة والـ K.G.B. ولم يذكر الهجوم المفاجئ.

رغم ذلك، بقي المركز يطلب من المراكز في بلدان الناتو أن ترسل إليه كلّ ١٥ يومًا تقريرًا عن التحضيرات لهجوم نوويّ مفاجئ وبرقيات مستعجلة في حالة المعلومات الطارئة. كانت الأولوية العاجلة لمقرّ لندن للمناورات المختصة بالصواريخ Cruise الموجودة في Greenham Common.

جرت أولى هذه المناورات في ٩ آذار ـ مارس سنة ١٩٨٤، وهو نهار عيد في الاتحاد السوفياتي. سمع غوك الخبر على الراديو فاستدعى إلى السفارة الضابط المسؤول عن جمْع الاستعلامات RYAN وكان في عطلة، وقال له: "وبعد؟ العدو يتحضّر للحرب الذرية، وما من أحد في السفارة!"... ليس من المحتمل أن يكون السفير قد اعتقد فعلاً أنّ الحرب العالمية الثالثة ستبدأ. رغم ذلك، اغتاظ من فكرة تبلُّغ موسكو بواسطة تاس وجود تدريبات تتعلق بالصاروخ Cruise قبل أن يسمع بذلك من المقرّ. كتب الضابط سريعًا برقية مستعجلة ترتكز على معلومات الصحافة البريطانية وتبدأ هكذا: "فيما يتعلق بمهمتنا بخصوص مراقبة دلائل التحضيرات العدوّة من أجل هجوم نوويّ مفاجئ ضد الاتحاد السوفياتي، نُعلِم أنّه، في ٩ آذار ـ مارس، نفّذت القوات المسلّحة البريطانية والأميركية أوّل تدريب على الأرض للصواريخ Cruise الموجودة في Greenham Common".

في ٢٩ آذار ـ مارس، سمع الضابط نفسه، في النشرة الصباحية للمؤسسة البريطانية للإرسال، أنّ تدريبًا آخر جرى في Greenham Common في الليلة السابقة. بما أنّ الخبر وقع متأخرًا للغاية حتى تفصّله جرائد الصباح، فقد فضّل انتظار ظهور الـ Evening Standard. وحتى لا تسبقه تاس، قرّر رغم ذلك إرسال برقية مستعجلة ترتكز فقط على أنباء المؤسسة البريطانية للإرسال. في هذه المناسبة كما في غيرها، لم يدرك "المركز" على الأرجح أنّ تقرير مقرّ لندن الطارئ يرتكز لا على مصدر استعلامات بل على وسائل الإعلام البريطانية.

زادت في شكوك المركز معلومات عن الناتو خلال ربيع ١٩٨٤. في ٢٥ نيسان ـ إبريل، أرسل المركز برقية ـ منشور يقول، بشكل غير دقيق، إنّ اللجنة العسكرية للناتو أعلنت حالة الطوارئ الاحتياطية في أجهزة اتصالاتها لدرجة يمكن اعتبارها فرضيًا مقلقة للغاية. وطلب المركز معلومات إضافية بسرعة.

في أيار ـ مايو، بعد توقيف ميخائيل بيشاني وبعد عودة غوك إلى موسكو في أيار ـ مايو، وجد خليفته ليونيد نيكيتنكو أنّه من الصعب أَخْذ العملية RYAN مأخذ الجدّ فترة أطول.

في تموز ـ يوليو، تلقّى توبيخًا من المركز يذكّره بضرورة إرسال تقرير كلّ ١٥ يومًا حتى في حال عدم وجود أيّ شيء يُذكَر: "لم تنفّذ هذا الأمر ولم ترسل تقريراً كلّ أسبوعين. نطلب منك التقيّد بدقة بالتعليمات حول هذه المسألة".

لم يحدث أبدًا على الأرجح في تاريخ الـ K.G.B أن تُعتبر عمليةٌ أساسيةً لدرجة إرسال تقرير دوري حتى دون وجود معلومات. وحاول المقرّ أن يُرجع لنفسه الفضل، دون أسباب حقيقية، في الاحتجاجات العلنية لحملة نزع السلاح النوويّ البريطانية في Greenham Common ضد الصواريخCruise . في البداية، شكّ "المركز" في إمكانيات

مظاهرات الجماهير ضد الصواريخ Cruise في Greenham بينما كان ٣٠٠ صاروخ سوفياتي من ذوي مدى متوسط يحمل كلّ واحد ٣ رؤوس نووية موجهة ضد أهداف أوروبية. وحين وقعت مظاهرات سلميّة مهمّة بخلاف ما يتوقّع الـ K.G.B، اعتبر المركز خطأ أن تدابيره الفعّالة هي في أساسها بشكل واسع.

خلال صيف ١٩٨٤، أحسّ ضباط الـ K.G.B العائدين من إجازة إلى موسكو بأنّ الأولوية المعطاة للعملية RYAN انخفضت وأنّ المديرية العالمية للجنة المركزية أو وزارة الشؤون الخارجية لم يعودا يشاركان كريوتشكوف وإدارة "المركز" هواجسهما. انخفض القلق أيضًا بشكل واضح في "المركز"...

فقدت RYAN أيضًا من قوّتها خلال النصف الثاني من عام ١٩٨٤ مع اختفاء قائدين عسكريين متشائمين.

في أيلول – سبتمبر، أُرسل الماريشال أوغاركوف، رئيس مجلس القيادة العامّ ونائب وزير الدفاع، بعيدًا عن موسكو، رسميًّا، بسبب "تصرّف غير ملائم مع خطّ الحزب". بعد ٣ أشهر، مات وزير الدفاع نفسه، الماريشال أوستينوف. لم يُقبل خليفته الماريشال سيرغي سوكولوف كعضو مثبّت في البوليتبورو.

لم يكن العالم حقًا على شفير هاوية نووية خلال العملية RYAN لكن، خلال التدريب "Able Arch 83"، اقترب منها بشكل أشَدّ خطرًا منه في أيّ وقت منذ أزمة صواريخ كوبا عام ١٩٦٢.

من بين أعضاء البوليتبورو الذين تابعوا الأزمة التي أوجدها جنون العظمة السوفياتي والبلاغة الأميركية، كان يوجد النجم الصاعد ميخائيل غورباتشيف. واستنتج أنّ الانفراج شرق - غرب ضرورة طارئة.

في تشـرين الأول ـ أكتوبـر ١٩٨٤، أعلـن المراسـلون الغربيـون أنّ غورباتشيف يحبّذ "التدابير الطارئة التي تسمح بالعودة إلى طاولة المفاوضات"[١]...

١ ـ أندرو وأوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٦٦٦ ـ ٦٨٢.

القُنبُلة الهيدرُوجينيَّة

كان من الواضح في منتصف خمسينات القرن العشرين أنّ السوفيات قد قطعوا شوطًا كبيرًا وقاموا بعمل يثير الإعجاب في السير بموازاة الأميركيّين في السباق على التسلّح النوويّ. وبحلول آب ـ أغسطس ١٩٤٩، بعد أربعة أعوام من إلقاء قنبُلتي هيروشيما وناكازاكي، تمكّن السوفيات من تفجير أوّل قنبلة نوويّة لهم مستخدمين البلوتونيوم في ذلك. كانت تلك القنبلة الأولى، كمثيلتها الأميركيّة، القنبلة الأساسيّة في الترسانة النوويّة، فهي سلاح إنشطاريّ.

يقوم أساس هذا النوع من الأسلحة على نواة صغيرة من الموادّ الانشطاريّة محاطة بشحنات تفجيريّة قويّة. يتمّ تفجير الشحنات من الداخل في تسلسل زمنيّ دقيق للغاية يُقاس بأجزاء من ألف مليون من الثانية، ما ينشئ ضغطًا قويًّا ومفاجئًا على النواة يتسبّب بتفكيكها من الداخل. عندئذٍ تصبح الموادّ المنشطرة في منتهى الخطورة، وتبدأ بتفريغ النيوترونات بنوتيرة كبيرة تسمح للنيوترونات بالإنفصال عن النواة. ويؤدّي هذا التفريغ المفاجئ للطاقة إلى إحداث انفجار عنيف.

أدرك "إدوارد تلر" وعلماء أميركيّون آخرون في الذرّة قبل نهاية الحرب العالميّة الثانية بوقت طويل أنّه يمكن، نظريًّا، الوصول إلى سلاح نوويّ أكثر قوّة يعتمد الانشطار كمرحلة أولى فحسب. كان هذا السلاح الجديد الذي طُوّر باسم شيفريّ SVPER، هو القنبلة الهيدروجينيّة التي يعرفها علماء الفيزياء اليوم باسم "السلاح

الإنصهاري". إلاّ أنّ مشكلتين واجهتا العلماء في تطوير القنبلة الهيدروجينيّة الشديدة الانفجار: كيف يفجّرون موادّ الانصهار؟ وكيف يجعلونها تحترق بشكل فعّال؟

بعد إخفاقات وأخطاء كثيرة، نجح علماء "لوس ألاموس" الأميركيّون في تطوير سلاح ينفجر على مرحلتين، مؤلّف من مركّبَين منفصلَين داخل رأس نوويّ واحد. في المرحلة الأولى تنفجر قنبلة إنشطاريّة داخل الرأس النوويّ؛ وفي المرحلة الثانية يمتصّ الرأس النوويّ ما يكفي من الإشعاعات الانشطاريّة لإحداث ضغط يؤدّي إلى تفجير وقود حراريّ ـ نوويّ في الجزء الثاني من الرأس النوويّ. ويُمكن استخدام الـ"ديوتيريوم" في هذه العمليّة كوقود حراريّ ـ نوويّ، وهو من نظائر الهيدروجين، يبلغ وزنه ضعفي وزن الهيدروجين؛ أو "ديوترايد الليتيوم"، الذي وزنه ضعفي وزن الليتيوم، والديوتيريوم هو الوقود الأساسيّ للشمس، ويحترق في داخلها بدرجات حرارة تتراوح بين الـ ١٠ والـ ٢٠ مليون درجة مئويّة.

قام علماء الفيزياء الأميركيّون بتجارب وخلصوا إلى نتيجة بثّت الرعب في نفوسهم، وهي أنّه عندما يؤدّي الانشطار إلى تفجير الوقود الحراريّ ـ النوويّ داخل قنبلة هيدروجينيّة، فهو يحترق بسرعة وبحرارة وبضغط أكبر ممّا لو كان يحترق في قلب الشمس نفسها. وهكذا أصبح مفتاح القنبلة الهيدروجينيّة هو التفجير الأوّليّ للشحنة الانشطاريّة. فوحدها الطاقة الانشطاريّة قادرة على توليد الحرارة... والإشعاعات الضروريّة لإحراق الوقود الحراريّ النوويّ، حسبما أدرك العلماء في ما بعد.

أحدث الانفجار الاختباريّ الناجح للقنبلة الهيدروجينيّة في جزيرة بركانيّة صغيرة في "إينيويتك" جنوبي المحيط الهادئ سنة ١٩٥٢ حفرة بلغ قطرها حوالى ١٩٠٠ متر، وعمقها حوالى ٥٠ مترًا. وقد بلغت قوّتها ٦٥٠ ضعف قوّة قنبلة هيروشيما. وقد حدّد فريق العلماء في لوس ألاموس أنّ صَهر الديوتيريوم والتريتيوم، وهو أحد النظائر

الثقيلة للهيدروجين يتمّ التوصّل إليه عن طريق معالجة الليثيوم، قادر على إحداث انفجار حراريّ - نوويّ بقوّة ١٥ ميغاطن، أي أقوى من قنبلة هيروشيما بألف مرّة.

قطع السوفيات أيضًا أشواطًا كبيرة وبسرعة بصنعهم أسلحة رهيبة من هذا النوع بعد أن كانوا في إحدى الحقبات متخلّفين عن البرنامج الأميركيّ للقنبلة الهيدروجينيّة بثلاث سنوات على الأقلّ، إذ اختبر السوفيات أوّل قنبلة هيدروجينيّة تنفجر على مرحلتين بنجاح سنة ١٩٥٥، وبعد ذلك بستّة أعوام فجّروا أضخم قنبلة هيدروجينيّة حتّى اليوم. فقد بلغت قوّة انفجارها ٥٨ ميغاطن. كما بلغ إجمالي المخزون النوويّ للاتّحاد السوفياتيّ أوجَه في سنة ١٩٨٨ إذ كان يمتلك ٣٣ ألف رأس نوويّ، أي أكثر ممّا كانت تمتلكه الولايات المتّحدة عام ١٩٦٧[١].

---

١ - هيرش سيمور م.، خيَار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢) ص٤٧ - ٤٨، ٥٠ -

إختراق إسرائيليّ لعدم انتشار الأسلحة النوويّة

في ١٨ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٦٤، فجّرت الصين قنبلتها النوويّة الأولى. وقد أكّد الرئيس ليندن جونسون، رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة، بعد ثلاثة أسابيع من انتصاره الساحق في الانتخابات الرئاسيّة أمام منافسه السناتور "باري غولد ووتر" المرشّح الجمهوريّ للرئاسة من ولاية أريزونا، أكّد التزامه بعدم انتشار الأسلحة النوويّة في خطاب أُذيع في كلّ البلاد وجاء فيه:

"حتّى الآن، لم ينتسب إلى النادي النوويّ إلاّ أربع قوى عظمى، هي الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ وبريطانيا العظمى وفرنسا، ولم تكن هناك خلافات بين هذه الدول، فهي دول تتحمّل مسؤوليّاتها وتتمتّع بخبرة طويلة كدول عظمى في العالم الحديث. أمّا الصين الشيوعيّة فلا تمتلك خبرة كهذه، ومن شأن الجهود المكلفة والكبيرة التي تقوم بها أن تغري دولاً أخرى أن تحذو حذوها بامتلاك أسلحة نوويّة، ما يشكّل خطرًا على البشريّة جمعاء، ويجب أن نواصل جهودنا لمنعه وهذا ما سنقوم به".

بعد ذلك بستّة أسابيع عقد "ماك جورج باندي" و"روبرت ماك نامارا" ووزير الخارجيّة "دين راسك" إجتماعًا لمناقشة السياسة الحقيقيّة للإدارة حول منع انتشار الأسلحة النوويّة، وقد حضر هذا الاجتماع السرّي "غلين سيبورغ" رئيس لجنة الطاقة الذريّة الذي كتب عن هذا الاجتماع في مذكّراته التي نشرت عام ١٩٨٧، وجاء فيها:

"قال راسك إنّه يعتقد بأنّ المسألة الحقيقيّة تكمن في ما إذا كان علينا اعتماد سياسة منع انتشار الأسلحة النوويّة، لحصر هذا النوع من الأسلحة في الدول الخمس التي

كانت تمتلكها في ذلك الوقت. وما إذا كنّا واثقين بأنّ هذه السياسة لن تشكّل عائقًا مهمًّا للسياسة الأميركيّة في المستقبل. فمثلاً، ألا يمكن أن نرغب في امتلاك اليابان والهند أسلحة نوويّة لمواجهة التهديد الصينيّ؟ وطرح راسك فكرة إنشاء تجمّع إقليميّ للدول النوويّة في آسيا، مشيرًا إلى أنّ المشكلة الحقيقيّة تكمن بين البلدان الآسيويّة وليس بين دول الشمال والآسيويّين".

كان ماك نامارا يعتقد بأنّه لا يمكن اليابان والهند امتلاك قدرات ردع نوويّة إلاّ بعد عشرات السنين. إلاّ أنّه، مع ذلك، تجدر دراسة الموضوع الذي طرحه راسك. وأشار إلى أنّ اعتماد الولايات المتّحدة سياسة عدم انتشار الأسلحة النوويّة يتطلّب حماية أميركيّة للدول التي لا تودّ امتلاك هذه الأسلحة.

وقال سيبورغ: "أعتقد أنّه يجب ألاّ نستثني أيّ دولة، لأنّ البدء بالاستثناءات قد يفقدنا السيطرة على مجريات الأمور، ما قد يؤدّي إلى مشاكل حقيقيّة".

واتّفق المجتمعون على أنّه يجب عدم السماح بتسريب أيّ معلومات عن دراسة الإدارة الأميركيّة للسياسة التي تودّ اتّباعها، في وقت يعلم فيه الجميع أنّ هذه السياسة هي سياسة منع انتشار الأسلحة النوويّة.

واقترح مدير الـ CIA "ماك كون"، الذي شعر كثيرًا بالخوف لاغتيال كندي، نظرًا للعلاقات الحميمة التي كانت قائمة بين الرجلين والتي لم تكن موجودة بينه وبين جونسون، لقترح إرسال طائرات الـ U-2 التجسّسيّة التابعة لسلاح الجوّ الأميركيّ إلى الصين لتصوير المنطقة التي تمّ فيها تفجير القنبلة النوويّة الصينيّة الأولى. إلاّ أنّ طلبه رُفض. والمعروف عن ماك كون أنّه كان من أهمّ معارضي توسيع عضويّة النادي النوويّ. وقد دُرست إمكانيّة إرسال مقاتلات أميركيّة تحمل إشارات أو رموز لقصف

منشآت تصنيع القنبلة النوويّة في الصين، إلاّ أنّ العمليّة أُلغيت لأنّها كانت أكبر من أن تُنفّذ.

استقال ماك كون من منصبه كمدير للـ CIA رغم دعمه جونسون في تصعيد حرب فيتنام، وقال عند استقالته: "عندما لا يعود الرئيس يقرأ تقاريري، أرى من الأفضل أن أذهب".

كان ماك كون قد فهم مغذى رفض إسرائيل السماح للوكالة الدوليّة للطاقة الذريّة بالقيام بمعاينة كاملة لمنشآت المفاعل النوويّ الإسرائيليّ في "ديمونة" في صحراء النقب. وعند استقالته من منصبه، كان ماك كون يعتقد أنّه ليس لجومسون سوى ثلاثة هموم: "ترتيبه في استطلاعات الرأي، علاقته مع الكونغرس، وطريقة خروجه من فيتنام"...

لكنّ جونسون كان يعي في الحقيقة بأنّ أيّ حزم في سياسة منع انتشار الأسلحة النوويّة قد يؤدّي إلى تبعات لا تُحمد عقباها. فهو يعلم أنّ أيّ تقييد للبرمامج الإسرائيليّ للأسلحة النوويّة قد يثير حفيظة اليهود الأميركيّين الذين دعموه بقوّة في حملته الانتخابيّة وفي حرب فيتنام.

وما زاد في حذر جونسون من اتّباع سياسة منع انتشار الأسلحة النوويّة هو التقرير الذي أعدّته لجنة شكّلها الرئيس لتقدير تبعات امتلاك الصين القنبلة النوويّة. وقد نصح التقرير الرئيس جونسون بإنشاء مناطق خالية من السلاح النوويّ في أميركا اللاتينيّة وأفريقيا والشرق الأوسط، بما في ذلك إسرائيل ومصر. كما اقترح على الرئيس الأميركيّ، في ما يتعلّق بسياسة منع انتشار الأسلحة النوويّة، وضع خطّة أميركيّة بإنشاء قوّة متعدّدة الأطراف تعطي دول حلف الأطلسيّ، ومن بينها ألمانيا الغربيّة، الحقّ في الضغط على الزرّ النوويّ.

كانت إثارة مسألة القوّة المتعدّدة الأطراف حسّاسة للغاية، خاصّة لأنّ الاتّحاد السوفياتيّ كان يربط أيّ اتّفاقيّة حول منع انتشار الأسلحة النوويّة بمنع وجود أيّ قوّة نوويّة منفصلة في أوروبّا.

ودعا أعضاء اللجنة التي أعدّت التقرير الرئيس، في اجتماع معه في البيت الأبيض، إلى وضع سلسلة أولويّات، مثل تحويل القوّة النوويّة الضاربة الفرنسيّة إلى بطّاريّة نوويّة إضافيّة لصواريخ حلف الأطلسيّ. ما حدا بالرئيس إلى اعتبار "تطبيق ما ورد في تقرير اللجنة مشروعًا غير مناسب". وقد حرص الرئيس على القول لمساعديه بألاّ يناقشوا ما ورد في التقرير مع أيّ شخص لم يشارك في الاجتماع... فمن شأن نشر التقرير أن يؤدّي إلى تدحرج كرة ثلج كبيرة قد تضرّ بأيّ بحث مستقبليّ للقوّة المتعدّدة الأطراف أو بمفاوضات منع انتشار الأسلحة النوويّة.

إلاّ أنّ كارثة سياسيّة حلّت بالإدارة الأميركيّة عندما ألقى "روبرت كينيدي" خطابًا في الكونغرس لمناسبة تعيينه شيخًا، ارتكز فيه إلى التوصيات التي تقدّمت بها اللجنة، عندما عالج الشؤون المتعلّقة بمنع انتشار الأسلحة النوويّة... فقد قال: "مستقبل أولادنا هو رهن بالنجاح الذي يمكن إحرازه ببذل هذه الجهود. ويجب أن تشكّل الحاجة إلى منع انتشار الأسلحة النوويّة أولويّة قصوى تتمحور حولها السياسة الأميركيّة". ودعا جونسون إلى بدء فوريّ لمفاوضات عالميّة لإبرام اتّفاقيّة منع شامل للتجارب النوويّة تشمل، من بين من تشمل، الصين الشيوعيّة حليفة فيتنام الشماليّة. كما انتقد جونسون بشكل غير مبتشر لاهتمامه المفرط في حرب فيتنام إذ قال:

"لا يمكن أن ندع الاهتمام بالشؤون السياسيّة اليوميّة يعيق التقدّم لإيجاد حلّ للمشاكل النوويّة. ولا يمكن أن ننتظر إحلال السلام في جنوب شرق آسيا حتّى نعكف على دراسة هذا الملف"...

لم يعد يُسمع بعد ذلك أيّ شيء عن عن هذا التقرير في البيت الأبيض. وبقيت المسائل المتعلّقة بمنع انتشار الأسلحة النوويّة تُعتبر من اختصاص "وكالة الحدّ من التسلّح ونزع الأسلحة" وحدها، التي نادرًا ما كانت تلقى نصيحتها آذانًا صاغية في البيت الأبيض. وسوف يتمسّك جونسون بموقفه طوال عامين قبل أن يدخل في مفاوضات سريّة مع السوفيات، ألغى بعدها فكرة القوّة المتعدّدة الأطراف. ومهّد الطريق لإبرام اتّفاقيّة منع انتشار الأسلحة النوويّة في عام ١٩٦٨، ممّا أكسب دعاة الحدّ من التسلّح في الإدارة الأميركيّة نصرًا كبيرًا.

في منتصف الستّينات، أطلق الاتّحاد السوفياتيّ برامجه للمساعدة الاقتصاديّة والعسكريّة في الاتّحاد السوفياتي، ما أكسب إسرائيل، في نظر الإدارة الأميركيّة، منزلة أهمّ في المنطقة. وكان من الطبيعيّ أن يبدأ الاهتمام الكبير، الذي لم يؤدِّ إلى نتيجة، بمجمّع "ديمونة" النوويّ الإسرائيليّ، يخفت، خاصّة بعد وصول مقاتلات سكايهوك الأميركيّة إلى إسرائيل، وبعد العمليّات الروتينيّة التي كان يقوم بها "فلويد كولر"، وبعد غرق الولايات المتّحدة أكثر فأكثر في الرمال المتحرّكة في جنوب شرق آسيا.

كانت هناك معلومات موثوق بها مفادها أنّ إسرائيل لم تتوقّف عن بناء منشآتها النوويّة. وفي منتصف العام ١٩٦٦، أخّرت إسرائيل قبول مساعدة أميركيّة بلغت ٦٠ مليون دولار، كانت بحاجة ماسّة إليها لبناء مفاعل نوويّ لتحلية مياه البحر ولإنتاج الطاقة، لأنّ هذه المساعدة كانت مرتبطة بالسماح للوكالة الدوليّة للطاقة الذريّة بمغاينة مصنع "ديمونة" الإسرائيليّ النوويّ في صحراء النقب. وكان الرئس الأميركيّ ليندن جونسون ورئيس الوزراء الإسرائيليّ ليفي أشكول قد أعلنا في العام ١٩٦٤ عن الاتّفاق على إنشاء هذا المفاعل الذي يقدر على إنتاج ٢٠٠ ميغاواط من الكهرباء،

وتحلية ٢٧ مليون ليتر ماء يوميًا. إلاّ أنّ عدم قبول الشروط الأميركيّة، حال دون بناء المفاعل رغم السنوات العشر التي استغرقتها مدّة دراسته. وقد حثّ دعاة امتلاك إسرائيل السلاح النوويّ الدولة العبريّة على عدم قبول المساعدة الأميركيّة، ووصفوا ربطها بمعاينة "الوكالة الدوليّة" انتهاكًا لسيادة إسرائيل. وكان هؤلاء الدعاة يشعرون بأنّ الولايات المتّحدة تسعى، عبر دعمها مشروع معمل تحلية المياه، إلى تحويل الجهود الماديّة والبشريّة الإسرائيليّة عن الصناعة النوويّة العسكريّة، وحملها على الاختيار بين الطاقة النوويّة السلميّة والأسلحة النوويّة.

في تمّوز - يوليو ١٩٦٦، وفي إطار جلسة للكنيست الإسرائيليّ لمناقشة قضايا تتعلّق بديمونة، تحدّث شيمون بيريز عن مشاركته في مؤتمر دوليّ حول الأسلحة النوويّة، فقال: "ما من طريقة يمكن فيها، وللأسف، منع انتشار الأسلحة النوويّة في الشرق الأوسط. ليس بسبب إسرائيل، بل بسبب عدم توافق الدول العظمى في ما بينها. وقد سُررت لأنّ عددًا من الخبراء يعتقد أنّه لا يمكن الفصل بين السباق على الأسلحة النوويّة والسباق على الأسلحة التقليديّة في الشرق الأوسط". كان بيريز يدافع عن قرار إسرائيل بمنع السماح بمعاينة "الوكالة الدوليّة" لديمونة بحجّة تفوّق العرب في مجال الأسلحة التقليديّة. وسوف تلجأ الولايات المتّحدة وحلفاؤها إلى الذريعة نفسها بعد سنوات عدّة لتبرّر تركيز صواريخ نوويّة متوسّطة المدى في مواجهة التفوّق العدديّ لقوّات حلف وارسو.

في أواخر ستّينات القرن العشرين، أحيل معظم التقارير الاستخباراتيّة النوويّة من الـ CIA إلى مختبرات تصميم الأسلحة النوويّة الأميركيّة في "لوس ألاموس" و"ساندیا" و"ليفرمور"، حيث أنشئت وحدة استخباراتيّة تُعنى بشؤون الاتّحاد السوفياتيّ والصين بعد الحرب العالميّة الثانية.

بلغت مشكلة انتشار الأسلحة النوويّة حدًّا خطيرًا عندما تمكّن فريق من العلماء، كان ينتظر الحصول على ترخيص للعمل في منشآت لوس ألاموس، من تركيب قنبلة نوويّة استنادًا إلى معلومات وجدها في الكتب والمراجع. وقد استهدفت المختبرات أوّل ما استهدفت المنشآت والمفاعلات النوويّة السوفياتيّة والصينيّة. وبدأت وحدات الاستخبارات النوويّة تراقب نقل التكنولوجيا النوويّة إلى دول لم تكن تعرف الطاقة النوويّة من قبل. كانت تلك المختبرات تملك معلومات دقيقة جدًّا عن المنشآت النوويّة السوفياتيّة والصينيّة، حتّى أنّه كان بإمكان العاملين فيها صنع صواريخ شبيهة بتلك التي كان ينتجها السوفيات والصينيّون. وقد وُضعت لائحة بالدول التي يمكن أن تمتلك في المستقبل القدرة النوويّة، وكانت إسرائيل دومًا على رأس هذه اللائحة تليها جنوب أفريقيا. إذ كان الأميركيّون يراقبون عن كثب العلاقات الفرنسيّة ـ الإسرائيليّة والعلاقات بين فرنسا وجنوب أفريقيا. كما كانوا يراقبون تدفّق اليورانيوم من إسرائيل وإليها من دول مصدّرة لهذه المادّة كالأرجنتين وجنوب أفريقيا. إذ تُعتَبر هذه المادّة الوقود الأساسيّ الذي يشغّل مفاعل ديمونة الذي ينتج الماء الثقيل. ففي منتصف ستّينات القرن العشرين شهدت تجارة اليورانيوم رواجًا ومنافسة في العالم، إذ لم تكن الكميّات المحوّلة من هذه المادّة، التي لا تتجاوز العشرة أطنان، تخضع لرقابة الوكالة الدوليّة للطاقة الذريّة في فيينّا. وقد كُشف أمر أوّل شحنة يورانيوم من جنوب أفريقيا إلى إسرائيل في العام ١٩٦٣، لأنّ وزنها كان يتجاوز العشرة أطنان، فتمّ إرجاعها. لكن منذ ذلك الوقت استمرّت الشحنات السريّة بين جنوب أفريقيا وديمونة في إسرائيل بكميّات كبيرة غالبًا ما كانت تتمّ بمواكبة من وحدات خاصّة تابعة للجيش الإسرائيليّ. كان هدف الإسرائيليّين الأساسيّ عدم لفت الانتباه إلى أنّ مصنع ديمونة كان يعمل بأكثر من طاقته بمرّتين أو ثلاث، لأنّ من شأن ذلك أن يكشف الكميّات الكبيرة من

البلوتونيوم التي يمكنه إنتاجها. وقد علمت الاستخبارات النوويّة في لوس ألاموس وساندِيا بأمر عدد كبير من شحنات اليورانيوم من جنوب أفريقيا وإسرائيل، عبر المراقبة بالأقمار الاصطناعيّة وبوسائل أخرى كانت تراقب مناجم اليورانيوم في كلّ أنحاء العالم. لكن بعد الانتصار الكاسح لإسرائيل في حرب ١٩٦٧، وبعد وقوف الولايات المتّحدة إلى جانب إسرائيل بشكل واضح في الشرق الأوسط، خفّت حدّة الرقابة على ديمونة، وبالتالي أصبحت المعلومات عن المفاعل أقلّ.

كانت تُعتَبر الجالية اليهوديّة الصغيرة، والنافذة في الوقت نفسه، في جنوب أفريقيا، والتي تضمّ ١١٨ ألف يهوديّ، من أهمّ مقدّمي المنح والمساعدات إلى إسرائيل، ومن داعمي الأحزاب الإسرائيليّة المحافظة وعلى رأسها كتلة ليكود برعاية مناحيم بيغن. وفي العام ١٩٧٤، وصل وزير الدفاع الإسرائيلي موشي دايان إلى عاصمة جنوب أفريقيا "بريتوريا" لمناقشة إمكانيّة إجراء اختبار نوويّ إسرائيليّ في جنوب أفريقيا.

استقال دايان من الحكومة الإسرائيليّة بعد تلك الزيارة بعدّة أشهر. إلاّ أنّ التعاون النوويّ والدفاعيّ استمرّ بين البلدين بتسليم رئيس الوزراء الإسرائيليّ إسحق رابين حقيبة الدفاع إلى شيمون بيريز. وبعد عامَين، سيقوم رئيس وزراء جنوب أفريقيا "جون فورستر" الذي وقف إلى جانب ألمانيا خلال الحرب العالميّة الثانية، بزيارة إسرائيل. وكانت تلك أوّل زيارة رسميّة يقوم بها رئيس حكومة جنوب أفريقيا إلى إسرائيل. وكان بيريز قد قام بزيارة واحدة على الأقلّ إلى بريتوريا قبل زيارة فورستر إلى إسرائيل، وكانت زيارته هذه شبيهة بالزيارات التي قام بها قبل عشرين عامًا إلى فرنسا لتنسيق التعاون حول المسائل النوويّة بين البلدين. فقد بحث بيريز في إمكانيّة إجراء اختبارات نوويّة إسرائيليّة، في جنوب أفريقيا، مكمّلاً بذلك ما كان قد بدأه سلفه موشي دايان، وحصل على تعهّدات من فورستر بالسماح بإجراء سلسلة من التجارب

المشتركة بين جنوب أفريقيا وإسرائيل في بلاده. وقد أدّت هذه الزيارة التي أولتها جنوب أفريقيا تغطية إعلاميّة كثيفة إلى تطبيع العلاقات الدبلوماسيّة بين البلدين بشكل كامل، وإلى إبرام اتّفاقات سريّة لنقل الأسلحة، ماجعل إسرائيل وجنوب أفريقيا تبرزان في مطلع ثمانينات القرن العشرين كدولتين تعتمدان بشكل كبير على صادراتهما من الأسلحة، ضاربتَين بذلك عرض الحائط بالرأي العامّ الدوليّ وبالعقوبات التي فرضتها الأمم المتّحدة.

أفادت مصادر إسرائيليّة أنّ فورستر قد وقّع في خلال زيارته لإسرائيل ستّ أو سبع اتّفاقيّات سريّة تتناول المجالات العسكريّة والنوويّة، وقد فسّر مسؤول إسرائيليّ سابق أسباب هذا التعاون قائلاً: "أوّلا، مشاطرة الموارد الأساسيّة، فجنوب أفريقيا بلد غنيّ بها، بينما بلدنا فقير؛ ثانيًا، تزويدنا بالموادّ الأوّليّة؛ ثالثاً، للحصول على مواقع لتجاربنا النوويّة، فاختبار نوويّ صغير في إسرائيل يُفلِت زمام الأمور من أيدينا؛ رابعًا، الإسرائيليّون متعاطفون مع الوضع في جنوب أفريقيا، فهم أيضًا مستوطنون أوروبيّون يواجهون محيطًا عدائيًّا؛ فضلاً عن أنّ جنوب أفريقيا لم تجد بلدًا آخر تتجّه إليه سوى إسرئيل لمساعدتها في بناء قدرتها النوويّة".

في هذه الأثناء، لم يلقَ موضوع الأسلحة النوويّة الإسرائيليّة اهتمامًا خاصًّا في السنوات الأولى لإدارة الرئيس كارتر، التي كانت منهمكة في إيجاد حلّ لمسألة الشرق الأوسط. وحاول الخبراء النوويّون في لوس ألاموس وليفرمور مراقبة نقل شحنات اليورانيوم من جنوب أفريقيا إلى إسرائيل في مطلع ستّينات القرن العشرين، لكن يبدو أنّهم لم يتنبّهوا أو فشلوا في فهم الإطار الحقيقيّ والكامل للجهود الدؤوبة التي كانت تبذلها جنوب أفريقيا في حصولها على تكنولوجيا نوويّة. وفي عام ١٩٧٠، أبلغ فورستر البرلمان أنّ العلماء النوويّين في البلاد توصّلوا إلى اكتشاف عمليّة جديدة

لتكثيف اليورانيوم، وتقنية متطوّرة تعتمد على تسلسل في التفاعلات الكيمائيّة. ولم تنقض سنوات قليلة حتّى بنت جنوب أفريقيا مصنعًا رائدًا لإنتاج اليورانيوم المكثّف في "فاليندابا" قرب بريتوريا، لا يخضع لمراقبة الوكالة الدوليّة للطاقة الذريّة.

لم تكن الاستخبارات الأميركيّة تعلم عن المفاوضات السريّة بين بيريز وفورستر، إلاّ أنّها كانت تشكّ بنوع من التعاون بين بلديهما. وفي منتصف سبعينات القرن العشرين قال مسؤول أميركيّ: "أذهلنا الإسرائيليّون والجنوب أفريقيّون لما كانوا ينتجونه. بدءًا من ألواح الرسم وصولاً إلى إنتاج اليورانيوم، كانوا يسبقوننا بمجالات كبيرة إذ كانت الصناعة النوويّة الأميركيّة الضخمة تجد صعوبة في إدخال التجديدات التي تستغرق وقتًا طويلاً لاعتمادها. فمثلاً قد تستغرق عمليّة اختيار سلاح نوويّ جديد سنوات عدّة بالقرب من مصنع تجميع الأسلحة في "أكاريلو" في تكساس، القادر على إنتاج خمسة آلاف رأس نوويّ أو أكثر سنويًّا".

في منتصف سبعينات القرن العشرين اعتبرت جنوب أفريقيا نفسها في وضع شبيه لوضع إسرائيل. فهي تواجه حربًا أهليّة يشنّها عليها "المؤتمر الوطنيّ الأفريقيّ"، وحرب انشقاق ناميبيا، بالإضافة إلى حروبها مع دول خطّ المواجهة في أفريقيا الجنوبيّة. وفي نهاية المطاف أدرك زعماء جنوب أفريقيا، كما أدرك الزعماء الإسرائيليّون قبلهم، أنّ أعداءهم يفوقونهم عددًا. وهكذا وجد "الأميركانيّون" في جنوب أفريقيا أنّهم بحاجة إلى قنبلة نوويّة صغيرة لإطلاقها على الدول المجاورة في حال حدوث خرق للخطوط الدفاعيّة للبلاد، أو تهديد للمراكز الحضاريّة. وفي آب ـ أغسطس ١٩٧٧، حذّر زعيم الاتّحاد السوفياتيّ بريجينيف الرئيس الأميركيّ كارتر سرًّا بأنّ قمر الأوّل الاصطناعيّ "كوزموس" اكتشف تحضيرات تقوم بها جنوب أفريقيا لإجراء تجربة أو سلسلة تجارب نوويّة تحت الأرض في "كالاهاري"، وأرسل الاتّحاد

السوفياتيّ تحذيرات مماثلة إلى كلّ من بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربيّة التي التزمت جميعها إلى جانب الاتّحاد السوفياتيّ تدابير طوعيّة للحدّ من نقل الموادّ والتكنولوجيا النوويّة إلى الدول غير النوويّة.

أرسلت الولايات المتّحدة أحد أقمارها الاصطناعيّة لمراقبة منطقة كالاهاري، فبدت واضحة كلّ التحضيرات اللازمة لإجراء اختبار نوويّ تحت الأرض، إذ ظهر إقامة حفرة للتجارب، وبناء برج مراقبة قريب، ومدّ الأسلاك الكهربائيّة لقياس الارتجاجات ولحاجات علميّة أخرى... فشنّ كارتر وبريجينيف سويّة حملة دوليّة لحمل جنوب أفريقيا على عدم إجراء الاختبار.

أمام هذا الواقع، عدلت جنوب أفريقيا عن خطّتها في آخر آب ـ أغسطس خوفًا من قطع العلاقات الدبلوماسيّة، وأعلن الرئيس كارتر أنّ "جنوب أفريقيا أبلغتنا أنّها لا تملك قدرة نوويّة ولا تنوي تطويرها للسلم ولا للحرب". وأضاف أنّه تلقّى تأكيدات "بأنّ حفرة كالاهاري غير معدّة للتجارب النوويّة، وأنّه لن تجري تجارب نوويّة عسكريّة في جنوب أفريقيا لا اليوم ولا في المستقبل".

سُرّت الإدارة الأميركيّة لما وصفته نجاحًا باهرًا لدبلوماسيّتها، وراحت تُطلع الصحافيّين على حنكتها في كيفيّة منع حدوث التجربة النوويّة. إلاّ أنّ الإدارة الأميركيّة لم تُخبر الصحافيّين أنّ خبراء إسرائيليّين بثياب مدنيّة كانوا يملأون كالاهاري، ولم تقل لهم إنّ دبلوماسيّي جنوب أفريقيا قالوا للأميركيّين في أوج الأزمة أنّهم كانوا ينوون تجربة قذيفة صاروخيّة عاديّة ليست بعيدة المدى...

أعدّت الـ CIA تقريرًا في ما بعد، أشارت فيه إلى أنّ الضغط الدوليّ سيردع جنوب أفريقيا وقتًا طويلاً عن إنتاج الأسلحة النوويّة. كما أشار التقرير إلى دور إسرائيليّ في النشاطات النوويّة في تلك البلاد.

لم يكمل كارتر ما بدأه في جنوب أفريقيا ليشمل إسرائيل، وكان كلّ أفراد الإدارة الأميركيّة يعلمون أنّه يفترض أن تطال الخطوة التالية إسرائيل، لكنّ أحدًا منهم لم تكن لديه الرغبة في ذلك.

في هذا الجوّ، وصل إلى واشنطن رجل لديه معلومات من داخل مفاعل ديمونة النوويّ الإسرائيليّ، يسعى لمقايضتها لغاية شخصيّة، فاتّصل بمسؤول رفيع المستوى في الاستخبارات النوويّة الأميركيّة عمل معه في السابق، وأخبره أنّ إسرائيل قد أنتجت حتّى الآن أكثر من مئة رأس نوويّ، وأضاف أنّه بحلول عام ١٩٨٠ سيكون لدى إسرائيل حوالى ٢٠٠ رأس نوويّ خفيف الشحنة.

كان هذا الرجل اليهوديّ مستعدًّا للتكلّم مقابل منحه الجنسيّة الأميركيّة، إلاّ أنّ المسؤول الأميركيّ تجاهل ما قاله الرجل، لأنّ الجميع في واشنطن كان يعلم بأنّ إسرائيل تمتلك أسلحة نوويّة. وللسبب عينه لم يبلّغ رؤساءه في الاستخبارات رغم علمه بأنّ هذه المعلومات دقيقة.

... لقد بلغ اليأس ببعض التقنيّين الإسرائيليّين لدى انتخاب بيغن رئيسًا للوزراء حدًّا دفعهم إلى بيع الأسرار التي يعرفونها لقاء منحهم تأشيرات هجرة للعيش خارج إسرائيل.

كانت الإدارة الأميركيّة تحاول من خلال قنوات وأساليب أخرى معرفة حقيقة النوايا الإسرائيليّة في المجال النوويّ. ففي عهد الرئيس فورد سُمح لـ"أندرو مارشال"، مدير "مكتب التقديرات الحقيقيّة" التابع للبنتاغون ببدء حوار استراتيجيّ مع إسرائيل، وبجسّ نبض الإسرائيليّين في ما يتعلّق بمعاهدة تعاون إسرائيليّ - أميركيّ في المجال الدفاعيّ. وكان من بين فريق التفاوض الإسرائيليّ الذي اختاره رئيس الوزراء إسحق رابين، "أفراهام تامير"، وهو ضابط في الجيش الإسرائيليّ، سيصبح في ما بعد مديرًا

عامًّا لوزارة الخارجيّة، وهو الذي سعى إلى مناقشة المسائل النوويّة بعد زيارة أنور السادات التاريخيّة إلى القدس في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٧، والتي كانت الخطوة الأولى نحو محادثات كامب ديفيد.

لكنّ السؤال الخطير الذي كان مطروحًا يومذلك: هل يمكن مارشال وفريقه في البنتاغون مناقشة خطّة طوارئ تستهدف جنوب روسيا نوويًّا في حال اندلاع حرب؟

لقد اعترف هارولد براون وزير الدفاع أنّه رفض مبادرة تامير هذه من دون إعلام الرئيس بها، فإنّ "إدارة كارتر لا ترغب في أيّ التورّط في أيّ نزاع إسرائيليّ ـ سوفياتيّ محتمل... فمجرّد فكرة أن تصبح إسرائيل محميّة الولايات المتّحدة أمرٌ غير وارد إطلاقًا... وأن يبدأ الإسرائيليّون بقولهم: دعونا نساعدكم، ثمّ ينتهي بك الأمر بأن تصبح أداة طيّعة في أيديهم... فلنكن واضحين، للإسرائيليّين مصالحهم الأمنيّة، ولنا نحن أيضًا مصالحنا الأمنيّة"...

لقد اتّخذ المكتب قرار رفض الاستهداف النوويّ المشترك مع الإسرائيليّين من دون معرفة الحكومة الأميركيّة. وكان هذا دليلاً آخر على إخفاء البيروقراطيّة الأميركيّة معلومات عن الرئيس في ما يتعلّق بالقدرة النوويّة الإسرائيليّة. إلاّ أنّ هذه القدرة ستبرز واضحة للعيان عندما ستجري إسرائيل وجنوب أفريقيا اختباريهما النوويّين الذي تمّ تأجيله.

فقُبيل بزوغ فجر صاح عاصف في ٢٢ أيلول ـــ سبتمبر ١٩٧٩، انقشعت الغيوم فجأة فوق جنوبي المحيط الهنديّ، وتمكّن قمر إصطناعيّ من تسجيل وميضَين متتاليَين من نور قويّ في أقلّ من جزء من الثانية، إنّه دليل محتمل لانفجار نوويّ.

كان قمر الاستقصاء النوويّ الصناعيّ "فيلا Vela" قد سجّل ومضات مماثلة في الماضي بلغ عددها ٣١، تبيّن في ما بعد أنّها صادرة كلّها عن انفجارات نوويّة. وقد حدث معظمها في مواقع تجارب نوويّة صينيّة، أو في جنوبي المحيط الهادئ، موقع تجارب الفرنسيّين.

توقّع عدد ضئيل من خبراء منع انتشار الأسلحة النوويّة في إدارة الرئيس كارتر بألاّ يكون هذا الوميض سوى الاختبار النوويّ الذي أرادت إسرائيل وجنوب أفريقيا إجراءه في الماضي، وتمّ تأجيله بسبب الضغوطات قبل عامَين. كان هؤلاء الخبراء محقّين.

فقد أفاد مسؤولون حكوميّون إسرائيليّون سابقون بأنّ "انفجار السبت" ٢٢ أيلول ـ سبتمبر، هو عبارة عن شحنة نوويّة صغيرة معدّة لاستخدامها من قبل قوّات الدفاع الإسرائيليّة، وأفادت المصادر الإسرائيليّة نفسها بأنّ هذا الاختبار هو الثالث من نوعه في المحيط الهنديّ، وقد تمّ إرسال زوارق حربيّة إسرائيليّة على متنها خبراء نوويّون إسرائيليّون إلى مكان الاختبار قبل الانفجار للمراقبة، بمواكبة بحريّة جنوب أفريقيّة، وقالت تلك المصادر: "كنّا نظنّ أنّ الطقس العاصف والغيوم ستحجب الرؤية فعلاً"... إلاّ أنّ الوميض كان أقوى من أن يُحجب.

كان القمر "فيلا" مبرمجًا لنقل ما يشاهده رقميًّا إلى المقرّ العام لقيادة مركز سلاح الجوّ الأميركيّ للتطبيقات الفنيّة في قاعدة "باتريك" التابعة لسلاح الجوّ في "كاب كانافيرال" في فلوريدا. وكان توقيت الانفجار على الساحل الشرقيّ للولايات المتّحدة مساء الجمعة ٢١ أيلول ـ سبتمبر. وما أنْ تمّ التثبّت من صحّة المعلومات حتّى أحيلت عبر وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع إلى المركز الوطنيّ للقيادة العسكريّة في البنتاغون، ومن هناك تمّ تعميمه على كبار القادة العسكريّين والمدنيّين.

ويُعتقد أنّ الانفجار حصل أمام شواطئ جزيرة "برنس إدموند" التي تقع على بعد ٢٠٠ كلم جنوب شرق رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا، عند منتصف المسافة التي تفصله عن المحيط المتجمّد الجنوبيّ.

سرعان ما علم بالأمر الرئيس كارتر ومستشاره لشؤون الأمن القوميّ "زبيغنيو بريزينسكي" صبيحة اليوم التالي من مصادر الـ CIA ووكالة الاستخبارات لوزارة الدفاع.

أُبلغ "جيرالد أوبلنغر" مساعد بريزينسكي للمسائل الدوليّة لحضور اجتماع طارئ في قاعة الأزمات في البيت الأبيض. كان أوبلنغر قد عمل مدّة في لجنة التنظيم النوويّة قبل الالتحاق بفريق بريزينسكي، وكان على بيّنة من برنامج "فيلا" ويعلم أنّ مشاهداته للتجارب النوويّة الصينيّة والفرنسيّة السابقة كانت دقيقة للغاية، وفي الاجتماع أفادت مصادر "الوكالتين" بأنّ هذا الوميض ناتج بنسبة ٩٠٪ عن انفجار نوويّ.

قال "سبورجون م. كيني" نائب مدير وكالة الحدّ من التسلّح ونزع السلاح والخبير الرفيع المستوى في المسائل العلميّة في عهد أيزنهاور: "كنّا كلّنا مذهولين أمام هذا الانفجار، فحتّى لو علمنا أنّه مجرّد اختبار، إلاّ أنّنا لم نعلم مَن قام به".

طرد كيني فكرة إنشاء لجنة للتأكّد من صحّة المعلومات، نظرًا للتبعات الخطيرة التي قد تترتّب عنها.

كان بين المجتمعين "فرانك برس" المستشار الرئاسيّ للشؤون العلميّة والخبير في الزلازل الذي عمل لسنوات طوال على الاستقصاء حول مسائل نوويّة سريّة. كان يعلم عن "فيلا" أفضل من كلّ الحاضرين، ولأنّ بعض الأقمار الصناعيّة أصبح قديمًا للغاية، إذ إنّ بعضها كان قد أطلق في أوائل ستّينات القرن العشرين، وكان خاضعًا لتحديث

وتحليل في مختبرات لوس ألاموس العلميّة. لذلك كان هناك خوف كبير من بعض المعلومات الخاطئة التي قد تصدر عن أقمار صناعيّة كهذا، ما جعل تشكيل لجنة للتحقّق من مدى صحّة المعلومات خطوة طبيعيّة من شأنها أن تتيح للمسؤولين بعض الوقت لدرس الخطوات المقبلة الواجب اتّخاذها، كما أن تضفي طابعًا شرعيًّا على أيّ تأخير في الردّ أو التحرّك.

كان كبار المسؤولين في إدارة كارتر يعلمون أنّ إفشاء أيّ معلومات صادرة عن "فيلا" حول الاختبار المشترك الذي قامت به إسرائيل وجنوب أفريقيا قد يؤدّي إلى نشوء معضلة كان كارتر بغنى عنها، خاصّة وهو على أبواب المعركة الرئاسيّة للعام ١٩٨٠. فقد حمل كارتر راية منع انتشار الأسلحة النوويّة طوال مدّة رئاسته. فإذا لم يكن صارمًا مع دولتَين تحدّتا سياسته هذه، نُعت بأنّه يتّبع سياسة تقوم على الرياء والخبث. وفي حال سعى إلى فرض عقوبات توجّب عليه دفع فاتورة سياسيّة باهظة الثمن. كانت أوساط الخارجيّة الأميركيّة فعلاً في ذلك الوقت في حيرة من أمرها.

قال مسؤول حكوميّ أميركيّ: "كنّا نحن في أصعب مرحلة، فقد كنّا على وشك رفع اتّفاقيّة الحدّ من الأسلحة الاستراتيجيّة "سالت" على مجلس الشيوخ للتصديق عليها، وإذ بنا نفاجأ بانفجار نوويّ ينتهك ما ورد في اتّفاقيّة حظر التجارب النوويّة الموقّعة في العام ١٩٦٣، والأنكى من كلّ هذا هو أنّنا لم نكن عاجزين عن إثبات حصوله وعن إلقاء المسؤوليّة على أيّ كان... لا شكّ في أنّ ما شاهده القمر لا يمكن إلاّ أن يكون انفجارًا نوويًّا، إلاّ أنّه شكّل مشكلة سياسيّة... كان عدد كبير من الأشخاص الذين علموا بأمره يودّون تغطيته بستار كثيف من السرّيّة والتكتّم"...

هدّدت هذه القنبلة النوويّة بتفجير كلّ الجهود التي يبذلها كارتر لإعادة انتخابه، فأصبح لزامًا عليه مرّة أخرى أن يتجاهل ما يجب أن يعرفه طوال ٣٠ عامًا، والإدارة

الأميركيّة تتمرّس على النظر إلى الناحية الأخرى عندما يتعلّق الأمير بالبرنامج النوويّ الإسرائيليّ. فراح المسؤولون الأميركيّون يبحثون عن كلّ المخارج الممكنة لعدم تسمية هذا الاختبار النوويّ الإسرائيليّ - الجنوب أفرقيّ اختبارًا...

شاع خبر الاختبار في الأوساط الحكوميّة الإسرائيليّة، ويتذكّر الاستخباراتي الاسرائيلي "آري بن مناشي" أنّه وجد خبرًا عن الاختبار على مكتبه في وزارة الدفاع صباح اليوم التالي. كان من الواضح أنّ الاختبار جاء وليد المحادثات التي أجراها بيريز مع فورستر والتي لم تعلم الحكومة الإسرائيليّة عنها الشيء الكثير. ومن الواضح أيضًا أنّ بيريز لم يكن في وارد إطلاع بيغن على ما دار فيها. ففضّل بيغن سلوك الطريق الأقصر، وأرسل وزير دفاعه عازر وايزمن المعيّن حديثًا إلى جنوب أفريقيا.

وصف بن مناشي مهمّة وايزمن بأنّها كانت "فقط للوقوف على حقيقة الأمر". وعندما عاد وايزمن من جنوب أفريقيا قال لبيغن: "لقد وعدناهم ببيعهم رؤوسًا نوويّة". فوافق بيغن.

أفاد أحد الإسرائيليّين الذين لديهم قدرة على الوصول إلى كلّ المعلومات في جنوب أفريقيا بأنّ وايزمان وقّع، قبل اختبار سنة ١٩٧٩، إتّفاقًا مع بريتوريا ببيعها تكنولوجيا ومعدّات لصناعة قذائف ذات شحنات نوويّة صغيرة، من عيار ١٧٥ و٢٠٣ ملم. وقد أدّى طلب وايزمن هذا إلى نشوب خلاف داخليّ مع المسؤولين النوويّين الذين عارضوا بيع جنوب أفريقيا تكنولوجيا نوويّة لأنّها كانت "أغلى ما عندنا" حسب تعبيرهم.

في الولايات المتّحدة الأميركيّة، في نهاية المطاف وقع اختيار برس على "جاك ب. روينا"، وهو أستاذ في الهندسة الكهربائيّة، في المعهد التكنولوجي في ماساتشوستس، وكلّفه برئاسة لجنة للتحقّق من مدى صحّة الانفجار، لمعرفة ما إذا

كانت "أفضل البضائع الإسرائيليّة" قد وصلت إلى جنوب المحيط الهنديّ. وكان انتقاء روينا أفضل غطاء للحفاظ على سريّة المهمّة، فهو مستشار سابق للبنتاغون للشؤون العلميّة والدفاعيّة، وكان مصدر ثقة بالنسبة إلى عدد من المواضيع العلميّة الحسّاسة للاستخبارات الأميركيّة، وخدم في مطلع ستّينات القرن العشرين في "وكالة مشروع الأبحاث المتطوّر" وفي "وكالة الأبحاث التابعة للبنتاغون" التي أُلحقت في ما بعد بـ"معهد التحليل الدفاعي" الذي يضمّ نخبة المفكّرين في هذا المجال، وكان روينا رجلاً كتومًا يعمل ما يُطلب منه من دون التحدّث إلى الصحافيّين، خاصّة بالنظر إلى السريّة التي تتطلّبها مهمّته هذه.

مضت أسابيع عدّة والسرّ لا يزال ضمن جدران البيت الأبيض. وتمكّن برس وروينا من تشكيل لجنة من ثمانية علماء لا يُشكّ بنزاهتهم، وقد ضمّت، إلى جانب "لويس ألفاريز" المساعد الرئيسيّ لروينا من قسم الفيزياء في جامعة كاليفورنيا وحائز جائزة نوبل، "فولفغانغ بانوفسكي" من جامعة ستانفورد، و"ريتشارد غارويت" من مركز أبحاث "توماس واتسون" التابع لـ IBM.

حدّد كيني وبروس عمل اللجنة بالقيام بتحقيق دقيق لمعرفة ما إذا كانت مشاهدة "فيلا" إنذارًا خاطئًا. كما طُلب من لجنة روينا معرفة ما إذا كان الوميضان ناتجين عن مصادفة ظاهرتين طبيعيّتين أو أكثر. ثمّ زُوّدت اللجنة بكلّ المعلومات العلميّة حول "فيلا" من دون أيّ معطيات سياسيّة إضافيّة. كانت المهمّة فنيّة علميّة وحسب.

بقي سرّ فيلا في طيّ الكتمان أكثر من شهر إلى أن أخبر صديق قديم لـ"جون سكالي" مراسل تلفزيوني لشبكة ABC أنّ أجهزة الإنذار الأميركيّة فشلت في رصد هجوم نوويّ سوفياتيّ مزيّف على الولايات المتّحدة. كان هذا بمثابة حادث مخز لسكالي الذي كان سفير بلاده في الأمم المتّحدة في عهد نيكسون.

أخبر المراسل صديقًا في البنتاغون عن الحادث... ولم تمض ساعات قليلة حتّى استُدعي إلى مكتب مسؤول في وزارة الدفاع أخبره بكلّ شيء، فنشر القصّة في ٢٥ تشرين الأوّل ـ أكتوبر، أي بعد أكثر من شهر، وهو وقت كاف للإدارة لإعداد روايتها.

على الفور، قال الناطقون الرسميّون باسم البيت الأبيض للصحافيّين إنّه ما من تأكيد رسميّ لإجراء الاختبار. كما نفت جنوب أفريقيا أيّ علاقة لها بالانفجار بشكل قاطع، وكتبت صحيفة "ذي نيو يورك تايمز": "أمام نفي من جنوب أفريقيا قيامها بأيّ نشاط نوويّ مماثل، وبسبب عدم وجود أيّ أثر إضافيّ غير ذلك الذي صدر عن القمر الصناعيّ، تمكّنت الحكومة الأميركيّة من تجنّب مواجهة كبيرة حول ما قالت إنّه قد يكون ناتجًا عن تفجير دولة ما قنبلة نوويّة في منطقة تبلغ مساحتها نحو ٧,٢٠٠ كلم مربّع"... كما صرّح فانس للصحافة بأنّه بعد ساعات قليلة على حصول الانفجار، ناقش الأمر مع مستشار الرئيس لشؤون الأمن القوميّ "زبيغنيو بريزينسكي" ومع وزير الدفاع...

لكن ما لم يعلمه الصحافيّون بالطبع، هو أنّ مسؤولاً إسرائيليًّا رفيع المستوى طرق مرّتين باب "هارولد براون" في مكتب التحقيقات الحقيقيّة لمناقشة استهداف أميركيّ ـ إسرائيليّ استراتيجيّ للاتّحاد السوفياتيّ. فهل أطلع براون، سايروس فانس، أو الرئيس، أو مستشار الرئيس للأمن القوميّ على الأمر؟ هل راجع أحد في الحكومة الأميركيّة ملفّات الاستخبارات عن الاختبار الذي كان مقرّرًا إجراؤه في كالاهاري في العام ١٩٧٣؟ هل تساءل أحد مسؤولي البيت الأبيض لماذا تعقّبت وكالة الأمن القوميّ أسطولا صغيرًا من السفن الحربيّة الإسرائيليّة والجنوب أفريقيّة إلى موقع يبعد ٢,٤٠٠ كلم عن سواحل جنوب أفريقيا؟ وأخيرًا هل لاحظ أحد ما قاله رئيس وزراء جنوب

أفريقيا "بيك و. بوتا" في ٢٥ أيلول ـ ديسمبر ١٩٧٩، أي بعد ثلاثة أيّام من الانفجار لم تصدر في خلالها أيّ ردّة فعل دوليّة؟ فاستنادًا إلى صحيفة "راند دايلي مايا" قال بوتا قبل مؤتمر للحزب الوطنيّ الحاكم "إنّ بحوزة جنوب أفريقيا ما يكفي من الأسلحة لردع أيّ عمل إرهابيّ"، مشيرًا بذلك إلى قادة "المؤتمر الوطنيّ الأفريقي" الذي يتزعّم الحركة المناهضة للفصل العنصريّ، ونقلت الصحيفة عن بوتا قوله: "إذا كان هناك أشخاص يفكّرون بالقيام بعمل ما، فأقترح عليهم التفكير مرّتين قبل القيام بذلك لأنّنا نملك أسلحة لا يعلمون بها"...

أمضت لجنة روينا أشهرًا عدّة في الواقع تبحث في ثغرات القمر الاصطناعيّ وتطرح أسئلة جديدة حول مسألة "الإنذار الكاذب"، وحول مصداقيّة المعلومات التي ينقلها نظام "فيلا"...

... تولّد الانفجارات النوويّة وميضين متتاليَين يفصل بينهما ١/٣ من الثانية: الوميض الأوّل هو الانفجار بحدّ ذاته، والوميض الثاني هو كرة النار التي تنتج عن الانفجار. ويُترجم هذان الوميضان بشكل حدبتَين كبيرتَين على رسم بيانيّ لنظام "فيلا"...

حارت اللجنة في أمرها بسبب الشذوذ الموجود في الحدبتَين اللتين رسمهما القمر الصناعيّ "فيلا" ليل ٢٢ أيلول ـ سبتمبر، وخلصت إلى القول "إنّ في نظام المشاهدة الداخليّ للقمر فيلا ما يكفي من عدم الدقّة لإثارة شكوك جديّة حولما إذا صدرت الإشارة عن انفجار نوويّ أو عن أيّ مصادر ضوء أخرى في محيط القمر الصناعي"...

كما لم تعثر اللجنة على أيّ إشارات أخرى ترافق الانفجار النوويّ كإشارات الزلزال، والموجات الصوتيّة، والاختلالات في الأيونات الموجودة في الجوّ، فضلاً عن

النبضات المغناطيسيّة والكهرمغناطيسيّة التي وردت في تقارير سابقة لـ"فيلا". كما لم تعثُر على غبار نوويّ متساقط أو على أيّ نوع من الحطام...

... كانت النتيجة معروفة نظرًا لعدم وجود دافع، فالعوامل الأخرى المفروض تواجدها غير موجودة بشكل غير عاديّ...

ورد في تقرير اللجنة في تمّوز ـ يوليو ١٩٨٠: "إنّ الوميض قد لا يكون ناجمًا بالضرورة عن انفجار نوويّ، مع أنّه لا يمكننا استبعاد هذا الأمر. وهو قد يكون ناتجًا عن أحداث محمولة، أو ربّما عن ارتطام نيزك صغير بالقمر الصناعيّ نفسه".

أثارت النتيجة التي خلصت إليها اللجنة حفيظة العلماء والمحترفين النوويّين في لوس ألاموس الذين صمّموا نظام "فيلا"، وكان عدد كبير منهم عضوًا في "هيئة الاستخبارات النوويّة"، وهي أعلى فريق للاستخبارات النوويّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. وقد أجرت هذه الهيئة تحقيقها الخاص على "فيلا"، إلاّ أنّ البيت الأبيض طلب منها عدم مناقشة التقرير علنًا... لضرورات أمنيّة.

تؤكّد نتيجة التحقيق الذي قامت به الهيئة أنّ انفجارًا نوويًّا صغير الشحنة قد حصل فعلاً في ٢٢ أيلول ـ سبتمبر، وقال "هارولد م. أغنو" مدير مختبرات لوس ألاموس من ١٩٧٠ حتّى ١٩٧٩": "إذا كنت ترى بطّة، فهي بطّة لا محالة"... إلاّ أنّ هذا الجواب لا يروق لكارتر... بينما لم تكن المسألة بالنسبة إلى أغنو "هل حدث انفجار نوويّ أم لا" بقدر ما كانت "مَن أجرى الاختبار النوويّ".

ويعتمد "لويس هـ. روديس"، الذي لعب دورًا كبيرًا في تطوير القدرة النوويّة الأميركيّة بعد الحرب العالميّة الثانية، مقولة أنّ الإنفجار الإسرائيليّ ــ الجنوب أفريقيّ أُجري على جزيرة صغيرة في أرخبيل جنوبي المحيط الهنديّ...

إلاّ أنّه كان من الواضح أنّ البيت الأبيض عمل كلّ ما بوسعه لإخفاء الوقائع، لا بل للتلاعب بالوقائع، وكان الجميع مقتنعًا في نيو مكسيكو أنّ هذا الانفجار هو عبارة عن اختبار نوويّ.

أشرف على التحقيق السرّي الذي قامت به هيئة الاستخبارات النوويّة "دونالد م. كير"، الذي خدم في إدارة كارتر كمدير بالوكالة للبرامج الدفاعيّة في وزارة الطاقة، وهو المسؤول عن القنابل النوويّة الأميركيّة، وقال: "نحن لسنا ممّن يدلي بمعلوماته لعامّة الشعب، فنحن من داخل الإدارة... لا شكّ في أنّ الانفجار ناتج عن قنبلة، وأعتقد أنّه تمّ تسييس النتائج التي وصلت إليها لجنة روينا بهدف تفسير مختلف لما حدث"...

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو: أعضاء لجنة روينا، وكلّهم يتحلّون بالنزاهة، لماذا جعلوا أنفسهم في وضع حرج؟ في وقت يمكن غيرهم أن يحدّ من المعلومات التي عليهم تقييمها. يقول البعض في محاولة الإجابة على هذا التساؤل: "أُكّد لجميع أعضاء اللجنة أنّه سيسمح لهم بالإطّلاع على كلّ ما يتعلّق بنظام "فيلا، ولكن مع ذلك لم يتمّ إطلاعهم على أيّ اكتشاف مهمّ... روينا نفسه لا علم له... على عكس البيت الأبيض"...

كان روينا مديرًا لبرنامج الدراسات الدفاعيّة للحدّ من التسلّح التابع للمعهد التكنولوجي في ماساتشوستيس، واشترك بوضعيّته هذه في أواخر سنة ١٩٧٩ في إعداد تقرير فديراليّ موّله المعهد لتقييم توافر المكوّنات الأساسيّة لجمع صواريخ بالستيّة قصيرة المدى في الخارج، ومقارنتها بالمكوّنات التي تنتجها الولايات المتّحدة. كان أحد معاوني روينا في إعداد التقرير خرّيج جامعي إسرائيليّ. وبُعيد انتشار خبر انضمام روينا إلى لجنة "فيلا" في المعهد، فإنّ الشاب الإسرائيليّ الذي قال إنّه ساهم في وضع نظام إسرائيليّ لإطلاق الصواريخ النوويّة، بدأ يخبر روينا عن القدرة النوويّة

الاسرائيليّة. ويقول روينا: "شعرت أنّه كان يعرف كثيرًا عن الموضوع... كان يعرف كلّ شيء عن الصواريخ، وأنظمة التوجّه، وكأنّ ذلك هو عمله العاديّ"...

كتب روينا تقريرًا إلى "سبورجن كيني" في "وكالة الحدّ من التسلّح ونزع السلاح"، جاء فيه أنّ ذلك الشابّ الإسرائيليّ كان يقول: "إنّ وميض ٢٢ أيلول ـ سبتمبر هو محاولة إسرائيليّة ـ جنوب أفريقيّة مشتركة لتفجير نوويّ". غير أنّه أمام هذه المعلومات الاستخباراتيّة الحامية، والتي تحمل في طيّاتها بذور أزمة كبيرة، آثر كيني البقاء على وفائه لكارتر وصرف النظر عن التقرير الذي لم يبلّغ إلى الاستخبارات الأميركيّة أو إلى لجنة روينا. بل بقي دفين أدراج البيروقراطيّة.

وافق عدد قليل من المسؤولين الحكوميّين الأميركيّين حول منع انتشار الأسلحة النوويّة على موقف كيني وبرس في محاولتهما لفلفة التبعات المترتّبة عن الاختبار الإسرائيليّ ـ الجنوب أفريقيّ، وقال أحدهم: "أعتقد أنّ النتيجة التي خلصت إليها لجنة روينا شكّلت المخرج الصحيح في ذلك الوقت. فهذا ما بإمكانك عمله في معالجة القضايا التي قد تتشعّب عنه: الفصل العنصريّ، كامب ديفيد، إتّفاقيّة منع انتشار الأسلحة النوويّة، حقوق الإنسان، معالجة الأمر مع الهند حول عدم انتشار الأسلحة النوويّة، إيقاف المعالجة النوويّة في كلّ أنحاء العالم"...

إلاّ أنّ العمل الذي أنجزته الاستخبارات الأميركيّة حول الاختبار كان أفضل بكثير، إذ أصرّت الـ CIA على القول داخل أوساطها إنّ انفجارًا وقع، لكنّها لم تتطرّق بشكل أساسيّ إلى البرنامج النوويّ الإسرائيليّ. وفي عام ١٩٨٠ أصدرت الوكالة تقديرًا وطنيًّا خاصًّا للاستخبارات أفادت فيه أنّ إسرائيل أنتجت ما يتراوح بين ٢٠ و٨٠ رأسًا نوويًّا، وأنّها زادت من قدرة مفاعلها النوويّ على الإنتاج ومن قدرة المفاعل على التبريد، وهي إشارات واضحة على إنتاج كميّة أكبر من البلوتونيوم للاستخدام

العسكريّ. فما من شكّ في أنّ إسرائيل أنهت بناء مصنع للمعالجة الكيميائيّة، لكن لم يُعلم بعد كيف وأين. ولكن مع ذلك قلّلت الـ CIA من شأن الرؤوس النوويّة الإسرائيليّة ومن شأن تقدّم عمليّاتها النوويّة، وقد تمكّن القمر الصناعيّ KH-11 بصورة مذهلة من التقاط الصور لمخزن لصواريخ نوويّة إسرائيليّة أُحصي في داخلها ما لا يقلّ عن عشرة رؤوس نوويّة. وقال أحد المسؤولين: "لم تأت هذه الصور بجديد سوى أنّها المرّة الأولى التي نشاهد فيها رأسًا نوويًّا إسرائيليًّا... لقد ثبّتت الصور صحّة معلوماتنا". وكان مساعد وزير الخارجيّة الأميركيّ "جوزيف س. ني"، أبرز مستشاري كارتر حول مسائل انتشار الأسلحة النوويّة، هو الذي أمر الـ CIA سنة ١٩٨٠ بوضع هذه التقديرات، وأقرّ "ني" بأنّ معالجة قضيّة القنبلة الإسرائيليّة لم تشكّل أولويّة بالنسبة لكارتر. وقال: "إن لم يكن بالمستطاع عمل الكثير، فالأمر ليس مجرّد خطوة احتجاج دبلوماسيّة وحسب، المسألة هي: هل في استطاعتك إثارة ضجّة حول هذا الموضوع؟ والجواب كلاّ"[١].

---

١ - هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، ص١٢٣ - ١٢٧، ١٨٨ - ٢٠٠.

لغزُ فَرار الأميركيّ إدوَارد لي هَوارد إلى مُوسكُو

في ٢٠ تمّوز - يوليو ٢٠٠٢، ذكرت صحيفة "واشنطن بوست" أنّ الضابط السابق في وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA "إدوارد لي هوارد"، الذي يبلغ من العمر خمسن عامًا، والذي كان قد تعرّض لتحقيق معه في الولايات المتّحدة بعد الاشتباه بأنّه كان يتجسّس لموسكو، وقد تمكّن من الفرار إلى موسكو في شهر أيلول - سبتمبر ١٩٨٥، قد توفّي في الثاني عشر من تمّوز - يوليو ٢٠٠٢ في ظروف غامضة، حسب ما ذكر أحد أصدقاء عائلته، الذي أفاد أنّ هوارد سقط من على سلّم منزله في العاصمة الروسيّة وكسرت رقبته...

كان هوارد قد انضمّ إلى الـ CIA في عام ١٩٨١، وفي عام ١٩٨٣، بدأت الوكالة تعدّه هو وزوجته التي كانت هي أيضًا من الضبّاط فيها، لمنصب في موسكو وللقيام بمهامّ تجسّسيّة فيها. ولأنّ الـ CIA اعتادت أحيانًا على تقديم ضبّاطها لإجراءات الفحص والتدقيق التي يخضعون لها فيها لجهاز إلكترونيّ يُستخدم للكشف عن مدى وجود أكاذيب في أقوالهم قبل إرسالهم إلى مهمّة كبيرة كهذه، فقد أظهر هذا الجهاز وجود كذب وخوف في أقوال هوارد، وتمّ إبعاده عن هذه المهمّة بالذات. على الأقلّ، كان هذا ما أعلنته الـ CIA رسميًّا بعد فراره عام ١٩٨٥ إلى موسكو. وبالإضافة إلى ذلك الزعم، ذكرت تقارير الوكالة أنّ هوارد مدمن على الكحول ولا يمكن توظيفه في تلك الوكالة الحسّاسة. لكنّ الـ CIA كانت ساعدته، رغم ذلك، بموجب ما سرّبت من أنباء، في العثور على وظيفة في وكالة حكوميّة تابعة للدولة في مدينة "سانتا فيه" شمال

"مينيسوتا". ومع ذلك تورّط هوارد بمشاكل ماليّة بعد مواصلة الشرب اليوميّ للكحول، فاستغلّ إجازة سافر خلالها مع زوجته إلى فيينا في النمسا، واتّصل بعملاء سوفيات في تلك المدينة عام ١٩٨٤، وقدّم هناك، كما تقول المخابرات الأميركيّة، المعلومات التي كان عرفها أثناء إعداده للعمل في موسكو قبل طرده، مقابل مبلغ من المال.

هذه القصّة تبدو غير مقنعة تمامًا، والـ CIA كان لها مصلحة في عرضها على هذا النحو، في حين أنّ المخفي منها "أعظم"... كما يقول بعض المحلّلين، ويضيفون أنّه يُستدلّ من المصادر الصحافيّة الأميركيّة، وخصوصًا "واشنطن بوست"، أنّ قصّة هوارد ستظلّ غامضة ما دامت لا تتحدّث زوجته عن حيثيّات فيها، أو ما دامت المخابرات السوفياتيّة لا ترغب بالكشف عن بعض تفاصيلها الرئيسيّة. ويزداد الغموض حين نجد أنّ هوارد كان قد تعرّض لتحقيق مكثّف من مكتب التحقيقات الفدرالي FBI قبل شهر من فراره من قلب الولايات المتّحدة إلى موسكو.

ففي شهر آب - أغسطس ١٩٨٥، فرّ إلى الولايات المتّحدة طالبًا اللجوء السياسيّ أحد كبار ضبّاط المخابرات السوفياتيّة "فيتالي يورشينكو"، وأصبح تحت إشراف الـCIA ، وقيل إنّه زوّدها بمعلومات تفصيليّة عن جواسيس أميركيّين داخل الـ CIA، يعملون لصالح المخابرات السوفياتيّة. ومن بين الأسماء ورد إسم هوارد الذي تعرّض لاستجواب من الـ FBI، من دون أن يُعثر على دليل يدينه. ويبدو أن يورشينكو لم يقدّم للـ CIA سوى معلومات تضليليّة وبعضها ضمن حدود معيّنة ليبرهن عن صدقه، تجاه هوارد، لكنّ قصّة فرار يورشينكو انتهت بعد شهر واحد بعودته إلى الفرار من الـCIA هذه المرّة إلى المخابرات السوفياتيّة... وهذا ما أثار أكبر ريبة وما ألحق ضربة بالـCIA بسبب لجوئه إليها ثمّ الهرب إلى موسكو بعد أن سلّم نفسه لسفارة موسكو في واشنطن...

وتبيّن، بعد اعتقال أكبر جاسوس سوفياتيّ في قيادة الـ CIA نفسـها، وهـو "إلدريـك إيمس" مسؤول دائرة مكافحة التجسّس السوفياتيّ في الوكالة عام ١٩٩٤، واعترافه بـأنّ المخابرات السوفياتيّة رتّبت مسرحيّة فرار ولجوء يورشينكو إلى الولايات المتّحدة لكي تبعد الشبهة عن ألدريك إيمس بعد ازدياد الشكوك حوله. فعندما وصـل يورشـينكو إلـى مقرّ الوكالة وقدّم معلوماته، كان أحد الذين أصغوا إليه هو إيمس نفسه، ولا شكّ في أنّ الإثنين كانا على اطّلاع بوضع كلّ منهمـا. وحيـن انهمكت قيـادة الــ CIA بالمعلومـات التي قدّمها يورشينكو، وهو الذي يحتلّ منصبًا كبيرًا في الــ KGB، ابتعـد الخطـر عـن إيمـس، لأنّـه مـن المفـروض أن تعتقد الــ CIA أنّـه لـو كـان إيمـس مشـتبهًا بـه، لقـدّم يورشينكو معلومات عنه، خصوصًا وأنّه ثبت بعد ذلـك صحّـة معلوماتـه حـول هـوارد الذي فرّ في أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٥ قبل فرار يورشينكو المثير، لكن كيف فرّ هوارد؟

بعد أن قدّم يورشـينكو بعـض المعلومـات عـن هـوارد إلـى حدّ غيـر تـام، لتسبّب باعتقاله ومحاكمته، قرّر مكتب التحقيقـات الفدرالـي وضـع مراقبـة دائمـة علـى هـوارد ومنزله وأسرته وسيّارته وتنقّلاته أينما كانت، علّه يعتقله متلبّسًا أو يكشف عن العمــلاء الذين يزوّدهم بالمعلومات. وجرى التنصّت على جميع مكالمات هاتف منزلـه مـن دون أن يدري بالطبع، وإن كان يتوقّع حصول ذلك، خصوصًا وأنّه كان ضابط CIA... ففي اليوم الذي فرّ فيه أعدّ دمية بحجمه يمكن طيّهـا ونفخهـا بحيـث تكـون بذّتـه عليهـا عنـد نفخها، وحملها بحقيبة صغيرة، وخرج مع زوجته في سيّارتهما تاركًا المقود لزوجتـه، وجلس هو بجانبها، وقصدا تناول العشـاء فـي الخـارج. وعنـد عودتهمـا، لاحظ رجـال الـFBI الذين كانوا يراقبون عودتهما إلى المنزل في نوبة أخـرى لمـن رافـق سـيّارتهما من رجال الــ FBI وشـاهد وجودهمـا فـي المطعـم، لاحظـوا أنّ السـيّارة كـانت تقودهـا امرأته وهو "الدمية" موجود بجانبها حين دخلت السيّارة مرآب المنزل، لكنّ هـوارد لـم

يكن لا في السيّارة ولا في البيت، لأنّه غادر السيّارة عند أحد المنعطفات بعد أن وضع الدمية دون أن يلاحظ ذلك أحد ممّن كانوا يراقبونه ويتعقّبون سيّارته. ولكي تنطلي القصّة تمامًا على رجال المخابرات الاتحاديّة FBI، قامت زوجته من داخل المنزل في الليلة نفسها بالاتّصال بأحد المكاتب ووضعت أمام سمّاعة الهاتف شريط تسجيل يطلب تحديد موعد للاجتماع بمدير ذلك المكتب عند صباح اليوم التالي. ولأنّ رجال الـFBI كانوا يتنصّتون على مكالمات هاتف المنزل، ازدادت الطمأنينة بوجوده في المنزل. لكنّ هوارد كان في تلك الليلة متوجّهًا نحو المطار حيث انتقل إلى دالاس وبعدها انطلق بطائرة أخرى خارج الولايات المتّحدة. وبعد أن وصل إلى هلسنكي في فنلندا، قام بعبور الحدود الفنلنديّة باتّجاه أراضي الاتّحاد السوفياتيّ. ووصل بعد ذلك إلى موسكو حيث منحته المخابرات السوفياتيّة شقّة وفيلاً صغيرة في الريف.

بعد هروب هوارد الناجح، اضطرّت الـ CIA إلى إجراء تغييرات في كيفيّة تجنيد الأميركيّين فيها، وفي طريقة التعامل مع من يشكّ أثناء تدريبهم بعدم صلاحيّتهم أو ضعفهم أو وجود ثغرات في شخصيّتهم قد يساء استخدامها. وعمدت إدارة المخابرات إلى عدم تسريح مثل هؤلاء المجنّدين فيها مباشرة وفورًا، ولجأت بدلاً من ذلك إلى إعطائهم وظائف لا علاقة لها مباشرة بالعمل السرّي لمدّة من الزمن، تنعدم خلالها أخطار تسريبهم للمعلومات، فيتمّ تسريحهم بعد ذلك.

في موسكو، اعتاد هوارد منذ أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٥ على الانتقال من موسكو إلى مدن أخرى أو مناطق ضمن النفوذ السوفياتيّ في المناسبات. وكانت زوجته تزوره ويلتقي بها لأنّ المحكمة الأميركيّة لم تحاكمها بتهمة التواطؤ مع زوجها في فراره. وكانت تصطحب معها إبنهما أيضًا في كلّ سنة. وقد التقيا في بانكوك في آخر مرّة قبل وفاته... إنّ تأكّدت وفاته وقصّتها... فالناطق باسم الـ CIA قال في ١٩ تموّز ـ يوليو

٢٠٠٢ إنّ الوكالة تلقّت أنباء عن وفاة هوارد قبل أسبوع... لكنّها لا تستطيع تأكيدها بعد. والسؤال الذي يُطرح هو: ماذا كان أهمّ ما قدّمه هوارد للسوفيات؟

تقول صحيفة "واشنطن بوست" إنّ هوارد زوّد موسكو باسم عميلين مهمّين في الـCIA، أحدهما ضابط سرّي لها في موسكو نفسها، وآخر عالم سوفياتيّ مهمّ من المختصّين في تقنية "التنصّت والتسلّل السرّي"... وقامت موسكو بعد الكشف عنهما بطرد الضابط من موسكو، ربّما لأنّه كان يتخفّى بستار دبلوماسيّ، يصعب الكشف عنه، وباعتقال العالم السوفياتيّ وإعدامه في ما بعد.

وهناك من يعتقد بأنّ ترتيب هوارد لفراره جرى بأوامر من المخابرات السوفياتيّة لكي يتمّ إشغال قيادة الـ CIA بقضيّة وبمعلومات يورشينكو الذي تزامن لجوؤه إلى أميركا مع هرب إيمس، ربّما لتحويل انتباه الوكالة عن الأخير، إن لم يكن لتعزيز الثقة به. وقد نجحت هذه المسرحيّة السوفياتيّة لمدّة تسع سنوات، لأنّ إيمس رُقّي في منصبه من ضابط مسؤول عن التجسّس في بعض دول أميركا اللاتينيّة، إلى مسؤول عن دائرة مكافحة التجسّس السوفياتيّ في قيادة الـ CIA، وهو المنصب الذي كان يشغله عند اعتقاله عام ١٩٩٤ وإدانته بالتجسّس لصالح موسكو في العهدين السوفياتي والروسيّ على السواء. بل إنّ إيمس سلّم إلى السوفيات عددًا من الجواسيس الروس الذين كانوا يتعاملون مع الـ CIA من داخل أراضي الاتّحاد السوفياتيّ.

وتقول صحيفة واشنطن بوست في ٢٠ تموّز - يوليو ٢٠٠٢ إنّ موت هوارد يشير إلى نهاية أحد أبرع قصص التجسّس في عالم الحرب الباردة بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ[1].

---

١ - زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٩٩ _ ٢٠٥؛ مجلّة "المحرّر العربي"، عدد ٢٦ تمّوز - يوليو - ١ آب - أغسطس ٢٠٠٢، ص٢.

حروب الصغار وسط الحرب الباردة بين الكبار

"سام كيمينغ"، وُلد في فيلادلفيا عام ١٩٢٧، وهو الإبن الوحيد لوالده الذي كان ورث عن جدّة له ثروة كبيرة جعلته يعيش من عائداتها الموظّفة في مختلف المجالات. لذا كانت أيّام سام الأولى ذهبيّة فعلاً إذ كان محاطًا بالمربّيات والخدم، وأرسل إلى أهمّ المدارس الابتدائيّة المشهورة. عند بلوغه الخامسة من العمر حصل على هديّة، من أحد أصدقاء العائلة وهو من أبطال الحرب العالميّة الأولى، هي عبارة عن مسدّس رشاش من نوع "مكسيم"، وأمضى سام أشهرًا تلو أشهر وهو يفكّ ويركّب هذا الجهاز غير العاديّ. وهكذا ابتدأت بوادر المهنة التي ستجعل منه من أشهر الرجال في عالم تجارة السلاح.

عندما بلغ الثامنة أفلست عائلته نتيجة الأزمة الماليّة الكبرى في بداية الثلاثينات، فاضطرّ أبوه للعمل كمدير في إحدى صالات بيع الأدوات الكهربائيّة، لكنّه توفّي بعد ذلك بعدّة أشهر تاركًا زوجته وابنه في وضع ماليّ سيّء. فانخرطت زوجته في شركة لبيع البيوت واستطاعت توفير نفقات تعليم ابنها في الأكاديميّة الدينيّة التي تتمتّع بسمعة عالية وباتّباعها مبدأ "المهمّ أن نتواجد لا أن نظهر".

كان سام مثال التلميذ النجيب وفاء لجهود أمّه المستميتة في سبيل توفير نفقات تعليمه، ولم يكن ينفق شيئًا من مصروفه بل يوفّره لشراء أسلحة قديمة كان يفكّكها ويصلحها بكلّ شغف، حتّى أضحت مجموعته من السلاح محطّ أنظار الحاسدين. ولم

يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره عندما نشرت إحدى مجـلاّت السـلاح المتخصّصـة أخبار ذلك الفتى الهاوي لجمع السلاح.

مع بداية الحرب العالميّة الثانيـة دُعـي سـام إلـى الخدمـة الإجباريّـة وكـان قـد بلـغ التاسعة عشرة من عمره، وأرسل إلى "فورت لي" في ولاية فرجينيا ومن ثمّ إلى سـلاح المشاة حيث ظهرت مواهبه في فنّ الأسلحة فجعل رؤساءه يهتمّون به فعُيّن معلّمًا فـي التسليح. ومن هنا اكتشف سام الأرباح العظيمة التي يمكن أن يجنيها مـن جـرّاء شـراء وبيع الفائض من أسلحة الحرب التي انقضت. فوضع فكرته في الحال قيد التنفيذ. وفـي ريتشموند من ولاية فرجينيا كانت إحدى مقابر المعادن تتلقّى، كـلّ أسـبوع، أطنانًـا مـن الأسلحة المجمّعة من ساحات معارك أوروبّا وآسيا، فوجد سام خوذات ألمانيّـة بنصـف دولار للواحدة، فمـلأ سيّارته منهـا واتّجـه إلـى ولايـة ميريلاند وباعهـا إلـى "جـاريت" محافظ المتحف فيها، فقام هذا الأخير ببيع الخوذات إلــى استوديوهات هوليـوود بسـعر مضاعف.

كرّر سام هذا النوع من الصفقـات عدّة مـرّات. وعندمـا انتهـت خدمتـه الإجباريّـة حصل على منحة دراسيّة فـي جامعـة جورج واشنطن التـي تخـرّج منهـا مجـازًا فـي الحقوق، وكان في الوقت نفسه يتابع عمله في بيع الأسلحة العتيقة لزملائــه الطلبـة بعـد أن يكون قد أجرى عليها بعض الترميم والتحسين في مظهرهـا. وكـان يتقـاضى الربـح المناسب.

في العام ١٩٤٨ سافر سام كيمينغ إلى أوروبّا لاستكشافها وحطّ رحاله في فرنسـا، لكنّه لم يتمكّن من شراء الأسلحة فعاد إلى الولايات المتّحدة حيث راسل شركة للأسلحة في لوس أنجلوس، هي شركة الغرب، طالبًا وظيفة بائع. وقبل أن يحصل على الجواب اندلعت الحرب الكوريّة فوظّفته وكالة المخـابرات المركزيّـة لعلمهـا المسبق بمواهبـه،

وأوكلت إليه مهمّة اكتشاف مصدر الأسلحة الكوريّة الشماليّة، فأمضى ثمانية أشهر يدرس صورة الأسلحة المصادرة من العدوّ واكتشف في النهاية أنّ مصدر معظمها من الاتّحاد السوفياتيّ. في هذه الأثناء وصله جواب شركة أسلحة الغرب التي كان قد تقدّم منها بطلب التوظيف، وعرضت عليه مبلغ ٥٠,٦٠٠ دولار سنويًا فضلاً عن عمولة مقدارها ثمانية في المائة من ثمن المبيعات، فحصل على الوظيفة بعد موافقة وكالة المخابرات المركزيّة، وأخذ يجوب العالم شاريًا وبائعًا الأسلحة محقّقًا لشركة الغرب أرباحًا باهظة، لذلك قرّر أن يطير بجناحيه ليحقّق لشخصه تلك الأرباح.

في عام ١٩٥٣ حصل كيمينغ على موافقة وزارة الخزانة الأميركيّة ليتسجّل في مكتب مراقبة التجهيزات والذخائر في وزارة الخارجيّة بصفة تاجر سلاح، وذلك بمساعدة رئيسه في وكالة المخابرات المركزيّة، ثمّ طبع أوراقًا عنونها "الشركة العالميّة للتسليح". وباشر في مراسلة وزارات ورؤساء أركان الدول عارضًا عليهم خدمات شركته، كما اتّصل بالملحقين العسكريّين في السفارات، حتّى وصل، بإيعاز من وكالة المخابرات المركزيّة، إلى الملحق العسكريّ الغواتيماليّ وعقد معه صفقة بيع الأسلحة للرئيس "جاكوب آرنبز". وتحوّل كيمينغ إلى جيران غواتيمالا لتنبيههم إلى الصفقة التي تمّت مع "جاكوب آرنبز".

كانت وكالة المخابرات الأميركيّة تريد إثارة القلاقل في أميركا الوسطى لإلهاء الشعب عن استغلال مقدّراته من قِبَل الاحتكارات الأميركيّة. عند ذلك باع كيمينغ، إلى هندوراس ونيكاراغوا والسلفادور، أسلحة مختلفة جعلت التسليح فيها يصل إلى أعلى الدرجات التي تساعد على إبقاء التوتّر سائدًا بين الجيران، وذلك تحقيقًا للأهداف السياسيّة التي تريد وكالة المخابرات المركزيّة تحقيقها، عبر كيمينغ الذي حقّق هو الآخر أهدافه بالثراء، إذ كان قد جنى المليون الأوّل.

في أيّار ـ مايو ١٩٥٤ صرّح أحد تجّار السلاح إلى مجلّة "لوك" أنّ الرئيس "جاكوب آرنبز" سيتلقّى صفقة سلاح تشيكيّة، فتدخّلت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة لتسليح جماعة "كارلو كاستيللو أرماس" المنفيّ من غواتيمالا من نيكاراغوا مع أعوانه المعادين للشيوعيّة، واستخدمت لهذا الغرض كيمينغ بالطبع. واستطاع "أرماس" بفضل التسلّح أن يقلب نظام الرئيس "آنبز" غير المرضيّ عنه من وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بعدما طبّق الإصلاح الزراعيّ الذي ناهضه المزارعون وناصبته العداء شركة الفواكه المتّحدة، وهي شركة الموز الأميركيّة الشهيرة التي تمتلك آلاف الهكتارات من الأراضي ومعظم أسهم شركة الخطوط الحديديّة.

لم يكن أرماس وحده في مواجهة حكم "آربنز" بل ساعدته وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بتسليحه ودعمته بالطائرات التي كان يقودها طيّارون أميركيّون. وكان السفير الأميركيّ "بوريفوي" أفضل مساهم في إنجاح العمليّة إذ وصل إلى غواتيمالا على متن طائرته الخاصّة برفقة "أرماس". ولتقوية كيمينغ، عميل وكالة المخابرات المركزيّة، صرّح أرماس، الحاكم الجديد، بأنّه سيجمع الأسلحة التشيكيّة من الجيش ويسلّحه بأسلحة أميركيّة الصنع من طراز ٣٠، في الوقت الذي لم تكن الولايات المتّحدة قادرة على تقديم هذه الأسلحة علنًا إلى الرئيس الجديد. هكذا أوعزت الحكومة الأميركيّة إلى شعب غواتيمالا بالتسوّق من السوق الحرّة إذا أرادوا مثل هذه الأسلحة، ولم يكن كيمينغ إلاّ عميلاً هامًّا يمكن أن يتدخّل في هذا المجال.

إشترى كيمينغ ثمانين ألف قطعة سلاح ووضعها في مستودعاته في ولاية فرجينيا، ووجد في بريطانيا الأسلحة الملائمة لشعب غواتيمالا فباعهم بمقدار نصف مليون دولار.

عام ١٩٥٥ قرّر المنفيّون الكوستاريكيّون اجتياح بلادهم لقلب نظام حكم الرئيس "جوزي فيغريس" وراحوا يفتّشون عن الأسلحة، فوجدوا لدى كيمينغ مسدّسات "بيريتّا" الإيطاليّة والمسدّسات الرشّاشة الدانماركيّة من نوع "ماسدن". واستنجدت حكومة "فيغيريس"، وهي العميلة الأولى للولايات المتّحدة في أميركا الوسطى، فهبّت هذه إلى نجدتها وأعلنت بأنّها لن تتدخّل في شؤون الدول الأخرى لكنّها أوعزت إلى كيمينغ بالتوجّه إلى كوستاريكا ليرى ما يمكن فعله، وحمّلت الأسلحة على متن الطائرات المرافقة له. فقام كيمينغ بشراء الأسلحة من مصادر غير حكوميّة واشترى ألف بارودة من طراز M-1 وألف مسدّس رشّاش من نوع "بروتينغ ٣٠" ومليوني خرطوشة. وأقلع، مباشرة، مع سفير كوستاريكا في واشنطن، بعد أن باعه الأسلحة وتقاضى الأرباح اللازمة قبل أن تحطّ الطائرة التي أقلّتهما إلى مطار الجزيرة المقصودة. ويُقال إنّ كيمينغ باع المنفيّين الكوستاريكيّين أسلحة أخرى، وإنّه لو كان منع سلاحه عن حكومة كوستاريكا لكان الانقلابيّون نجحوا في إسقاط حكم الرئيس "فيغيريس".

في يوم، قام الملحق العسكريّ بالاتّصال بسام كيمينغ ودعاه بإلحاح لمقابلة الرئيس "رافائيل ليونيداس تروجيللو موليناس" بأسرع وقت ممكن.

عندما حضر كيمينغ إلى هذا اللقاء طلب منه الرئيس تزويد حرسه الشخصيّ بأسلحة مبهرة للنظر بمظهرها، ليس بفعاليّتها، ومسدّسات رشّاشة من عيار ٥٠، ومطاردات نفّاثة. فلبّى طلبه وزوّده بكلّ ما يريد لا سيّما بطائرات "Vampire Mark 1" فجنى، من جرّاء تلك الصفقة، ملايين الدولارات، وبقي المموّن الوحيد لتروجيللو حتّى عام ١٩٦٠.

في حزيران - يونيو ١٩٥٩، وفيما كان كيمينغ عائدًا من "سان دومينغ" بعد أن باع ٢٥ ألفًا من البواريد اشتراها من مؤسّسة هولنديّة، رأى مطارداته النفّاثة تسحق محاولة

الاستيلاء التي قام بها فيدل كاسترو على ساحل بلاج كوبا، وقامت المطاردات الدومينيكيّة بسحق المحاولة، كما قام الفلاّحون بقتل الجرحى الذين سقطوا في ساحة المعركة بواسطة سكاكين قصب السكّر. والحقيقة التي يعلمها الجميع هي أنّ جماعة كاسترو كانت قد اشترت نفس البواريد من كيمينغ، فاستشاط تروجيللو غضبًا عندما عرف بنوعيّة البواريد المباعة للثوّار الفيدليّين.

لم يكن تجهيز الديكتاتوريّين في أميركا اللاتينيّة بالأسلحة من شركة كيمينغ واسمها "إنترارمكو" إلاّ بداية نجاحات هذه الشركة التي لم تتوانَ عن السيطرة على سوق "السلاح الحرّ" في العالم، مدعومة من وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة.

من ناحية أخرى، تطلّبت الحروب التي اشتدّت في الكونغو ونيجيريا، وحرب العصابات في أنغولا وموزامبيق، الكمّ الهائل من المرتزقة والتسليح المستمرّ، لذلك، واعتبارًا من ١٩٦٠ أصبحت أفريقيا السوداء أرض الميعاد بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة ولعملائها من تجّار السلاح. كما أصبحت الكونغو، بصورة خاصّة، مجمعًا لكلّ نماذج تجارة وتجّار السلاح.

لا شكّ في أنّه كانت هناك معونات حربيّة رسميّة من دولة إلى دولة، ولكن، يمكن التأكيد على أنّ العالم كلّه، الحكومات والتجّار الفرديّون مثل أكرم عجة والأخوين قموع وعدنان خاشقجي وراؤول ماتوسيان وأخيه أندريه وغيرهم من نوع كيمينغ وأمثاله، كانوا قد لعبوا، بشكل مباشر أو غير مباشر، دورًا في تلك المعونات إذ باعوا واشتروا الموادّ الحربيّة لكافّة المتنازعين. كما وُقّعت اتّفاقيّات مختلفة سواء في الغرف الداخليّة من البارات، أو في المكاتب الوزاريّة. كما شوهد موظّفون مرموقون وممثّلون رفيعو المستوى لشركات معروفة، ومحترفو تجارة السلاح، والمغامرون من مختلف الجنسيّات، يجرون المقايضات في هذا المضمار، أو يعقدون الاتّفاقيّات.

في ٦ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٤، كانت الروافع اللبنانيّة تفرغ على الرصيف رقم ١٣ في مرفأ بيروت العنبر الأماميّ للباخرة SN التي ترفع العلم البلغاريّ. وكانت السلطات الجمركيّة اللبنانيّة قد تحقّقت من الشحنة التي كان من المفروض فيها أن تكون مائة وعشرين ألفًا من آلات الخياطة المرسلة، حسب سجلّ السفينة، إلى اللاجئين الفلسطينيّين في السودان. وذلك يعطي الحقّ لكلّ فلسطينيّ بالسودان بمقدار واحد على مائة من آلات الخياطة. ولم يكن ليخطر ببال رجال الجمارك اللبنانيّين حقيقة الشحنة. لكن، وبينما كانوا يغادرون السفينة، وعلى بعد ثلاثة أمتار منها، سقطت من الشبكة التي تقوم بالتحميل ومن على ارتفاع عشرين مترًا، ستّة صناديق انسكبت محتوياتها على أرض الرصيف، فإذا بها عشرات من المسدّسات الرشّاشة. وتبيّن بعدئذ، وجود ستّمائة منها بالإضافة إلى ألف ومائتي بارودة آليّة. ولم يكن داخل السفينة أيّة ماكينة للخياطة. ولمّا سُئل تاجر الترانزيت اللبنانيّ عنها أجاب ببساطة إنّها موجّهة إلى العصاة في الكونغو، التي كان قد مضى على النزاع وعلى الحرب الأهليّة فيها زهاء أربعة أعوام. والحقيقة أنّ السوفيات لم يساعدو "لومومبا" في البداية، لكنّهم استمرّوا بعد ذلك على مساعدة "جونجا" وقبائل "السامبا". والحقيقة أنّ شحنة الباخرة في بيروت كانت تحتوي على أسلحة سوفياتيّة موجّهة إلى قبائل السامبا التي كانت تقاتل العميل "تشومبي" الذي أصبح محطّ أنظار المخابرات الأميركيّة والبلجيكيّة وغيرها من دول حلف الأطلسي، التي حاولت المحافظة على مصالح شركاتها وتروستاتها في تلك المنطقة، فأغدقت المساعدات عليه وأصبحت أكبر مساعدة لهذه القوى في عملها، ونفّذت لها كلّ مخطّطاتها.

الحقّ أنّ الحكومة البلجيكيّة، عندما قدّمت الاستقلال، عام ١٩٦٠، لهذا البلد الذي كانت تنطلق منه رائحة البارود، كانت القوى الشعبيّة قد عبّئت وأخذ البيض يغادرون

أفريقيا. أمّا أولئك الذين اضطرتهم مصالحهم للبقاء فإنّهم التجأوا إلى المقاطعة الوحيدة التي حافظت على هدوئها وهي "كاتنغا". من هناك كان الاتّحاد المنجميّ، وهو القوّة الحقيقيّة في الكونغو، يمتلك ما يكفي من الدولارات ليقيم جيشًا يمكّنه من تثبيت انفصال يؤمّن له استغلال موارد أراضي "كاتنغا". كما أنّ "تشومبي" هو العميل الذي يمكن أن يعطي للعصيان وجهه الأفريقيّ، فضلاً عن أنّه يتمتّع بكافّة أوجه الدعم من جيرانه الاستعماريّين في أنغولا، "المستعمرة البرتغاليّة آنذاك"، وردويسيا العنصريّة وجنوب أفريقيا. كما أنّ هذه الدويلة كانت ستكون الحصن المنيع ضدّ اشتراكيّة "لومومبا" الأفريقيّة. وهكذا دفع الاتّحاد المنجميّ مبلغ اثنَين وخمسين مليون دولار إلى خزانة كاتنغا لتؤمّن النفقات الأولى.

في الأسبوع التالي أصبحت موجودات خزانة كاتنغا مائة وعشرين مليونًا من الدولارات دفعتها أجهزة وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة. وبسرعة وصلت شحنات الأسلحة بالسكّة الحديد التابعة للاتّحاد المنجميّ، ونُقلت القنابل اليدويّة وقنابل المدافع المضادّة للطائرات من عيار ٤٠ ملم، كما وصلت رشيشات "عوزي" الإسرائيليّة التي اشتراها "روي ويلينسكي" الذي أشاع أنّ روديسا لا يمكن أن تقف مكتوفة الأيدي من الصراع في الكونغو. كما نقلت قطارات من خمسين عربة دزينة من طائرات المطاردة المفكّكة قطعًا إلى كاتنغا، وطائرات استطلاع وطائرات B-51 التي تعود للحرب العالميّة الثانية والتي وضعتها حكومة بريتوريا تحت تصرّف تشومبي. هذا بالإضافة إلى اثنتي عشرة طائرة "هرفرد" مجهّزة بمدافع وصواريخ فرنسيّة وصلت في صناديق تحمل شارة الصليب الأحمر.

بناء على نصيحة "هارولد إيكتون" مندوب وكالة المخابرات المركزيّة، حوّل الاتّحاد المنجميّ ورشاته إلى سلسلة من التجميع للعربات المصفّحة، واستطاع أن يجنّد

المرتزقة البيض لأوّل مرّة، وسجّلهم باسم مستشارين فنّيين في سجلاّته، فكان يدفع لهم من حسابه مبلغ خمسمائة دولار أميركيّ شهريًا وذلك عام ١٩٦٠، فضلا عن علاوات القتال والحقّ في الغنائم، والتأمين على الحياة بمبلغ عشرين ألف دولار. وكان راتب المرتزق ذي الخبرة يصل إلى ثلاثة آلاف دولار.

كان هؤلاء المرتزقة خير عون لتشومبي في تجارة السلاح التي تعاطوها بالاستعانة بوكالة المخابرات المركزيّة، وأصبح عددهم ستّمائة خلال فترة قصيرة، فساعدوا تشومبي على تحقيق انفصاله. وعندما انسحبت بلجيكا من الصراع تركت كلّ الأسلحة لعناصر تشومبي، وقامت شركة "إينيرغا" بتسليم الرمّانات اليدويّة، وترك البلجيكيّون أسلحتهم وذخيرتهم ومستودعاتهم من المواد العسكريّة إلى سلطات كاتنغا.

عام ١٩٦١ أصبحت كاتنغا غارقة في الحرب إلى أذنيها، فالدرك والمرتزقة هم أكثر تسلّحًا من رجال هيئة الأمم المتّحدة الذين كانوا يحاولون احتلال كاتنغا. في ذلك الحين عثر تشومبي على معجزته كما سمّاها، وهو "هيوبرت فونلروا جوليان" الذي سمّاه تشومبي سفيرًا فوق العادة عبر البحار، وكانت مهمّته شراء السلاح.

كان جوليان هذا شخصيّة غريبة فعلاً، فلقد حاول عبور الأطلسي بالطائرة قبل "لندبرغ"، واشترى أسلحة لحساب كثير من الحكومات في أميركا الوسطى، وكان أحد المتمتّعين بثقة الأمبراطور هيلاسلاسي قبل أن يصبح أحد طرائده السوداء بعدما خرّب إحدى الطائرات التابعة للطيران الحبشيّ.

حطّ جوليان رحاله في الكونغو في ربيع ١٩٦١ وانطلق مباشرة إلى الولايات المتّحدة حاملاً شكًا بعدّة ملايين من الدولارات وصلاحيات مطلقة بالحصول على كافّة الطلبات التي يريدها. إتّصل جوليان خلال شهر حزيران – يونيو مع "تابكو" وهي مؤسّسة في مينيابوليس، التي يحدّد سجلّها الصناعيّ أنّها تصنع كافّة القطع التبديليّة

للسيّارات. لكنّها كانت في الواقع قادرة على تقديم أيّ قطعة تبديل لأيّ آلة مصنوعة في الولايات المتّحدة الأميركيّة منذ عام ١٩٤٠.

وفي تمّوز - يوليو ١٩٦١ نقلت باخرة تحمل العلم الليبيريّ، إلى لواندا، حمولة من تسعة عشر ألف طنّ من الموادّ المسمّاة "زراعيّة" كانت في الواقع مدافع رشّاشة من عيار ٧,٦٢ ملم و١٢,٧ ملم ومدفعيّة من عيار ٣٠، وسيّارات جيب وسيّارات مصفّحة مجهّزة برشّاشات وقاذفات رمّانات، وقطع تبديل لطائرات تمّ شراؤها من نيويورك من شركة "إكسترا إير كرافت" العائدة لموزيس أكوستا.

عندما وصلت الشحنة إلى لواندا استقبلها جوليان ونقل محتوياتها إلى القطارات التابعة للاتّحاد المنجميّ ثمّ عاد إلى "إليزابيت فيل" ليقوم بمهمّة جديدة.

بعد شهرين، تعرّف إليه بعض الشهود في سويسرا بالرغم من العدسة العينيّة المفردة التي وضعها تحت حاجبه الأيمن واللهجة الأوكسفورديّة التي كان يتحدّث بها، فهناك كان جوليان يفاوض مع شركة "أورليكان" لشراء مدافع مضادّة للطائرات ومدافع رشّاشة من عيار MB-48 وأخرى من نموذج MG-50، بالإضافة إلى البنادق الهجوميّة. وقد رآه شهود آخرون في نهاية العام في السويد يرتدي سترة من الجلد وقميصًا بلا قبّة، وكان يحاول شراء خمس طائرات من نوع "T-28 Trojan" لحساب البرتغال. وقد أرسلت في ما بعد إلى لواندا لكنّها لم تصل أبدًا إلى كاتنغا.

في نيسان - أبريل ١٩٦٢ قبضت القبّعات الزرق على جوليان، ظنًّا منهم أنّه أحد المرتزقة، لكنّهم وجدوا بين أمتعته نماذج من الأسلحة الألمانيّة وبطاقة انتسابه إلى مركز ميونيخ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، فأطلقوا سراحه وعاد إلى الولايات المتّحدة ليظهر من جديد مناورًا في سوق بيافرا (حرب نيجيريا).

كان عام ١٩٦٣ مختلفًا بالنسبة لـ "لويس فوجت"، الذي كان، ظاهريًّا، صانع علب الرسائل في "فادوز" من إمارة "ليشنشتاين"، وفي الخفاء كان تاجر أسلحة. كان ذلك العام هو الوقت المناسب عند نهاية حرب التحرير الجزائريّة حيث نقصت الطلبات على التسليح، فباع الكثير من البنادق...

تلقّى "لويس فوجت" زيارة خفيّة من عقيد برتغاليّ يحمل معه طلبيّة بمقدار أربعين ألف بندقيّة، وذلك لاستعمال الميليشيا التابعة لهم، على أن تسلّم في أنغولا. كان فوجت قد وجد ضالّته في مستودعات الجيش البريطانيّ، وكانت بواريد من نوع "لي انفيلد - رقم ١" كانت قد أعيدت إلى بريطانيا من الهند، فاشتراها من البريطانيّين دون أيّ عقبات، لحساب البرتغال.

تمّ توضيب الأسلحة في صناديق عاديّة تحمل صفة مضخّات مائيّة وقطع جرّارات وبورسلين، ووصلت الأسلحة إلى كاتنغا بدون عراقيل. ثمّ باع فوجت إلى أعداء تشومبي، في حزيران - يونيو من نفس العام، صفقة مؤلّفة من ألف ومائتَي قاذفة لهب بعد تمويهها لتبدو كأنّها آلات تعفير زراعيّة.

كان "فوجت" من الذين يستطيعون استعمال مطار لشبونة ومرفأها لأنّ أجور الشحن ومشكلاته في لشبونة من البساطة المفرطة بحيث يمكنك أن تجد طائرات DC4 مغلّفة مدهونة أو معاد دهنها وبدون هويّة تنتظر باستمرار على مدارج منسيّة من السلطات في نهاية المدارج الرسميّة.

في صباح ممطر من ربيع ١٩٦٢ غسل المطر الطبقة الأخيرة من الدهان الطريّ لإحدى طائرات "دوغلاس"، فسارع إليها كثير من الميكانيكيّين وبعض رجال الشرطة ليكتشفوا، على جناحَي الطائرة ومؤخّرتها اسم شركة طيران الجزائر. إندهش هؤلاء بعدما شاهدوا وصول إحدى الشاحنات الصغيرة تحمل خمسة رجال أتوا لإعادة دهن

الطائرة، وازدادت دهشتهم عندما أمرهم مفتّش سياسيّ في الشرطة بكتمان ما رأوا. فلقد وصلت الإيعازات من المصادر العليا في وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بعدم المباشرة بأيّ نوع من التحقيق.

لم يكن لويس فوجت إلاّ حلقة من سلسلة التجارة الضخمة التي موّنت الكونغو بالسلاح. فلقد كانت هناك حلقات أخرى غير تابعة لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة كانت، آنذاك، قابعة في سويسرا مثل "ماكس زيميريللي" الذي كان مقعدًا يعمل لحساب جبهة التحرير الجزائريّة في ألمانيا، و"إرنست سبرينغر" الشريك السابق لجورج بوشر المسمّى الكابتن موريس لأنّه لم يكن يدخّن إلاّ سجائر فيليب موريس، والذي قُتل في انفجار لغم كان موضوعًا في سيّارته، وكذلك "أوتو شلوتر" في منطة السّار. كلّ هؤلاء كانوا يموّنون، بشكل أو بآخر، إحدى الجهات المتصارعة في الكونغو. أمّا سام كيمينيغ عميل وكالة المخابرات المركزيّة فقد أوصل تجارة السلاح في الكونغو إلى مجدها. لكنّ أحدًا لم يكن يعرف بالتأكيد مصدر الأسلحة التي باعتها شركة كيمينغ إلى تشومبي أو إلى الجهة الأخرى. فلقد تواجدت في مستودعات كيمينغ آلاف من الرشاشات المصلّحة والمجهّزة بكامل لوازمها، وبنادق "موزر" الألمانيّة التي كان يستعملها جيش هتلر، وآلاف من الأسلحة الإيطاليّة الملتقطة من ساحات معارك الحرب العالميّة الثانية، والأسلحة الروسيّة التي باعها له الإسرائيليّون، والأسلحة الأميركيّة اتي كان يستعملها الجيش الأميركيّ... لكنّ كيمينغ، الذي كان يدير هذه الأمبراطوريّة الضخمة، وقع في العديد من المصاعب بسبب تردّد السياسة الأميركيّة في ذلك الحين.

فمنذ شهر كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ باع كيمينغ إلى "تدهولدن" معظم أسهمه (٥٥٪) من شركة "كوجسويل إند هاريسون" وهي المختصّة بالسلاح التشيكيّ المصدّر

إلى أوروبّا بواسطة مكتب الأمنيبول، الذي لم يتوصّل إلى فرض الانتاج التشيكيّ في السوق الغربيّة. وفي شهر شباط ـ فبراير دخل رسول من تشومبي إلى مخزن بيع المفرّق للشركة المذكوره أعلاه، فأحسّ تدهولدن أنّ الزبون من النوع الممتاز فقاده إلى الطابق الثاني حيث تتواجد الكتالوغات العظيمة، وحيث تُعقد الصفقات العالميّة. وخلال ساعتَين تفاوضا على تسليم بنادق أوتوماتيكيّة ورشّاشات حديثة بمبلغ يزيد عن عدّة ملايين من الدولارات.

عندما علم كيمينغ بهذه الصفقة حاول إبطالها بشتّى الوسائل، لاعتقاده بأنّ هذه الصفقة لم تنل موافقة السلطات المختصّة في الولايات المتّحدة لأنّ إدارة كينيدي كانت معاندة لسياسة الاتّحاد المنجميّ المساندة لتشومبي، واستمرّت حتّى الفترة الأولى من حكم جونسون، لكنّها لم تكن أبدًا مع سياسة لومومبا الذي كان يدعمه الاتّحاد السوفياتيّ.

قام "تدهولدن" بتوقيع اتّفاقيات مناسبة مع المعمل الوطنيّ البلجيكيّ الذي قدّم له الأسلحة في الوقت المحدّد بطلبيّة كاتنغا.

لم تنفع هذه الأسلحة تشومبي إذ انتهت مهزلة الانفصال الكاتنغيّة بدخول فصائل الأمم المتّحدة إلى "إليزابيث فيل". لكنّ ذلك لم يضع حدًّا لتجارة السلاح التي مارسها المعسكران الغربيّ والشرقيّ وكان الهدف منها السيطرة، بشكل أو بآخر، على هذا الجزء من العالم. فكلّ حرب تطرد أخرى إذ كان هناك انتفاضة قبليّة في طور التحضير في شمال وشرق الكونغو التي استفادت من الدعم اللوجيستيكيّ لموسكو وبكين اللتَين سعتا دائمًا للوقوف أمام المخطّطات الأميركيّة التي عملت، وما زالت تعمل، للسيطرة على أفريقيا. وقد قام الطيّارون الروس، على متن الطائرات الروسيّة AN-12 التي تحمل العلامات الجزائريّة أو الماليّة أو الغينيّة أو علامات الجمهوريّة

العربيّة المتّحدة، بتسليم الثوّار السامبا عبر السودان كميّات كبيرة من الأسلحة الفرديّة والذخائر. ووصلت بواخر صينيّة إلى تانزانيا حيث أفرغت حمولتها الضخمة من الأسلحة ومن كميات كبيرة من الملابس الرسميّة وكتيّبات الدعاية.

لم تكن هذه الشحنات مجّانيّة، فالاتّحاد السوفياتيّ والصين كانا يعطيان مهلاً كبيرة للتسديد على أن يكون التسديد بالذهب. ولم تكن قبائل السامبا تمتلك الذهب لكنّه كان يوجد معسكر منجميّ في "موتو" شمال شرقيّ الكونغو. فهاجمه السامبا في نهاية ١٩٦٣ واستولوا على طنّين من السبائك الذهبيّة، أي ما يعادل حوالي ٥٠ مليون دولار بأسعار الدولار عام ١٩٨٥، وحملوها على ظهور البشر حتّى معسكرهم في "ألبي" ثمّ إلى جنوب السودان فموسكو.

عام ١٩٦٤ حلّت الفوضى وانتشرت عمليّات السلب والقتل في كلّ مكان. أن تمتلك سلاحًا لم يكن ذلك وسيلة للدفاع عن النفس فقط، بل كان واسطة للحصول على الغنى وتوكيد السلطة التي، وإن بدت وقتيّة لكنّها كانت قاسية في نفس الوقت. هكذا تمّت دعوة "مويس تشومبي" مجدّدًا من منفاه في مدريد.

في انعزاله القاطع عن السلطة استغلّ تشومبي تعطّله الاجباريّ وثروته الضخمة الموضوعة في المصارف السويسريّة والإسبانيّة كي يحضّر عودته إلى كاتنغا، سواء كانت هذه العودة شرعيّة أم لا. وكان قد أرسل إلى العواصم الأوروبيّة كلّ معاونيه ليجنّدوا له المرتزقة الذين كانوا يتسكّعون في بارات إسبانيا منتظرين العودة إلى أفريقيا، وكان عددهم يُقدّر بحوالي خمسمائة شخص. واتّصل تشومبي بمصادره الخاصّة لتموينه بالسلاح ووضع خطّة محكمة لاستيراد الأسلحة الحديثة عبر أنغولا وغينيا الإسبانيّة. وعند عودته الرسميّة إلى السلطة، في تمّوز ـ يوليو، أصبحت عمليّات التسلّح علنيّة بعد أن كانت سريّة ودون مراقبة الأمم المتّحدة لأنّ آخر جنود

القبّعات الزرق كانوا قد غادروا الكونغو في الشهر السابق أي حزيران ـ يونيو، وقد تركوا كميّات كبيرة من الأسلحة والمؤن الموضوعة في المستودعات. ورغم العلنيّة التي انكشفت فيها تجارة السلاح، فإنّ تجّار السلاح السريّين لم يتوقّفوا عن التعامل المستور مع السوق الكونغوليّة، لأنّ أوامر وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بقيت على ما هي عليه، وهي إضعاف نفوذ الاتّحاد المنجميّ قدر المستطاع وإلاّ فلن يكون للتروستات الأميركيّين أثر في المنطقة الكونغوليّة بعد أن جرى سحق اليسار في الكونغو.

وهكذا، وبينما كان رجال الجمارك في جنوه يراقبون تحميل باخرة هولنديّة اندهشوا من الصعوبات البالغة في تحميل الناقلات الصغيرة التي تنقل البضائع من المستودعات إلى الباخرة الراسية على الرصيف، ولم تكن البضاعة إلاّ صناديق كُتب عليها "لوز". لذلك اقتربوا من هذه الصناديق التي كانت موضوعة في المستودعات المرفئيّة الإيطاليّة، وأمروا بفتحها فاتّضح لهم أنّها تحوي هواوين من عيار ٦٠ ورشّاشات "بوثيت" من عيار ٣٠ و٥٠.

لم يكن في وسع السلطات الإيطاليّة متابعة مصدر هذه الأسلحة عبر العاملين في الترانزيت أو الدوائر الرسميّة أو الوسطاء ليتعرّفوا على أصحاب العلاقة المباشرة في التجارة، لكن يبدو أنّ سام كيمينغ كان وراء هذه العمليّة، ومن ورائه وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة.

لم يكن الاتّحاد السوفياتيّ أو الصين بخاملَين في هذا المجال، فلقد شهد عام ١٩٦٤ مزايدة عظيمة بين العملاقَين الاشتراكيَّين، وكانت النقطة المشتركة لمساعدتهما التي استمرّت بالتوسّع، هي القضاء على حكومة تشومبي. أمّا الهدف المتبقّي الآخر فلم يكن هنالك أيّ اتّفاق على إرسال الأسلحة الفوضويّة. فلقد كانت موسكو ترسل السلاح بدون

ذخيرة وتقوم بكين بإرسال الذخيرة بدون سلاح. لكن لحسن الحظّ، كانت الأسلحة والذخيرة من نفس العيار.

لا يمكن تقدير حجم الأسلحة التي أُرسلت إلى قبائل السامبا، لكنّها كانت في الواقع شديدة الغزارة. فلقد أضحى لكلّ مقاتل سلاحَين فرديَّين، وسلاح آليّ لكلّ ثلاثة أو أربعة مقاتلين، ولربّما كان ذلك ناشئًا عن عدم التقدير الصحيح لعدد المقاتلين.

***

بقي الاتّحاد السوفياتيّ وفيًّا لتقاليده في توريد السلاح بشكل سريّ عن طريق الجوّ وبواسطة حلفائه عبر مصر والسودان. أمّا الصين فقد كانت تفضّل التدخّل بشكل سافر حيث كانت سفاراتها تعجّ بالدبلوماسيّين. فلقد كان هنالك دبلوماسيّ صينيّ لكلّ ٣,٨٠٠ مواطن في برازافيل (كنشاسا). وكان هؤلاء يؤمّنون الاتّصال بين مرافئ التفريغ وأماكن وجود الثوّار. ولم تكن زنجبار إلاّ إحدى المحطّات الأكثر أمانًا وسهولة. وأضحى الصينيّون الأسياد، بحيث أنّ الرئيس "تيريري" قال لأحد المراسلين مرّة عندما طلب منه السماح بزيارة تلك المنطقة: "حتّى إن كنت رئيسًا لهذه البلاد فإنّني أطلب منك أن تعلمني عن الأخبار فيها أوّلاً بأوّل، فأنا لا أستطيع أن أذهب إليها بنفسي". وكانت البواخر الصينيّة تفرغ السلاح والمعدّات لكلّ الثوّار الأفريقيّين خاصّة منهم الكونغوليّين خلال عام ١٩٦٤، ومن هناك كانت هذه تنتقل بالبواخر والشاحنات وعلى ظهور البشر، وكانت صناديق AK-47 وكذلك B-40 تصل إلى محاربي السامبا التابعين للجنرال "أولنغا" وإلى رئيس وزرائه "غاستون سوميالو". ولقد فضّل الروس "ش. غبينيي Gbenyé" لأنّه كان مسيسًا وأكثر خضوعًا، وكان يدفع نقدًا وبالذهب، وكذلك بسبب سهولة الاتّصال به إذ كان يعيش معظم وقته في الخرطوم، بينما كان الجنرال أولنغا وغاستون سوميالو يعيشان في الكونغو، ويهدّدان نظام تشومبي بشكل

مباشر. أمّا في بوجمبورا (بورندي) فقد فتح الصينيّون معسكرًا للتدريب في تمّوز – يوليو ودرّبوا مسؤولين وعلّموا أنصارًا لهم بنفس اللهجات المحليّة، إذ إنّ مؤسّسة الدراسات الأفريقيّة في نانكين بالصين تعلّم الدبلوماسيّين "الصينيّين كلّ اللهجات القبليّة وكلاً حسب منطقة عمله". كما فتحت سفارة الصين في برازافيل مركزًا ثقافيًا تعليميًا لأنصار "بيرمكو ليلي" الذي كان يدير جبهة أخرى في الكونغو حيث كان المحارب يصل إليها شبه عار وجائعًا وأميًّا. أمّا عندما كان يغادر هذا المركز فإنّه كان يلبس زيًّا رسميًّا وقادرًا على تعليم الديالكتيك الماركسيّ في القرى. ولقد تقدّم السامبا، في تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٦٤، وأصبح تسليحهم كافيًا بحيث اضطرّت بلجيكا لأن تقرّر التدخّل بحجّة إنقاذ البيض المتبقّين في ستانليفل والمحجوزين من قبل أنصار "غاستون سوميالو"، فتعاون المظليّون مع مرتزقة تشومبي المتبوعين بالجيش الوطنيّ الكونغوليّ فقاموا باحتلال الأرض وسلبوا المناطق المختلفة حتّى وصلوا إلى مقرّ سوميالو الذي استنجد بموسكو وبكّين، فوصلت طائرات وبواخر تحمل السلاح والذخيرة.

في جميع الأحوال وخلال عام ١٩٦٥ كانت الأمور قد هدأت في الكونغو وحدث اتّفاق على مناطق النفوذ بين العملاقَين العالميّين على تخطيط معيّن لم تظهر آثاره إلاّ في السبعينات إذ تخلّى الجميع عن السامبا، فلاحقتهم قوّات الجيش الكونغوليّ واستولت على أسلحتهم بعد أن تركوها مغادرين إلى الشرق وإلى الشمال من الكونغو.

أوقف الاتّحاد السوفياتيّ فجأة كلّ تموينه لسببَين: أوّلاً، لم يبقَ لدى السامبا أيّ ذهب ليوفوا به ديونهم، ولم يكن لديهم الفرصة للحصول على ذهب جديد؛ ثانيًا، كان الجيش النظاميّ مسلّحًا بالأسلحة السوفياتيّة، وقد طلب الكرملين من الدول التي يموّنها بالسلاح، كالجزائر والجمهوريّة العربيّة المتّحدة، أن تتوقّف عن إمدادات السلاح. وغضب السودان أيضًا بسبب ما فعله رجال السامبا الفارّون حيث كانوا يتركون

بنادقهم أو يبيعون مؤنهم وذخيرتهم ورشاشاتهم إلى العصاة من "الإنيانيا" التي كانت تقاتل سلطات الخرطوم. وهكذا كان للتاريخ دورته المعهودة، يوم لك ويوم عليك... كما حدثت عمليّات تصفية بين المسؤولين من الثوّار، وادّعى "جبينيي" بأنّ بضعة آلاف من الجنيهات الاسترلينيّة سُرقت منه عندما كان في السينما، لكنّ "أولنغا" لم يصدّق ذلك فنشب خلاف بينهما كاد أن يؤدّي إلى موت الجنرال أولنغا، إذ أصابته ضربة ساطور قطعت جمجمته وخدّه.

واظبت بكين على مساعدتها للجيوب التي كان يحتفظ بها رجال السامبا. أمّا الدول المجاورة للكونغو فكانت تتردّد في إقفال حدودها أمام عمليّات التهريب خاصّة بعد أن فقدت حركة السامبا تألّقها واشتدّ ضغط وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة على هذه الدول لمنع عمليّات التهريب هذه. وهكذا رأينا، في ٤ أيّار ـ مايو، بالقرب من بحيرة فكتوريا رجلَين من شرطة كينيا يحاولان مراقبة مرور قافلة من أربعين شاحنة كان رئيسهما قد أوكل إليهما ذلك، فما كان من سائق شاحنة الطليعة إلاّ أن حطّم الحاجز الخشبيّ الذي وضعه الشرطيّان ومرّت القافلة كلّها في زحمة من الغبار وتحت أعين الشرطيَّين اللذَين لم يتجرّآ على استعمال السلاح، لكنّ مساعدات بالطائرة أُرسلت إلى المركز الحدوديّ وأوقفت الشاحنات الأربعين. غير أنّ السائقين تبخّروا كلّهم في الدغل تاركين الغنيمة الثمينة التي بلغت أكثر من ألف رشّاش، جُهّزت بها فرقة كينيّة، ومئات الأطنان من الذخائر والمتفجّرات وأجهزة الراديو المرسلة والمستقبلة.

ولم يصدر أيّ احتجاج رسميّ من السلطات الصينيّة لكنّها كانت آخر الشحنات إلى الكونغو. وهكذا اختتمت ثورة السامبا نهائيًّا عام ١٩٦٦ وحُكم عليها بالإعدام بالفعل، ولم يُسمع عنها أيّ شيء بعد ذلك.

عام ١٩٦٧ عاد تشومبي مشكورًا إلى أوروبّا متنزّهًا بين مدريد وباريس ولندن وجنيف مفتّشًا عن الوسائل التي تتيح لـه العودة وممارسة نشاطه، فاستطاع أن يجنّد بعض المرتزقة ويرسلهم إلى لواندا. وباعه "تدهولدن" بعض الأسلحة إذ إنّه لم يحصل على موافقة رؤسائه في وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة. كما أنّ تشومبي لـم يعد يتصرّف بملايين شركة الاتّحاد المنجميّ ولا بمعونات الدول الأفريقيّة المجاورة له والموالية لتصرّفاته إذ لم يبق أحد ليؤمن بعودته. وأصبح الجنرال "موبوتو" يمتلك السلطة ويتمنّى التخلّص من المرتزقة المائتين التابعين للبلجيكيّ "جاك شرام" وللفرنسيّ "بوب دونار" والذي كان وجودهما يعارض السياسة الخارجيّة للبلد ويضرّ بالعلاقات الحسنة مع رؤساء الدول الأفريقيّة. وكان الرجلان يعرفان مقدار العنت الذي سيلاقيانه، لذلك قرّرا أن يعلنا العصيان ويهاجما مركز الجيش الوطنيّ في "مانييما" و"ستانليفيل" وأن يهدفا، في الوقت نفسه، إلى الاستيلاء على الأسلحة والمعدّات والذخيرة ليشتدّ ساعد حركتهما ويتوصّلا إلى إنجاحها.

لقد كان تشومبي على علم بما يجري فحاول أن ينظّم جبهة ثانية في الجنوب الكونغوليّ حتّى يضغط على جيش موبوتو من خاصرتَيه، لكنّه كان بحاجة إلى المؤن والسلاح والرجال بعد أن توقّف برتغاليّو أنغولا عن دعمه وأعلنوا له أنّهم سيكونون للمرّة الأخيرة مكان انطلاقه إلى الكونغو، لكنّهم رفضوا مدّه بالسلاح والرجال ورفعوا عنه كلّ تغطية يمكن أن تؤدّي إلى نجاحه في المستقبل.

في التاسع من آب ـ أغسطس، بينما كان "بوب دونار" الجريح، منذ بداية المعارك، يحاول الوصول إلى روديسيا ومن ثمّ إلى لواندا، كان "جاك شرام" والباقون من وحداته، وعددهم نحو مائة وعشرين شخصًا، يحتلّون مدينة "بوكافو" عند حدود رواندا، ولم يكن السلاح ينقصهم لكنّ الذخيرة كانت المشكلة لذا كان لا بدّ من الاقتصاد

بالفشك وقذائف الهاون، وقد لحّم الضبّاط زنادات الأسلحة حتّى لا تستعمل إلاّ دراكًا، أمّا أشرطة الرشّاشات فقد اقتصرت على متريَن أو ثلاثة أمتار، وأصبحت القنابل اليدويّة نادرة في أيدي الرجال. وكان شرام ينتظر تموينه عن طريق الجوّ كما وعده تشومبي، فضلاً عن طائرة لتنقله إلى الجنوب والشرق من الكونغو ليضمّ إلى مؤيّديه عناصر من شرطة كاتنغا المحلولة التي كان يعلم وحده مكان وجودها.

كان أوّل جهاز يهبط في "بوكافو" هو طائرة صغيرة يقودها بلجيكيّ يُدعى "براكو" وهو مشهور بجنونه البهلوانيّ. لكنّ براكو هذا لم يحضر معه ذخائر بل وثائق وخرائط سريّة تحدّد أمكنة المستودعات الكاتنغيّة والمطارات البسيطة التي أُنشئت حتّى تسمح بالاستفادة من هذه المستودعات. ولسوء حظّ شرام رفض براكو أن يحطّ بطائرته على شارع بوكافو وحاول أن يحطّ على بحيرة "كيفو"، حيث رأى المرتزقة ثلاثة رجال يخرجون من الطائرة وهي تغطس في الطين بحيث لم يعد استعمالها ممكنًا ومعها كلّ الوثائق التي لم يصفح شرام أبدًا لبراكو عن سبب فقدانها.

أمّا الطائرة الثانية التي وصلت إلى بوكافو وهي من طراز DC-3 الثقيلة محمّلة بثلاثة أطنان من الذخيرة، وكانت قد أقلعت من مطار "جوما"، يقودها طيّاران بلجيكيّان أحدهما يُدعى "ليبرت" والثاني "جان". ولم يكن ليبيرت قد قاد سابقًا إلاّ طائرات مطاردة، بينما لم يقد جان إلاّ طائرات استطلاعيّة.

تمكّن الطيّاران من الوصول إلى بوكافو حيث كان ملعب الغولف فيها قد رُمّم ليصبح مطارًا. وعندما اقتربا من شبه المطار هذا حاول ليبير إخراج الدواليب بشكل طبيعيّ لكنّ جان لم يثبّتها بشكل جيّد فحطّت الطائرة على الملعب وانزلقت على العشب فانضغطت الدواليب واصطدمت الأجنحة بالأرض وحفرت الطائرة خندقًا في التراب وتحطمت المراوح وانفتحت الجعب مهدّدة بالانفجار في أيّ لحظة. وانتهت رحلة هذه

الطائرة بانسحاقها على الدكّة رقم ١٨، وخرج الطيّاران سالمَين وكذلك الذخيرة بينما أصبحت الطائرة غير صالحة للاستعمال وبقيت قابعة في مكانها.

أمّا تشومبي فقبضت عليه السلطات الجزائريّة في ٣ تمّوز - يوليو بعد أن سلّمه لها "فرانيس بودنان" الذي كان يقود طائرة رئيس الوزراء الكونغوليّ. وهكذا فقد المرتزقة مموّلهم ورمزهم المثاليّ الذي كان يجسّد عدالة حربهم، فلم يبقَ إلاّ أن يفوزوا بجلودهم. وكانت روديسيا محور توجّهات نداءات الاستغاثة فحاولت أن تقوم بتموين بوكافو وانطلقت طائرة مغفلة DC-4 من سالسبوري مشحونة بقنابل الهاون وأشرطة الرشّاشات الثقيلة بوزن يزيد على أربعة أطنان ونصف، مصحوبة بصمت من الراديو، وتساءلت أبراج المراقبة عن هذه الطائرة فانطلقت المدافع باتّجاهها لكنّ ارتفاعها حال دون إصابتها. وأرسل جاك شرام الإشارات المناسبة وفقست مظلاّت في سماء الكونغو ووصل ربع هذه الإمدادات إلى البحيرة التي ابتلعتها، ووصل ربع آخر إلى ما بعد نهر "رزيزي" في رواندا، واستطاع أعداء شرام أن يتلقّفوا ربعًا آخر عبر التلال، ولم يصل إلاّ حوالي طنّ من قذائف الهاون وذلك لم يكن بالشيء الكثير. وعادت الطائرة مصحوبة برشقات المدفعيّة المضادّة الكونغوليّة فكانت آخر شحنة من المساعدات.

لم تعد المساعدات من الأسلحة تصل إلاّ عن طريق بحيرة كيفو، واشترى بعض المهجّرين البلجيك في رواندا، من المرتزقة، الغنائم التي تركوها في بوكافو عندما هربوا وكانت لوحات وفضيّات وأثاث إلخ... لم يكن رجال جاك شرام يريدون مالاً إذ كانوا يملكون الآلاف من "الزائير" وهي العملة التي سلبوها من المصارف والقنصليّات، بل كانوا يريدون لحمًا طريًّا وذخائر. وهكذا انطلقت قوارب من كافّة الأنواع والأشكال على جهتَي ضفّة البحيرة ممّا سمح للمرتزقة وللكتانغيّين بأن يقاوموا، حتّى ليل ٤ - ٥ من شهر تشرين الثاني - نوفمبر، حيث أدّت المفاوضات إلى أن يسلّم

كلّ مرتزق أبيض سلاحًا آليًا أو جماعيًا وأن يسلّم كلّ كتانغيّ سلاحَين فرديَّين. وهكذا، وفي ليلة واحدة، أصبح الجيش الرواندي مجهّزًا بالأسلحة التي كانت قد باعتها وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة أو أعوانها، وانتقلت، هكذا، ملكيّة خمسة آلاف قطعة سلاح آليّ إلى الجهة الأخرى.

لكن في مدينة "سيانجوجو"، ومنذ السابع من تشرين الثاني ـ نوفمبر، وفي إحدى الفيلاّت العائدة إلى رئيس مصرف بلجيكيّ، كانت تجري مفاوضات لشراء الأسلحة من رواندا إلى شركة "إنترارم" التي يملكها سام كيمينغ، وذلك بواسطة رئيس شرطة رواندا. أمّا الجهة الأخرى المفاوضة فكانت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة حيث كان عميل العقيد "أوجوكفو" حاكم مقاطعة بيافرا وكذلك عميل أميركيّ آخر يُدعى E. Simone يعمل لحساب الإمام البدر المطرود من عرشه في اليمن يفاوض لشراء هذه الأسلحة.

وقعت حرب اليمن بين حروب متعدّدة في مختلف مناطق العالم الثالث. فكانت بين حروب الجزائر والكونغو وإسرائيل وبيافرا. ومعلوم أنّ هذه الحرب كانت إحدى الحروب التي دامت فترة طويلة من الزمن واستمرّت على شكل مناوشات بين الشمال والجنوب اليمنيّ، وهي، وإن دامت اثنَي عشر عامًا، بشكل فعليّ، وسبّبت سقوط آلاف من الضحايا، وتدخّلت القوى العظمى سواء منها الولايات المتّحدة أو الاتّحاد السوفياتيّ أو بريطانيا أو فرنسا في هذه الحرب الأهليّة بشكل مباشر أو غير مباشر. وخلال عقد من الزمن ساعد كلّ من مصر والمملكة العربيّة السعوديّة أحد المعسكرَين ضدّ المعسكر الآخر، وكذلك أرسل العقيد معمّر القذّافي، في أوائل عام ١٩٧٤، إلى اليمن الشماليّ ستّ عشرة مطاردة نفّاثة وخمس طائرات تدريب و٣٣ دبّابة هجوميّة.

إنفجرت مملكة سبأ في ٢٩ أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٢ عندما أُزيح الإمام البدر، وهو الرئيس الدينيّ والزمنيّ للمملكة، وأُعلنت الجمهوريّة، وبدأت الحرب بحمّام من الدم والفظائع في صنعاء.

خلف هذه المذبحة، التي لم تكن الأولى التي ذاقها شعب صنعاء لسوء الحظّ، كانت هناك قوى مختلفة. والحقيقة أنّه، منذ شهر نيسان ـ أبريل ١٩٥٦، كانت المملكة العربيّة السعوديّة ومصر واليمن مرتبطة بمعاهدة للتعاون المشترك عند حدوث اعتداء. ومنذ إعلان الانقلاب في اليمن أعلن الرئيس جمال عبد الناصر اعترافه بالعقيد عبداللّه السلال ووضع كافّة الإمكانيّات تحت تصرّف النظام الجديد. وفي ١٩ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٢ استنجد السلال بالرئيس عبد الناصر لمقاومة اعتداءات الملك سعود والملك حسين الأردنيّ. وأرسلت القوّات المصريّة إلى صنعاء ومعها الأسلحة الروسيّة المباعة إلى مصر لتُستعمل في اليمن، والتجأت القوّات اليمنيّة الملكيّة إلى الجبال حيث تولّت القيام بهجمات دامية. في هذه الأثناء كانت واشنطن تراقب، بعين محمرّة، اضطرام النزاع الذي رأت فيه تدخّلاً من جانب الرئيس عبد الناصر ومن اعتبرتهم وراءه من السوفيات. فقرّر الأميركيّون التدخّل وباشروا مباحثات سريّة بين الأطراف المتنازعة انتهت بوعود بسحب القوّات المصريّة إذا اعترفت أميركا بجمهوريّة اليمن.

لم يكن قد جفّ بعد مداد الاتّفاقيّات عندما تدخّلت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة لشراء ضمائر كبار المسؤولين اليمنيّين ليضعوا مسمار جحا في عمليّات استكمال إنشاء الجمهوريّة اليمنيّة. لذلك قرّر الرئيس عبد الناصر الضغط على الأميركيّين وجماعتهم بالقوّة، فقصفت الطائرات المصريّة القواعد الملكيّة في جنوب اليمن وأضرمت البحريّة المصريّة النيران في المؤسّسات المرفئيّة في جيزان من المملكة العربيّة السعوديّة. واشتدّت حدّة التوتّر في الشرق الأوسط بحيث أنّها وصلت

إلى حالة الحرب الشاملة، لكن مع ذلك وخلافًا لكلّ التوقّعات، لم تتعدّ الحرب الحدود اليمنيّة. وقد بلغ عدد الجنود المصريّين خمسًا وخمسين ألفًا شاركوا في العمليّات الحربيّة مع القوّات اليمنيّة، وساهمت الصين الحمراء، بشكل سريّ جدًّا، في التسليح، وكذلك تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتيّ. وقدّم الروس، عن طريق مصر، المعدّات الثقيلة وطيّاري المقاتلات والقاذفات. ويُقال إنّ الجمهوريّين حصلوا، عن طريق البلغار، على قنبلة غازيّة صنعها الألمان خلال الحرب العالميّة الثانية، وأنّ هذه القنبلة تشلّ الأعصاب. هكذا كانت الدعاية في أوروبّا وأميركا عن الحرب اليمنيّة، وذلك لتبرير تدخّل وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة.

أوعزت المصادر العليا إلى الإمام البدر بأن يجنّد المرتزقة، وكانت الأحوال الدوليّة مناسبة إذ كانت قد انقضت أعمالهم بعد انتهاء حرب كاتنغا وهم لا ينتظرون إلاّ الدعوة للالتحاق بمعسكر جديد. وكان جاك لوبايي مراسل مجلّة "باري ماتش" الفرنسيّة ذو الصلات الحسنة مع أوساط هؤلاء المرتزقة، هو الذي فضح الملكيّين عندما بدأوا بعمليّات التجنيد وبأسعار مجزية على أن يتوجّهوا بوسائلهم الخاصّة. ويبدو أنّ زميله الذي يعمل لحساب جريدة "فيغارو" هو الذي أكمل الفضيحة عن عمليّة التجنيد ومصادر التمويل الأميركيّة.

بما أنّ جاك لوبايي كان ابن سفير فلم يكن بإمكانه القيام بهذه المهمّة فجنّد مَن يقوم مقامه وكان صديقًا له فجمع رهطًا من المتطوّعين كانوا من نخبة المجتمع، وقد خدم معظمهم كمظليّين في حرب شمال أفريقيا. كان هذا الصديق الذي يُدعى "ألين رخت" قد خدم في سلاح الطيران الأميركيّ، وكان يعيش في شقّة تقع في الدائرة السادسة عشر من باريس جعلها مقرّ قيادة المرتزقة، وكان يدرس كلّ يوم خرائط أركان الحرب ومخطّطات المعارك التي سيشنّها على الثوّار الشيوعيّين في اليمن. ولقد

اهتمّت السلطات الفرنسيّة بهذا الشخص فطردته وحلّ مكانه "بوب دونار" الذي رأيناه في حرب كاتنغا، وقد استطاع هذا مع بعض من زملائه من القادة من أمثال "فرانسوا هنزلين" و"طوني دو سان بول" أن يكونوا على رأس مجموعة من المتطوّعين حازت على رضا العائلات المالكة في الممالك المتجاورة الثلاث، السعوديّة واليمن والأردن.

كتب "لوبايي" في كتابه "مجموعة من المرتزقة": "لم يتبقَّ لدينا إلاّ موضوع السلاح وكيفيّة الحصول عليه داخل اليمن. ولم تكن السلطات الفرنسيّة تعارض في إرسال الأسلحة على أن يكون ذلك فرنسيًّا أو بواسطة فرنسيّين. وقد حدّثني .M.B كيف أنّه غداة كلّ عمليّة إرسال أسلحة، كان يجري الحديث في النادي العسكريّ في شارع "سان أوغستان" عنه وبشكل علنيّ. وهكذا انطلقت أربع طائرات حمولة كلّ منها سبعة أطنان، لتحطّ بين أيدي القوّات الملكيّة ولتغيّر سير المعارك. وعندما وصلت هذه الشحنات إلى اليمن سمحت للمحاربين بأن يناموا بعين قريرة ومعهم الهواوين من عيار ٢ بوصة وأربع بوصات، ورشّاشات بونيث من عيار ٣٠ و٥٠، كانوا قد تعلّموا استعمالها بسرعة، ومدافع ٧٥ غير المرتدّة والبازوكا. كلّ هذا غيّر من مسار الحرب بشكل قاطع على الأقلّ من الناحية النفسيّة". وأضاف لوبايي قولاً لم يكذّبه أحد: "لم أتوصّل إلى جلب جماعة القائد دونار إلى الجهة المناوئة لناصر فقط، بل أدّيت خدمات جلّى في مجال التسليح. ولا شكّ في أنّني تلقّيت مساعدات مختلفة أميركيّة خاصّة، فضلاً عن مساعدات من الأوساط البتروليّة التي كان يقلقها وجود المصريّين على مقربة من منبع النفط، وكذلك من بعض الأوساط الماليّة اليهوديّة التي تموّن ٤٣٪ من ميزانيّة إسرائيل، وكانت معي سخيّة إلى أبعد حدود السخاء".

في الحقيقة لا بدّ من إضافة أنّ معظم أسلحة الملكيّين كانت تأتي من المملكة العربيّة السعوديّة كالأسلحة الخفيفة والرشّاشات الثقيلة والبازوكا، كما كان السعوديّون

يدفعون، كلّ شهر ، مبالغ ضخمة بالدنانير الذهبيّة كرواتب للمرتزقة ولتمويل وشراء ولاء القبائل التي كانت موالية للجمهوريّين. وقد ساعد الجهاز السريّ الخاصّ في إنشاء مركز تدريب في لندن كان له الأثر العظيم في إعداد المرتزقة وتدريبهم، ما ساهم في تقوية ساعد الملكيّين.

وممّا كتبه "طوني دو سان بول" إلى لوبايي: "إنّني لن أتوسّع بشرح نشاطاتي لك فهي متعدّدة وكثيرة، والحياة التي أعيشها هي حياة تعب وشديدة القسوة، ولقد قمت بأعمال الحرب على طريقتي الخاصّة، لكنّها تنفجر من كلّ الجهات. فهنا زرعت الألغام والمصائد الكيميائيّة، وهناك نفّذت الاغتيالات. ولا شكّ في أنّكم تتحدّثون عن اليمن في أوروبّا، لكن لدينا هنا ما يكفي لتسويد صفحات من مجلّة "كانار" الباريسيّة، إنّ المصريّين قد وضعوا ثمنًا لرأسي لكنّهم لم يتوصّلوا إليّ".

بعد ذلك بأيّام مات هذا المرتزق نتيجة رصاصة استقرّت في جمجمته. وفضلاً عنه كانت هناك مجموعة من القادة المرتزقة الألمان والبريطانيّين مثل "مايك هوار" و"روجر فولك" الذين كانوا يدرّبون القوّات الملكيّة في الرياض والمعسكرات الموجودة في المملكة العربيّة السعوديّة. واستمرّت حلقة المرتزقة والخبراء من كافّة الجنسيّات في الدوران مدّة خمسة أعوام حتّى عام ١٩٦٨ عندما اتُّفق على تقسيم اليمن إلى يمنَين. وانتهت الحرب الأهليّة رسميًّا لكنّها استمرّت تتغذّى ممَّن له مصلحة في ذلك، واستمر الدم يسيل لمصلحة معسكرَين، كلّ منهما يريد تحجيم دور المعسكر الآخر.

***

وسط دويّ انفجارات الهاون حطّت طائرة ذات أربعة محرّكات تحمل شارة الصليب الأحمر في مطار بسيط وسط الغابة، وانطفأ كاشف النور في اللحظة التي توقّف فيها المحرك. ودون أن يترك الطيّار مقعده خفّض معدّل

دوران المحرّكات بحيث أصبح صوتها أقلّ من دويّ انفجارات القنابل والطلقات الناتجة عن المدافع الرشّاشة الغزيرة المتواجدة في كلّ مكان. وما أن انفرج الباب وامتدّ رأس من فتحته حتّى انطلقت من الغابة عشرات من الرؤوس السوداء الصغيرة مرتدية اللباس المرقّط، وبوشر بإنزال أكثر من خمسين صندوق من الخشب في خلال ستّ دقائق. وقفز خمسة أشخاص إلى الطائرة التي اندفعت محرّكاتها بأقصى سرعة مغادرة المطار باتّجاه "ساو تومي" وهي جزيرة صغيرة في عرض البحر على ساحل الغابون.

كان ذلك في بداية عام ١٩٦٩ حيث كانت إحدى آخر الطائرات التي تركت بيافرا في النزاع الأخير وعلى متنها بعض من آخر المرتزقة الفرنسيّين الذي حلّوا مكان صناديق الأسلحة. وهكذا انتهت عمليّة شعب "الأيبو" الي كان يحكم نفسه بنفسه بعد أن أُعطيت نيجيريا استقلالها من المستعمر البريطانيّ.

كان كلّ شيء قد بدأ عام ١٩٦٦ قبل أن يعدّ الكولونيل "أرجوكو"، الحاكم العسكريّ لشرق نيجيريا، دولته ويمارس السلطة العليا فيها. منذ ذلك الحين أصبح معلومًا أنّ بيافرا المحشورة في الاتّحاد الفدراليّ النيجريّ قد قرّرت التسلّح. والحقيقة أنّ أوّل مَن بدأ في التسلّح كان موظّفًا قديمًا في المخابرات الفرنسيّة العليا يسمّى "بول فافييه" الذي كان يمتلك كميّات كبيرة من الأسلحة الفرديّة الباقية من الحرب العالميّة الثانية، والموضوعة في هولّندا. وبدأت عمليّات التسلّح الفعليّة بعد تلقّيه اتّصالاً من عملاء نيجيريّين مقيمين في جنيف حصل بموجبه بين الطرفَين اتّفاق على الصفقة. كان كلّ شيء يسير بشكل جيّد إلى أن رفضت السلطات الهولنديّة منح فافييه رخصة الشحن المباشرة إلى نيجيريا. فلم يقتنع فافييه بالهزيمة وقام بزيارة إلى بريطانيا واتّصل بالرائد "روبرت تورب" التابع لـ إنتور" الذي كان يجهل ما إذا كان فافييه يريد

إرسال الشحنة إلى بيافرا أو إعطاءها لشارٍ معيّن. وهكذا، في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٦ انطلقت طائرة DC-4 بقيادة الكابتن "هنري وارتون" وهو مغامر من أصل أميركيّ كان عميلاً سابقًا لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة في تركيا ١٩٥٩ ـ ١٩٦٣ بين موظّفي سفارة بلاده... حطّت طائرته في مطار روتردام لتنقل الأسلحة التي شرح الطيّار للمسؤولين الهولنديّين أنّها ستُنقل إلى برمنغهام في بريطانيا. وبما أنّ أوراقه كانت سليمة وقانونيّة لم يستطع الهولّنديّون منع أخذ الشحنة، وانطلقت الطائرة مع حمولتها. وكان هذا طيرانًا غريبًا اتّخذ ضجّة عظيمة في ما بعد وانتهى بكارثة. وكأنّ ذلك كان نذير شؤم لبيافرا وما كان سيجري فيها. وأكملت بيافرا استعداداتها طيلة نهاية ذلك العام منفقةً في هذا السبيل أكثر من عدّة مليارات من الجنيهات الاسترلينيّة بأثمان باهظة حيث كانت سوق العرض والطلب هي التي سيطرت على موضوع هذا الشراء.

في أيّار ـ مايو ١٩٦٧ عندما شعر "أوجوكو" باقتراب نهايته أعلن استقلال مقاطعته ورفضت الحكومة الفدراليّة أن تعترف لمنطقة الشرق بحقّ الانفصال وأعلنت أنّه "في حالة العصيان".

في ٦ تمّوز ـ يوليو ١٩٦٧ شنّت الحكومة الفدراليّة حملة من رجال الشرطة لتوقف أوجوكو عن تصرّفاته الحمقاء. وكان الجميع يعتقدون بأنّ هذه الحملة لن تدوم إلاّ بضعة أسابيع أو بضعة أشهر على الأكثر، وذلك بسبب سوء تقدير حالة شعب "الأيبو" ورئيسه Chukwu Emeka Odumegua Ojukwu الذي لم يكن أكثر عمرًا من رئيس الحكومة الفدراليّة الجديد المولود في الشمال من أبوَين من الأيبو. أمّا أبوه الذي بدأ كتاجر بسيط فقد مات عام ١٩٦٦ وهو أحد الأغنياء النيجيريّين المعروفين. وهكذا استطاع الفتى "إيميكا" أن يكفل دراسته في المعاهد البريطانيّة في أبسوم وأوكسفورد

ويتخرّج مجازًا في التاريخ، وقرّر أن يدخل الجيش، عام ١٩٥٧. وخلال سبع سنوات كانت ترقيته سريعة فوصل إلى رتبة مقدّم ليوتنانت كولونيل بعد أن خدم في قوّات الأمم المتّحدة في الكونغو. وليتمّ تعويضه عن خدماته بدعم الشرعيّة خلال انقلاب كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٦ عيّنه الكولونيل "إيرونيسي" حاكمًا لشرق نيجيريا، فوجد أوجوكو نفسه في مكان عمله عندما انطلق للانفصال في بيافرا، فاندفع في النضال مباشرة.

عند بداية الحرب كان جيش بيافرا بحدود خمسة وعشرين ألف رجل منظّمين بشكل اعتباطيّ على شكل نواة من ألفَي جنديّ حقيقيّ من ضبّاط وجنود نيجيريا الشرقيّة، وكانوا قد تلقّوا القليل من التدريب بشكل سريّ في معسكرات مرتجلة. وإذ كان تجهيز هذا الجيش سيّئًا فقد اعتمد، ليبدأ نشاطه، على الوصول السريّ للأسلحة من تشيكوسلوفاكيا، التي باعت الأسلحة أيضًا إلى الفدراليّين. ولم يكن هذا الجيش يملك أيّ مدفعيّة أو أسلحة مضادّة للدبّابات لكنّ أفراده كانوا يتمتّعون بمعنويّات عالية. وكان لدى الجيش البيافري قاذفتَين أميركيّتَين B-26 اشتراهما بسريّة تامّة من فرنسا، وبعض الحوامات الفرنسيّة التي اشتُريت لأغراض مدنيّة من قِبَل شركة طيران متمركزة في نيجيريا الشرقيّة.

بدأت الحملة بتقدّم عناصر من الجيش الفدراليّ بلغ تعدادها نحو ثمانية كتائب آتية من الشمال. واتّخذ البيافريّون مواقعهم على طريق الفدراليّين قبل أسابيع من وصولهم، وكانت مقاومتهم شديدة فعلاً وغير متوقّعة، واحتلّوا جزءًا كبيرًا من مقاطعة "أوجوجا" بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة.

وفي ٩ آب ١٩٦٧، وبعمليّة خاطفة، احتلّ البيافريّون مقاطعة مركز الغرب، وخلال بضعة أيّام تقدّموا نحو خمسين كلم في قلب نيجيريا الغربيّة.

غيّر هذا الهجوم جذريًّا مواصفات الحرب البيافريّة إذ توضّحت الإمكانيّات العسكريّة للبيافريّين وأصبحت لاغوس العاصمة مهدّدة بشكل خطر. وأعلن الجنرال "جوون" قائد الجيش الفدراليّ قائلاً: "من الآن فصاعدًا سنشنّ حربًا كاملة".

من جهته كان أوجوكو يفكّر بنفس الطريقة، وكان المال متوفّرًا لديه إذ إنّه، قبل الانفصال في أيّار - مايو ١٩٦٧، كان أوجوكو قد حصل على مبلغ ضخم عندما حوّل إلى الخارج دون موافقة السلطات المركزيّة في لاغوس، مبلغ ستّة ملايين جنيه استرلينيّ، ووضع يده على الحسابات الأجنبيّة، وباع بالمزاد الجنيهات النيجيريّة، كما استطاع أن يخرج إلى خارج الحدود النيجيريّة باخرة مليئة بزيت النخيل ويبيع هذه المادّة المرغوبة في روتردام مقابل مبلغ ضخم من العملات الصعبة.

في ذلك الحين كان قد انقضى على حرب النكسة أشهر قلائل وكان هدير الشعب العربيّ قد بلغ السماء خاصّة على الساحة العالميّة. ولتتمكّن الولايات المتّحدة من التقليل من هذه الضجّة حول هذه القضيّة ابتكرت موضوع بيافرا لتجذب اهتمام الدول الأفريقيّة حولها فيتأكّدوا من قدرتها على أن تفعل ما تريد عندما تواجهها أمور لا تحبّذها. فدعمت الانفصاليّين خلال المرحلة الأولى عند اشتعال الحرب خاصّة، واستمرّت بدعمهم معنويًّا وماديًّا على حساب السلطات الفدراليّة، لكن عندما شعرت بالدعم العالميّ الذي يتمتّع به الفدراليّون، وذلك بسبب التعصّب الدينيّ الذي قد يكون لعب دورًا في هذا المضمار إذ إنّ شعب الأيبو مسيحيّ في معظمه، وكانت الإرساليّات البروتستانتيّة قد حبّذت الانفصال وجنّدت في سبيله كلّ قواها، ومن وراء ذلك اشتدّ ساعد الحركة الصهيونيّة، خاصّة بعد تصريح الجنرال أوجوكو المساند للغزو الإسرائيليّ للأراضي العربيّة. تدخّلت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة وأوعزت للجنرال أوجوكو بأن ينفق ما حصل عليه من أموال وبسرعة كبيرة لأنّ الحكومة

المركزيّة قرّرت إلغاء النقد المتداول في مدّة لا تتعدّى أشهرًا معدودة، إذ إنّها أوصت على نقد جديد في بريطانيا والهند. ويبدو أنّ عملاء وكالة المخابرات المركزيّة في الهند هم الذين أوصلوا الخبر إلى المسؤولين الأميركيّين. وهكذا أسرع أوجوكو إلى إنفاق المال ولم يكن يخفي على تجّار السلاح أمرًا كهذا. ومنذ صيف ١٩٦٧ تجمّعت الضباع حول الجيفة واندفعت أسعار السلاح في ارتفاع جنونيّ وكانت السكّين قد وصلت إلى رقبة الحاكم البيافريّ فاضطرّ إلى شراء السلاح بثمن باهظ.

كان "جاك فوكار" المسؤول عن المسائل الأفريقيّة قد استقبل في مكتبه الأنيق أحد الرجال الذين غامروا بين الكونغو واليمن، وكان رائدًا من كتيبة المظليّين الأجانب التي استقال منها عام ١٩٦٠، ذاك الرجل هو روجر فولكس الذي تعوّد على القيام بدور المرتزق دون أن يتوقّف عن خدمة الحكومة الفرنسيّة. كانت المقابلة في ذلك المكتب قصيرة ومختصرة. وفي خلال خمسة عشر يومًا استطاع فولكس بمعاونة مساعده القديم في كتيبة المظليّين الأجانب "رالف ستيز" أن يجمع أكثر من ثمانين من المرتزقة الفرنسيّين الذين قاتلوا في الكونغو وغيرها بصفة مرتزقة في جهاز الدرك الكاتنغي التابع لمويس تشومبي. فلقد كانوا يعرفون الدغول الأفريقيّة وما يمتّ لها بصلة. وبفضل هذه المعونة التي ظهرت آثارها بشكل مسرحيّ، استطاع رجال "فولكس وستيز" أن يقوموا بعمليّات انتحاريّة خلف خطوط العدوّ الفدراليّ في نيجيريا.

بعد شهرين من القتال ذهب المرتزقة للاستراحة في لشبونة وكانت الطائرات، التي تحطّ على المدارج المفتوحة في وسط الغابة، تابعة للصليب الأحمر أو لجماعة فرسان مالطة، وبحجّة توصيل المؤن والأدوية، كانت هذه الطائرات تفرغ حمولتها من السلاح وتعود إلى لشبونة عن طريق ساوتومي، حاملة معها أربعة أو خمسة من المرتزقة. ولا شكّ في أنّ لشبونة هي التي قدّمت أكبر المساعدات لبيافرا خلال تلك

الفترة، ومن ورائها الولايات المتّحدة. ولقد سمحت حكومة الديكتاتور "سالازار" لبعثة بيافريّة لشراء الأسلحة بأن تقيم في العاصمة البرتغاليّة، واستطاعت خلال أشهر أن تؤمّن وصول طلبيّات من السلاح من مختلف أنحاء العالم على ألاّ تكون أميركيّة بقدر الإمكان حتّى تغطّي الولايات المتّحدة نفسها من التدخّل في هذه القضيّة. وكان يُرى الجنرال أوجوكو، وقد اكتسى وجهه بلحيته، على رأس وفد يتّجه من مكان إلى آخر داخل سيّارة ليموزين وإلى جانبه مساعده "جان مكاوي" أحد الذين ساهموا في الحرب ضدّ الجزائريّين، والذي اعتنق النصرانيّة بعد الاستقلال الجزائريّ، وكان عرّابه "جان باتيست بياجيه" وعرّابته أرملة الكولونيل "باستيان تيري". وكانوا، في تنقّلاتهم، مصحوبين بعناصر من الشرطة الدوليّة للدفاع الخارجيّ. وتحوّلت صالة الفندق الذي يقيمون فيه إلى قاعة اجتماعات يتدافع فيها كلّ مغامري أوروبّا من كلّ الأنواع فضلاً عن الصحافيّين الذين كانوا يودّون السفر إلى بيافرا التي أصبحت محطّ أنظار العالم كلّه. ومن هذا الفندق تشكّل الأسطول الجويّ البيافريّ.

عندما قدّم النقيب "هاري وارتون" نفسه إلى أوجوكو بعد وصوله من لندن لم يكن مظهره يستدعي إلاّ الريبة. لكنّ أوجوكو كان يجنّد أيًّا كان، وكان بحاجة إلى طيّارين لقيادة الطائرات الستّة عشر التي اشتراها من شركة الخطوط الجويّة الفرنسيّة ومن شركة الطيران البرتغاليّة، فطلب "وارتون" وزملاؤه اثنين وعشرين ألف دولار عن كلّ طلعة. ووصل كثير من الصحافيّين عن هذا الطريق إلى بيافرا.

خلال هذه الفترة لم تكتفِ فرنسا بإرسال المرتزقة من أبنائها غير المرغوب بهم، بل تجاوزت ذلك إلى البحث عن فائدة سياسيّة يمكن أن تحظى بها من هذه الحرب الأهليّة. فقام الجنرال ديغول مدفوعًا ومهتمًّا بالثروات المنجميّة لبيافرا فقدّم لها كميّات كبيرة من العملة الصعبة حتّى يسهل عليها شراء الأسلحة والتجهيزات. وكانت هذه من

المرّات القليلة التي التقت فيها سياسة الزعيم الفرنسيّ مع سياسة الولايات المتّحدة، وكأنّه بذلك كان ينتقم من بريطانيا التي أراد أن يحاربها في عقر دارها، وفي منافستها على الثروات البيافريّة.

في بداية عام ١٩٦٨، كانت الحرب على أشدّها بين النيجيريّين والبيافريّين، وظهرت بوادر عن رغبة الدول العظمى في التدخّل. وكانت بريطانيا تريد الاستمرار في الحفاظ على مكتسباتها في نيجيريا، وأميركا تريد طرد بريطانيا منها، وروسيا تريد أن تجد لها موطئ قدم في أفريقيا الغربيّة. وهكذا تجهّزت القوّات الجويّة بالطيران الروسيّ، وتجهّز الجيش البريّ بالسلاح الإنكليزيّ.

تحوّل الهجوم المعاكس للفدراليّين إلى نصر. فبعد "أنوجو" عاصمة بيافرا، كان دور "كالابار" الميناء النهريّ الثاني الذي سقط في أيدي جنود لاغوس. وفي أيّار - مايو ١٩٦٨ سقط مرفأ "هركورت" في أيدي الفدراليّين وحوصرت بيافرا بشكل كامل. لكنّ فرنسا لم تقلّل من حجم مساعداتها مدعومة من الولايات المتّحدة. ويحدّثنا "جاك فوكار" بواسطة أحد رجاله "هاري بيزيت" الذي كان المستشار السياسيّ للرئيس الغابونيّ "ليون امبا" أنّ هذا الأخير حثّ أربعة حكومات أفريقيّة على الاعتراف بدولة بيافرا، وكانت تانزانيا في ١٣ نيسان - أبريل ١٩٦٨، ثمّ الغابون في ٨ أيّار - مايو ١٩٦٨، وساحل العاج في ١٤ أيّار - مايو ١٩٦٨، وزامبيا في ٢٠ أيّار - مايو ١٩٦٨. وهذا ما قوّى ساعد المتشدّدين البيافريّين الذي رفضوا فكرة المفاوضة منذ ذلك الحين. وهكذا غضبت الحكومة المركزيّة وشدّدت ضغطها على بيافرا التي سقطت مدنها الواحدة تلو الأخرى، ما زاد من حدّة المساعدات الأميركيّة والفرنسيّة. وهكذا تحوّلت الغابون وساحل العاج إلى نقاط ترانزيت تمرّ عبرها المؤن والذخيرة إلى بيافرا بواسطة رجال "فولكس وفوكار". وبما أنّ هنالك اتّفاقيّة بالتعاون العسكريّ والفنيّ بين

فرنسا وهذين البلدَين، لم يعترض أحد على وصول الطائرات الفرنسيّة، التي كانت تحمل كميّات ضخمة من الذخيرة والسلاح، إلى مطار "ليبرفيل" في الغابون، وإلى مطار "أبيدجان" في ساحل العاج. ولكنّ، ممّا أدهش المراقبين حينذاك، هو أنّ الصناديق لم تكن تغادر مستودعات المطارَين المقفرَين، إلاّ في بعض الليالي حيث كان موظّفون فرنسيّون يحملون الصناديق على متن طائرات أخرى كانت تغادر متّجهة إلى الغرب نحو المحيط، وعندما كانت تغيب عن الأنظار كانت تعود إلى مدارج الدغل البيافريّ.

رفعت هذه المساعدات من معنويّات البيافريّين وأفشلت عدّة هجومات فدراليّة، وأرجأت نهاية الحرب حتّى عام ١٩٧٠، وأضافت بذلك عدّة آلاف من القتلى من شعب طالما عانى القتل.

ماذا كانت نتيجة ذلك كلّه؟

خرجت السياستان البريطانيّة والفرنسيّة من غرب أفريقيا مدحورتَين، وكذلك كلّ الدول الأخرى التي تدخّلت، بشكل أو بآخر، مع أحد الجانبَين أو كليهما في بعض الأحيان. وتفرّدت الولايات المتّحدة بالقدرة على تهديد نيجيريا باستمرار مبيّنة لحكّامها إمكانيّة أجهزة الولايات المتّحدة بما فيها استخباراتها ورؤوس أموالها، بأن تقوم بفعل ما تشاء دون أن تستطيع أيّ قوّة أخرى مجابهتها[1].

---

١ ـ رصاص، الاستخبارات الأميركيّة، ص٢١٨ ـ ٢٥٤.

في عهد غورباتشيف

في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨٤، أصبح واضحًا لغورديفسكي ولمقرّ لندن أنّ الـ K.G.B يدفع غورباتشيف لخلافة تشيرنينكو المحتضر آنذاك.

قبل أن يذهب غورباتشيف إلى بريطانيا على رأس وفد من مجلس السوفيات الأعلى في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٤، بهذه المناسبة التقى غورباتشيف لأول مرة مارغريت تاتشر ـ، أمطر "مركز" الـ KGB في موسكو مقرّ لندن بطلبات تقارير من أجله. وبطريقة غير اعتيادية، طُلبت معلومات إضافية بعد إرسال التقارير. كان واضحًا أنّ بعض الأسئلة طرحها غورباتشيف نفسه على أعضاء الـ K.G.B الذين "اختصروها". ما هو الحلّ الممكن لإضراب عمال المناجم الذي بدأ منذ ثمانية أشهر؟ ممّ يعتاش هؤلاء العمال؟ من يموّل الإضراب؟ كم يقبضون في الأسبوع؟ وهل يكفي ذلك لمعيشتهم؟..

خلال الزيارة نفسها، بقي "المركز" نشيطًا وأصرّ على أن يُعلم غورديفسكي غورباتشيف يوميًا... كانت الرحلة نجاحًا مؤكدًا: إذا قررت السيدة تاتشر أنّها تستطيع "القيام بعمل" مع غورباتشيف، فذلك يعني بوضوح أنّه هو أيضًا استنتج أنّه يستطيع القيام بعمل معها. هكذا ماتت العملية RYAN.

رغم ذلك، بقي المركز يخشى أن تحاول الولايات المتحدة والناتو التفوّق استراتيجيًّا على الاتحاد السوفياتي. وفي شباط ـ فبراير ١٩٨٥، تلقى مقرّ لندن ملفًا عنوانه "سياسة تسليح الفضاء الأميركية"، وهو الأول من نوعه الذي يصله حول

هذاالموضوع. استعرضت رسالة مرافقة له من المسؤول عن المديرية الثالثة، نيقولاي بيتروفيتش غريبين، البرامج الفضائية لواشنطن كدليل إضافيّ على "جهد الإدارة الأميركية المستمرّ من أجل الوصول إلى التفوّق العسكريّ على الاتحاد السوفياتي". أراد الأميركيون تجهيز المركبة "بسلاح يسمح بتعطيل نظام الإرسال في الأقمار الصناعية السوفياتية أو باستعمال هذه المركبة كقاذفة قنابل". اعتُبرت "حرب النجوم" (IDS) أيضًا كتهديد مبطّن أكثر خطورة منه عند إعلانه للمرة الأولى منذ عامين.

في نيسان إبريل ١٩٨٥، أعلن الكولونيل أ. إ. ساجين المسؤول عن فرع الملحقين العسكريين في سفارة لندن أثناء مؤتمر لدبلوماسيين وضباط في الاستخبارات، أن موسكو تعتقد أنّه عاجلاً أم آجلاً سوف تصبح أجهزة "حرب النجوم" قادرة على اعتراض ٩٠ ٪ من الصواريخ الستراتيجية السوفياتية. ورأى أنّ الاحتمال ضعيف في إمكانية توصُّل الأبحاث السوفياتية بخصوص "حرب النجوم" إلى موازاة أبحاث الولايات المتحدة.

كان تَلَف اقتصاد الاتحاد السوفياتي أساس مشاكله المتزايدة من أجل الاستمرار في منافسة الغرب. وبما أنّ الـ PDG هي المنظمة التي تعلم أكثر من غيرها عن الغرب، فقد أدركت أكثر من أيّ فرع آخر من البيروقراطية التقدّم الاقتصادي المتزايد للغرب الذي بات يرى الاتحاد السوفياتي أكثر فأكثر "كفولتا العليا تحمل صواريخاً"... لا كقوة عظمى حقيقية. وحلّ محلّ جنون العظمة المتعلق بالخطط الغربية من أجل ضربة نووية أولى جنون عظمة آخر يتعلق بمؤامرة تهدف إلى استغلال نقاط ضعف الاقتصاد السوفياتي. وتشاءم "المركز" بشكل خاصّ من ملف من الـ CIA يعدّد الأولويات فيما يختصّ بجَمْع المعلومات الاقتصادية عن الاتحاد السوفياتي: من بين هذه الأولويات، حاجات الاتحاد السوفياتي من الحبوب ومنتوجات زراعية أخرى للاستيراد، احتياطاته

من العملة الصعبة، حاجاته من الاعتمادات الخارجية بالإضافة إلى استيراد وإجـراءات توجيه المأكولات.

في بداية ١٩٨٥، أرسل المركز إخطارًا طارئًا إلى المركز في الغرب حول خطـر "العمليـات التخريبيـة" الهادفـة إلـى "تكبيـد خسـائر اقتصاديـة كبيرة" للكتلـة السـوفياتية: "باستغلالها بعضًا من مشاكلنا في قطاع الإنتاج الزراعي، تحاول الولايـات المتحـدة أن تتبع استراتيجية تهدف إلى جَعْل الاتحـاد السوفياتي خاضعًـا لاستيرادات الحبـوب مـن أجل استخدام السلاح الغذائي في المستقبل للضغط على البلاد".

في حين اعتقد الغرب أنّ الاتحاد السوفياتي يحصل على الحبوب وعلـى مـأكولات أخرى بسعر جيّد، توهّم المركز أنّ الأسعار باهظة. وذكر قول رئيس مؤسسة تجاريـة للحبوب: "من السهل العمل مع الروس. إنّهم لا يساومون ويدفعون ثمن الطـن ٨ دولار أكثر من سـعرهالحقيقيّ". أمـر الـ PDG "بتحريـك فعّـال" للمُخـبرين داخـل المؤسسـات التجارية لاكتشاف ما إذا كان أحد ممثلي الاتحاد السوفياتي قد اشـتُري لتوقيـع اتفاقيـات غاياتها سيئة. وطرح أيضًا "المشكلة غير المحلولة"، مشكلة التلف أثناء نَقْل المنتوجـات الغذائية المستوردة، ممّا يسبّب "خسـائر ماليـة ضخمـة": "لا يمكننـا أن نسـتبعد اسـتخدام المصالح الخاصة "للاستعلامات" العدوة مؤسسات شحن الحبوب من أجل إفساد الحبوب التي يستوردها الاتحاد السوفياتي حتى مرافئ المسافنة".

لم يكـن الـ K.G.B يـرى حـلاً للمشـاكل الاقتصاديـة أو نهايـة للمحـاولات الغربيـة لاستغلالها إلاّ بتغيير في رئاسة البلاد. بسبب عجزه عن الإدراك أنّ المشكلة تكمن فـي النظام نفسه، انتظر من غورباتشيف أن يبعث الحيويـة والنظـام الضروريين مـن أجـل التغلّب علىالجمود الاقتصادي وإقامة "توازن قوى" ثابت مع الغرب. في الأشـهر التـي سبقت مـوت تشيرنينكو المُنتظـر منـذ وقت طويـل، فـي آذار ـ مـارس ١٩٨٥، اهتـم

الـ K.G.B كثيرًا بتقويم غورباتشيف وكيفية تأثيره على باقي البوليتبورو بمعرفة للشؤون السوفياتية كما للشؤون العالمية، وهدفت علاقاته بمجموع البوليتبورو عمدًا إلى دعم حجج غورباتشيف. وإذ لم ينتج انتخاب هذا الأخير سكرتيرًا عامًا للحزب، في آذار - مارس ١٩٨٥، - لا بشكل كامل أو حتى أساسيّ - عن دعم الـ K.G.B، فإنَّ هذا الأخير اعتبر هذا الانتخاب مع ذلك انتصارًا كبيرًا.

بقي المجلس الإداريّ السادس عشر مرتبطًا بالمديرية السادسة عشرة في الـ PDG من أجل الحصول على وثائق مرموزة من عملاء أجانب. وأكّد ضابط المديرية السادسة عشرة في مقرّ لندن لغورديفسكي عام ١٩٨٥ أنّه لا يوجد مصدر بريطاني يعطي وثائق مرموزة على مستوى عال. رغم ذلك، كانت النجاحات كثيرة في بلدان أخرى أعضاء في الـ OTAN وفي العالم الثالث حيث بقي العديد من الاتصالات كتابًا كبيرًا مفتوحًا بالنسبة للمحلّلين في المديرية السادسة عشرة. عام ١٩٨٤، أعلَمَ "المركز" مقرّ لندن أن مستخدمًا مُرَمِّزًا في وزارة الشؤون الخارجية في بلد من الناتو، يعمل للـ K.G.B منذ ١٠ سنوات سوف يُعيّن قريبًا في سفارة لندن، لكنّه مات فجأة قبل أن يستلم منصبه.

أثبتت قابليّة السفارة الأميركية في موسكو للاختراق الدائم مرة أخرى عام ١٩٨٦ حين أوصل اثنان من المارينز إلى السفارة عملاء من الـ K.G.B. عام ١٩٨٧، حُكم على أحد هؤلاء الحرس وهو الرقيب كلايتون ج. لونتيري الذي أغوته مستخدمة في الـK.G.B هي فيوليتا سينا، بالسجن ٣٠ عامًا، لكنّ جهاز الأمن المتكامل أكثر فأكثر عمل بشكل جعل لونتري يسبّب بوجه الاحتمال أضرارًا أقلّ من باقي أعضاء المِلاك المغويين منذ جيل. وبات يبدو أقلّ احتمالاً توصُّل الـ K.G.B إلى قاعة الرموز أو وَضْعه ميكروفونات في مناطق أخرى حساسة في السفارة.

تحققت أهم عملية فيما يختص بالاعتراض ـ التوضيح ضد الولايات المتحدة في بداية الثمانينيات.

عَرضَ رونالد ويليام بيلتون الذي عمل لوكالة الأمن الوطنية في الولايات المتحدة من ١٩٦٤ حتى ١٩٧٩ خدماته على المقرّ الرئيسيّ للـ K.G.B في واشنطن في كانون الثاني ١٩٨٠. خلال حوالي ٦ سنوات، أعطى معلومات مفصّلة بشكل ملفات حول نتائج وكالة الأمن الوطنية في الولايات المتحدة وحول الإجراءات الأمنية في السبعينات التي، رغم أنها لم تكن جديدة، فقد اعتبرتها المديرية السادسة عشرة ذات أهمية عالية. وكتب ملفًا من ٦٠ صفحة مسمّاة "ملف الإشارات الثابتة" يحدّد فيه أيًا من الاتصالات السوفياتية تعطيها وكالة الأمن الوطنية في الولايات المتحدة الأولوية بين الأولويات وكيف تحلّلها وبأيّ نتائج. وعرّض بيلتون أيضًا للخطر خمسة أجهزة جَمْع استعلامات للاعتراض ـ التوضيح من بينها عملية "Jvy Bells" المتعلقة بخط كابل سوفياتي تحت الماء في بحر أوخوتسك. وبدا المنشقّ المزدوج عن الـ K.G.B فيتالي إيورتشينكو الذي اكتشف بيلتون عام ١٩٨٥ وكأنّه لا يعرف بأيّ تسلّل أحدث للـ K.G.B في وكالة الأمن الوطنية في الولايات المتحدة[1].

حين أصبح غورباتشيف سكرتيرًا عامًا، كان الـ K.G.B يشكّل أمبراطورية ضخمة مكرّسة للأمن والاستخبارات ومؤلفة من حوالي ٤٠٠ ألف ضابط داخل الاتحاد السوفياتي ومن ٢٠٠ ألف حارس حدود ومن شبكة واسعة من المخبرين. بالرغم من أهمية المواد المُعطاة بواسطة الإصغاء والاعتراض، لم يُمنح المجلس الإداري السادس

١ـ Woodward Robert, *Veil: The Secret Wars of the CIA 1981-1987*, Simon and Schuster (New york,1987), ch. 23, 24.

عشر وضعية "المجلس الإداري العام". بقي الفرع الأكثر نفوذًا في الـ K.G.B فرع الاستعلامات الخارجية، الـ PDG الذي، رغم أنه خضع لقوانين الـ K.G.B الداخلية، فقد عرف انتشارًا واسعًا للغاية في العشرين سنة الأخيرة. عام ١٩٨٥، خُصّص له مبنى جديد من ١١ طبقة في "إيازينيفو" دون اعتبار ملحق من ٢٢ طبقة في مجلس القيادة الذي بناه المهندس المعماريّ الفنلندي. ازداد عدد الـ PDG من ٣٠٠٠ شخص في وسط الستينات إلى ١٢ ألف في وسط الثمانينات. اتّسعت أيضًا دائرة عملياته؛ تقدّم اليابان ودول المحيط الهادئ سريعًا على جدول أهدافه الأكثر أهمية.

اشتهر ألكسندر ألكسندروفيتش شابوشنيكوف الذي أصبح سفيرًا مقيمًا في طوكيو عام ١٩٨٥، كعميل على نطاق واسع. دُمِّرت جزئيًا شبكة عملاء الـ K.G.B في اليابان التي ضمّت في السبعينات بعض رجال السياسة المهمّين، وذلك بعد ارتداد ضابط من مقرّ طوكيو هو ستانيسلاس ليفتشينكو. في عهد شابوشينكوف، بدا من جديد وكأنه على طريق النموّ. في "برنامج عمل" الـ PDG لفترة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٥، أصبح للمحيط الهادئ للمرة الأولى أهمية كبيرة حتى لم تزل اليابان وراء الولايات المتحدة، الصين، الهند، ألمانيا الفدرالية، بريطانيا وفرنسا. لم تُمنح أوستراليا الكثير من الاهتمام حتى وسط الثمانينات إذ لم يكن يهتمّ بها إلاّ ٣ ضباط من المديرية الثالثة في المركز (كان عليهم أيضًا تغطية إيرلندا ومالطة).

سُئل رئيس المديرية الثالثة، نيقولاي غريبين، في اجتماع للجنة الحزب في الـ PDG في خريف ١٩٨٤ شهده معظم الضباط الكبار، لماذا أعطى مِلاكه القليل من المعلومات حول الصين من أوستراليا، وذلك بسبب أهمية تجمّع المهاجرين الصينيين الذين يعيشون فيها... أجاب غريبين بسؤاله محدّثه إذا ما كان يعلم حجم مقرّ الـ K.G.B في أوستراليا، فأجاب هذا الأخير ـ كما كلّ الضباط الحاضرين ـ بلا.

فأعلَمهم غريبين أنّه يوجد ٧ ضباط فقط في وضع قانونيّ وفقط بعض "اللاشرعيين". وتَمَّ الاتفاق على دَعْم وجود الـ K.G.B...

إزداد نشاط الـ K.G.B في أوستراليا أيضًا بعد اقتراع حكومة دافيد لانج العمّالية في زيلاندا الجديدة على برنامج معادٍ للنووية عام ١٩٨٤، حتى ذلك الحين، كان وجود الـ K.G.B في زيلاندا الجديدة ضعيفًا لدرجة أنّ السفير المقيم نيقولاي ألكسندروفيتش شاتسكيخ، في نهاية عام ١٩٧٩، كان يستعدّ للرحيل وكان ضابط آخر قد طُرد حديثًا، فتلقّى السفير ف. ن. سوفينسكي الأمر بإعطاء الأموال سرًّا للحزب الاشتراكي الموحّد وهي مهمة يقوم بها الـ K.G.B عادة. قُبض عليه وأُعلن أنّه شخص غير مرغوب فيه. ابتهج الـ K.G.B عند انتخاب لانج وأعلن إلى مقرّ لندن أنّه يعلّق "أهمية كبيرة" على تنظيم دعم أوروبيّ لقرار رئيس الوزراء الجديد بإقصاء البواخر الأميركية المجهزة بأسلحة نووية عن المرافئ النيوزيلندية ولسياسته المعادية للنووية بشكل عامّ.

باستثناء نموّ متواضع لتمثيله في الهادئ وفي بعض القنصليات الجديدة الأخرى، لم يعرف الـ K.G.B، في عهد غورباتشيف، أيّ انتشار في الخارج. توقّع افتتاح مراكز في إسرائيل، في كوريا الجنوبية، في تشيلي أو في أفريقيا الجنوبية بعد إقامة أو إصلاح العلاقات مع هذه البلدان. بشكل عامّ، لم يسمح سقوط أسعار النفط واشتداد الأزمة الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي بامتلاك عملات صعبة كان بحاجة إليها لاستمرار نموّه.

منذ استلامه السلطة في آذار - مارس ١٩٨٥، رأى ميخائيل غورباتشيف أولويتين للعمليات الخارجية للـ K.G.B. كان مقتنعًا في البدء أنّ سياسة فعّالة تستوجب مصلحة استعلامات حيوية. فسلسلة المبادرات التي لا سابق لها والتي قام بها في الخارج جعلت

من الضروري بمكان الحصول على معلومات كاملة قدر الإمكان عن طريقة تلقّيها في الغرب. وازدادت دون شك المتطلّبات من الخطّ PR وهي متطلّبات كانت واضحة قبل أن يهرب غورديفسكي في صيف ١٩٨٥.

في بداية التسعينات، ظهرت الأولوية الرئيسية للـ PDG بوضوح في اختيار ليونيد فلاديميروفيتش شيبارشين لخلافة كريوتشكوف في أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٨.

مثل بانيوشكين، رئيس الـ PDG من ١٩٣٥ حتى ١٩٥٦، بدأ شيبارشين حياته المهنية كدبلوماسيّ فقط في الباكستان من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٢ ومن ١٩٦٦ حتى ١٩٦٨. هناك بدأ بالتعاون مع مقرّ الـ K.G.B. بعد إقامته للمرة الثانية في إسلام آباد، انتقل إلى الـ K.G.B وبدأ العمل في إيازينيفو بعد إعداده في معهد أندروبوف. عُيّن عام ١٩٧١ في الهند حيث أدار الخطّ PR قبل أن يصبح سفيرًا رئيسيًا في نيودلهي من ١٩٧٥ حتى ١٩٧٧. أصبح سفيرًا مقيمًا في طهران بعد سقوط الشاه عام ١٩٧٩، وطُرد منها عام ١٩٨٣، حين ترك غورديفسكي الـ PDG، كان شيبارشين يعمل منذ عام كمعاون رئيس في المجلس الإداريّ RI الذي يحضّر تقارير الـ PDG للإدارة السوفياتية العليا.

أن يتقدّم هذا الدبلوماسيّ السابق على عدة مرشحين آخرين أكثر خبرة منه لخلافة كريوتشكوف عام ١٩٨٨، لهو دليل على أنّ تقاريره قد أثّرت كثيرًا في البوليتبورو. ولذلك وَجَبَ عليهم معالجة المشاكل الرئيسية التي تطرحها ردات فِعل الغرب على "التفكير الجديد" في عهد غورباتشيف. وكما ارتبط تعيين غورديفسكي كسفير مقيم في لندن باختصارات غورباتشيف في كانون الأول ــ ديسمبر ١٩٨٤، كذلك ترقية شيبارشين إلى رئاسة الـ PDG على الأرجح نتيجة ثقة القائد السوفياتي الجديد بتقديراته.

في التسعينات، سيستمرّ الـ K.G.B في تغذية افتتان الإدارة السوفياتية بالتقارير السريّة للغاية. كما في الماضي، استمرّ الـ K.G.B دون شك في تقديم بعض المعلومات التي يستقيها من مصادر عامّة علىأنّها ثمرة عمل عملاء سريين. حدّد شيبارشين على الشكل التالي المهمة الرئيسية للـ PDG: "التأكّد من امتلاك الإدارة السوفياتية لمعلومات صحيحة ودقيقة حول الخطط الحقيقية ومشاريع الدول الغربية الكبرى المتعلقة ببلادنا، وحول أهمّ المشاكل العالمية".

وسيستمرّ الـ PDG أطول فترة ممكنة في تغذية أسطورة كونه الوحيد الذي يفهم جيدًا الغرب، ولن يتقدّم نفوذه إلاّ حين تتضخّم مشاكل الاتحاد السوفياتي العسكرية، الأيديولوجية والاقتصادية. وكلّما تفكّك حلف وارسو، سحب الكرملن مئات الألوف من الرجال من أوروبا الشرقية. وكلّما تفتتت القواعد الأيديولوجية للدولة السوفياتية، كلّما تفتت أيضًا تأثير موسكو كمكان مقدّس للإيمان الشيوعي. وتترافق أزمة الاقتصاد مع تخفيف المساعدة للدول النامية. مذاك أخذت الاستخبارات أهمية متزايدة من أجل المحافظة على نفوذ يخبو في العالم الخارجيّ.

يتعلّق الفصل الثاني المهمّ لغورباتشيف بالنسبة لعمليات الاستعلامات في الخارج بالتجسّس العلمي والتقني. فحين تكلّم أمام مِلاك سفارة لندن اثناء اجتماع خاصّ حضره غورديفسكي في ١٥ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٤، هنّأ نفسه بالنتائج التي حصل عليها المجلس الإداريّ "ت" في الــ PDG وضباطه في الخط "X" في الخارج. وبدا واضحًا أنّه يعتبر الاكتساب السريّ للتقنية الغربية عنصرًا مهمًا في البيريسترويكا الاقتصادية.

منذ عدة سنوات، كان المجلس الإداريّ "ت" أحد أفضل الفروع التي كانت تعمل في داخل الـ PDG. فالمسؤول عنه، الحيويّ والطموح ليونيد سيرغيفيتش زايتسيف

والذي بدأ بالتخصّص في التجسّس العلمي والتقني حين كان في مقرّ لندن في الستينات، حاول دون جدوى فصل مجلسه الإداريّ عن الـ PDG ليصبح مجلسًا إداريًا مستقلاً داخل الـ K.G.B. فكريوتشكوف لم يكن مستعدًا للسماح لأحد أفضل ما في أمبراطوريته بالتخلّص من مراقبته. وأكّد زايتسيف أنّ مجلسه الإداريّ ليس فقط مستقلاً بل أنّ قيمة المعلومات التي يحصل عليها تغطّي مجمل نفقات العمليات الخارجية للـ K.G.B. ورغم فشل محاولته للحصول على استقلاله، تصرّف المجلس الإداريّ أكثر فأكثر بمفرده. فصار يتمّ إعداد ضباطه في معهد أندروبوف بشكل منفصل عن بقية المديريات كما تابعوا دروسًا خاصة. معظمهم تقريبًا يملكون ثقافة علمية أو شهادة هندسة. وفي المركز في الخارج، لا يتعاطى أعضاء الخطّ X إلاّ قليلاً نسبيًا مع زملائهم في الخطوط الأخرى.

رغم عدم توفّر أرقام بالنسبة لعهد غورباتشيف، فإن كل شيء يوحي بميل التجسّس العلمي والتقني السوفياتي للنموّ أكثر منه للانخفاض. من بين النجاحات الرئيسية للـ VPK، هناك مجموعة سوفياتية مأخوذة عن الرادار الهوائي الأميركي AWACS، القاذفة الروسية "Blackjack"، نسخة عن الـ B1-B الأميركيّ، مجموعة RYAD للكومبيوتر، سرقة النُسخ الأصليّة لـ IBM والحلقات المتكاملة من Texas Instruments. وتوصلت القوات المسلّحة إلى درجة الاعتماد على نجاحات كهذه للاستعلامات العلمية والتقنية. وأضحى ١٥٠ جهاز تسليح سوفياتي تقريبًا يرتكز على التقنية المسروقة من الغرب.

استمرّ التجسّس العلمي والتقنيّ للكتلة السوفياتية بالنموّ حتى عام ١٩٨٩. حتى في بداية عام ١٩٩٠، حاول بعض مصالح الاستعلامات الخارجية لأوروبا الشرقية التأثير في قادتها السياسيين الجدد بتركيزها على التقنية الغربية اللازمة لتحديث مصانع

قديمة. في شباط ـ فبراير ١٩٩٠، أعلن مدير الـ CIA، ويليام وبستر، أنّ الـ K.G.B يكثّف أكثر عمله، "لا سيّما في الولايات المتحدة بتجنيده أكثر فأكثر أشخاصًا يملكون تقنية أو يستطيعون الوصول إليها".

من بين نجاحات المجلس الإداريّ "ت" في أوروبا الغربية، هناك معلومات جاءت من إيطاليا حول Cartin Electronic Battlefield Communications System الذي كان سيدخل إلى الناتو في بداية التسعينات؛ استخدام فرقة قراصنة معلومات ألمان للوصول إلى مركز معلومات البنتاغون وإلى وسلسلة كاملة من أجهزة أخرى استخباراتية، عسكرية، للقضايا أو للأبحاث. في بداية التسعينات، بدا أنّ مسرح النموّ الرئيسيّ لنشاطات الخطّ X اليابان وكوريا الجنوبية. فاستغلال الصناعة السوفياتية للاستعلامات العلمية والتقنية مسألة معقدة كثيرًا. فالنسخة الجديدة للـ Micros Processeurs الأميركيّة واليابانيّة تؤدي إلى السيطرة علىمئات الآلاف من الاتصالات وعلى سلاسل كاملة من الإجراءات المتكلّفة للانتاج. ولم يمنع جَمْع المعلومات العلمية الأكثر كثافة في كلّ تاريخ التجسّس من اتساع الهوّة بين التقنية السوفياتية والتقنية الغربية، لا سيّما المجال المدنيّ. هذه الهوّة تجعل من الصعب أكثر فأكثر تقليد بعض الاكتشافات الأكثر تقدّمًا في الغرب.

حقّق المجلس الإداريّ "ت" نجاحات رائعة طبعًا، لكن، وبفضل أحد ضباطه، سجّل بلد غربيّ نقطة حاسمة ضد الـ K.G.B في بداية الثمانينات. يتعلّق الأمر بـ"الخُلد" المعروف حتى الآن باسمه الاصطلاحيّ فقط"قارويل"، إذ رفضت السلطات الفرنسية دائمًا الكشف عن اسمه الحقيقيّ. ورغم أنّه لاينتمي إلى هذا المجلس الإداريّ، فقد تلقّى غورديفسكي أصداء كثيرة حول هذه المسألة، وتؤكّد ذكرياته، تكذّب أحيانًا أو تصحّح بعض المعلومات التي تسرّبت إلى الغرب.

كلّ ضابط في الـ K.G.B كان يتكلّم على الأقلّ لغة أجنبية تسمّى "اللغة الرئيسية" (يتكلّم أفضلهم لغة ثانية وربّما ثالثة). كانت الفرنسية "اللغة الرئيسية" للمقدّم فلاديمير إيبوفيتش فيتروف وقد تعلّمها في الجامعة ثم في الـ K.G.B حيث تخصّص في المسائل المتعلقة بفرنسا التي "سيقع في حبّها" تمامًا في بقية أيّامه. عُيِّن فيتروف، وهو مهندس، في المجلس الإداريّ "ت" الذي أرسله في الستينات إلى باريس ليجمع معلومات علمية وتقنية.

استُدعي إلى المركز بعد إقامة طويلة. في ذلك الوقت تَشوَّشَ شيء في حياته. لا يعرف غورديفسكي تمامًا ماهو: مشاكل شخصية؟ مَرَض أحد أقاربه؟ صعوبات مع أولاده؟ على أيّ حال، لم يستطع فيتروف أبدًا أن يحصل على منصب في فرنسا من جديد لكنه حاول على الأقلّ أن يُرسل إلى كندا. سارت أحواله جيدًا في هذا البلد لكنه لم يبقَ فيه طويلاً لأنّ مشاكله الشخصية ازدادت، فأعاده المركز قبل انتهاء مهمته. بعد ذلك لم يترك أبدًا الاتحاد السوفياتي: منعته مشاكله الشخصية من العودة إلى الخارج. نُقل أيضًا من مديرية "العمليات" إلى مديرية "التحليل" ومهمتها بحث المعلومات الآتية من ضباط المجلس الإداريّ "ت" وتوزيعها بين المستخدمين (إدارات مختلفة، وزارات، أكاديمية العلوم).

نحو ١٩٨١، بينما كان موجودًا في المركز، سمع غورديفسكي أنّ فيتروف أوقف بسبب جريمة قتل، ممّا ترك أثرًا عميقًا. طبعًا، يرتكب ضباط كثيرون جنحًا أي جرائم لكن، حسب القاعدة، لا يُقبض عليهم إذ يتجنّبون كلّ صراع مع الشرطة أو مع إدارات أخرى. يشدّد الـ K.G.B كثيرًا على هذا الموضوع وكلّ شذوذ في السلوك يضرّ بحياة الضباط المهنية. إذن، قضايا الحقّ العامّ نادرة في الـ K.G.B، ولا سيّما في الـ PDG على اعتبار أنّه يحوي النخبة.

يذكر غورديفسكي أنّه رأى فيتروف في المطعم أو في الكافيتيريا في المركز أو أيضًا في ميس (قاعة يتناول فيها الضباط طعامهم) الضباط في البهو الكبير للـ PDG ــ رواق طويل يتسكّع فيه الضباط خلال استراحة الظهر ويراقبون الآخرين خاصة النساء اللواتي يعملن هناك (بعض السكرتيرات والضباط). لم يكن فيتروف أبدًا وحيدًا، فمعه دائمًا رفيقة جذابة ساقاها رشيقتان وعمرها أربعون عامًا. يبدوان متعلقين ببعضهما للغاية، وتدعي الألسنة السيئة أنّهما عشيقان ـ لم يُثبت ذلك إلاّ في ما بعد. بعد كلّ شيء، ألم يكونا زميلين في مديرية "التحليل" في المجلس الإداريّ "ت"؟ يملكان أفضل الأسباب للالتقاء معًا، وإذا لُمِّح أنَّ له علاقة بهذه المرأة، يمكنه دائمًا أن يجيب أنّها ضابط كبير، أنهما يعملان في نفس المصلحة وأنّ عليهما التحدّث في العمل؛ في هذه النقطة، لا يمكن قول أيّ شيء. كلاهما متزوج لكنّ الإشاعة تقول أنّهما متضايقان في أسرتيهما. خاصة فيتروف لم يكن على علاقة جيدة مع زوجته. ويُقال إنّ السيدة فيتروف تعلم بنزوات زوجها، مثلما يعلم زوج السيدة. ربّما أرادت امرأة الـ K.G.B الشابة أن يُطلِّق كلاهما ليتزوّجها لكن فيتروف لم يكن متأكدًا من ذلك.

أيّ جريمة ارتكب فيتروف؟ قيل إنه رافق في سيارته الفولغا ـ السيارة السوفياتية الأكثر اتساعًا ـ السيدة المذكورة في يوم من أيام الشتاء للغداء في مطعم مشهور خارج موسكو ـ كان مطعمًا روسيًّا. بعد أن تناولا طعامهما، صعدا في السيارة وهما في خضم خلاف عاطفيّ. تحول الأمر بسرعة إلى مشاجرة: قبض فيتروف على قنينة شمبانيا روسية وهدّدها ـ يمكن أيضًا أن يكون قد ضربها مرة أو مرتين. حين رأته فاقدًا سيطرته على نفسه إلى هذا الحدّ، فتحت باب السيارة وهربت ركضًا. لحقها مواصلاً تهديدها. عندها تدخّل عابر طريق وانتابه الجرأة على التدخّل. اتجه هذا الأخير نحو الضابط لتوقيفه فأخرج فيتروف (هذا ما قيل لكنّ قليلين يعرفون الحقيقة) من جيبه

سكين صيد (ما يسمّى "سكينًا فنلنديًا" في الروسية) وطعن الرجل الذي قُتل أو جُرح جرحًا خطيرًا. بعد ذلك هرب في السيارة. من المؤكّد أنّه لم يكن في حالته الطبيعية، بعد أشهر من التوتر العصبي الصعب احتماله، إذ إنّه - دائمًا حسب نفس الإشاعات - عاد إلى المكان عينه في نفس الليلة، للاستعلام عن حالة ضحيته أم لإيجاد عشيقته أم لسبب آخر غامض؟ على أيّ حال، في ذلك الحين قبضت عليه الشرطة.

يحاول الـ K.G.B أحيانًا الدفاع عن أعضائه لكنه لم يفعل في حالة فيتروف لأنّه فعل حقًا الكثير. تركه رؤوساؤه لأيدي الشرطة وتتابعت الملاحقات القضائية. من المؤكد أنّ الـ K.G.B قام بتحقيق واستجوبه لكنه اعتبر أنّها مسألة حقّ عامّ فقط. تابعت الدعوى مجراها وسُلِّم فيتروف إلى محكمة الجنايات. وتلقّى الحكم الأقصى: ١٢ سنة سجنًا.

بعد عام، أي في سنة ١٩٨٢، انتشرت شائعة جديدة في الـ PDG عن فيتروف. فبينما كان معتقلاً منذ عدة أشهر، عُلِمَ أنّه كان جاسوسًا أجنبيًا. جاسوس في قلب الـ K.G.B! وتساءل الضباط: "لأيّ بلد كان يعمل؟" وكان الجواب: فرنسا، جاسوس في قلب الـ K.G.B نفسه ويعمل لا للولايات المتحدة ولا لبريطانيا، لكن لفرنسا!!! وعلاوة على ذلك في داخل المجلس الإداريّ الأكثر انغلاقًا في الـ K.G.B! غير معقول، غريب!.

بعد ذلك حاولت شائعات جديدة نَشْر روايتين مختلفتين للأحداث.

قيل إنّ السيدة فيتروف وجدت في شقته "شيئًا ما". وبسبب غيرتها (رغم إدّعائها أنّها تأقلمت مع حظّها السيء في الزواج)، أعطت الـ K.G.B وثيقة إثبات تسمح بإدانة زوجها. وأعطى التحقيق سريعًا دلائل لا تدحض على نشاطاته لصالح قوة أجنبية.

حسب رواية ثانية، بعد عام من السجن، فهم فيتروف أنّ حياته انتهت: حين سيخرج، لن يكون إلاّ عجوزًا محطّمًا. وبسبب فخره بما فعل لفرنسا، فقد كتب اعترافًا يعطي تفاصيل عديدة عن أفعاله وحركاته. ويعتقد غورديفسكي أنّه ليس في هذه الرواية الأخيرة أيّ شيء غير محتمل إذ إنّ فيتروف رجل غير متوقّع، انفعاليّ ويعاني كثيرًا من أعصابه.

لم يكن التحقيق الجديد الواجب إجراؤه من اختصاص الشرطة طبعًا. فهذه المسألة، الخاصة بالـ K.G.B داخليًا، هي من مسؤوليّة المديرية ٥ المشهورة في المجلس الإداريّ "ك" في الـ PDG ورئيسها آنذاك فيتالي إيورتشنكو، ويبدو أنّ فيتروف عمل مع الفرنسيين خلال فترة قصيرة ـ حوالى السنة. وعُلِم أيضًا أنه أظهر وقاحة لا تُصدَّق: فقد أخرج من الـ PDG ملفات كاملة أو حافظات أوراق مليئة بالوثائق صوّرها في منزله قبل أن يعطي الملفّات للفرنسيين. لقد نقل إلى الغرب كدسة حقيقية من المستندات. وحسب غورديفسكي، حين سُئل عن دوافعه، أجاب فيتروف أنّه فَعَلَ ذلك بسبب كرهه للـ K.G.B وللنظام السوفياتي أيضًا. وقبل كل شيء، كان يكره الفساد والمناخ السيّء في الـ PDG حيث تسود المحاباة والمذلّة. وبسبب حبّه لفرنسا، أراد أن يفعل شيئًا من أجلها. كان فخورًا بنفسه وقال إنّه مستعدّ للموت من أجل بلد رائع بهذا الشكل...

قيل إنه قبل إعدامه طلب ورقة وقلمًا وكتب إلى مجلس قيادة الـ K.G.B رسالة طويلة حمّل فيها الـ PDG كلّ الأخطاء والمساوئ الممكنة وذهب إلى درجة نعته بـ "العاهرة العجوز". تحتوي هذه الرسالة الصاخبة انفعالاتٍ وفي الوقت نفسه اتهامات مختلفة ثابتة بشكل كامل عن التقاليد والتصرّفات السيئة للـ PDG.

ويتذكّر غورديفسكي أنّه، ذات مساء من كانون الثاني - ينـاير ١٩٨٥ ـ فـي نهايـة إقامة قصيرة في موسكو ليثبّت كسفير مقيم في لنـدن، وبعد سلسلة من اللقـاءات مـع أصحاب درجات عالية في الـ K.G.B ـ، فـي نهايـة نهـار العمـل، وزِّع منشـور لكلّ أعضاء الـ PDG يتعلّق بموت فيتروف، يشرح المنشور أنّه تجسّس لصـالح الأجـانب، حوكم وأُعدم، ويعطي انطباعًا بأنّ إعدامه جرى إمّا في كانون الأول - ديسمبر ١٩٨٤، وإمّا في بداية كانون الثاني يناير ١٩٨٥، لكن ما من شيء يثبت أنّ الحدث جـرى قبل ذلك.

يعتقد غورديفسكي أنّ المعلومـات التـي يملكهـا الغـرب حـول هـذه المســألة هــي بمجملها صحيحة: لم تتعدَّ العام أبدًا فترة نشاط "فارويل": من نهاية ١٩٧٩ حتـى نهايـة ١٩٨٠ أو من ١٩٨٠ حتّى ١٩٨١. رأينا فيمـا سـبق كـم كـان الحصـاد مثمـرًا بالنسبة للفرنسيين. ولا يبدو أنّ فيتروف فكّر بالهرب، ولو لم يُعتقل بسبب جريمة قتل لاستمرّ بالعمل من أجل الفرنسـيين. لا شـك أنْ حالتـه القلقـة والمتوتـرة انتصـرت عليـه فقلبت مشاريعه، ويبدو أنّه لم يوضع أيّ مخطط تهريب لإخراجه من الاتحاد السوفياتي.

لاحقًا، أُعطي اسم فيتروف للصحافة. في عددها الـ ٣٦ (أيلول - سـبتمبر ١٩٩٠)، نشرت المجلة الشهرية "كومسومولسكايا برافدا" في ملحقها - الشـجاع والمتحـرر للغايـة "سوبيزسدسنيك" - مقابلة مع ضابط في الـ K.G.B لم يذكـر اسمه. اقترح هـذا الأخير علـى مجلس السـوفيات الأعلـى إجـراء تفتيش فـي الأرشـيف لمعرفـة مـا إذا كـانت الملاحقات ضد بعض العملاء المتهمين بالعمل من أجل الأجـانب لهـا مبرراتهـا أم لا. بعد ذلك، عدّد بعض الأسماء من بينها اسم فيتروف (دون أن يضع المعادلة فيتروف = "فارويل") لا شكّ أنّها المـرة الأولـى التـي يُنشـر فيهـا اسـم هـذا الأخيـر (سـابقًا، كـانت الصحافة تتحدث عن "عدد معيّن من الجواسيس اكتُشفوا وسُجنوا").

يضيف غورديفسكي أنّه، بين ضباط الـ K.G.B وفي محيطهم ـ عدة آلاف من الأشخاص ـ، انتشرت الهوية الحقيقية ومصير "فارويل" منذ وقت طويل من الأفواه إلى الآذان وأنّه كان للمسألة أثر نفسي كبير على أعضاء المنظمة. فحتى أعوام ١٩٨٤، ١٩٨٥ و١٩٨٦، لم يكونوا يعرفون الشيء الكثير عن الضباط الذين عملوا من أجل الغرب. فاعتبروا أنّ فيتروف هو أوّل من واتته الشجاعة ليقوم بحرب ضد الـ K.G.B وحيدًا وقد سجّل الكثير من النقاط. وشكّل مثله دعمًا معنويًا أكيدًا لكثيرين ممّن قرروا، داخل الـ K.G.B أو خارجه، النضال من أجل حلول الحرية والديمقراطية في روسيا وذلك بمساعدة الغرب على الاستعلام والتوطّد.

بإعطائه كمية من المعلومات السياسية والعلمية والتقنية، قدّم الـ K.G.B مساهمة واسعة في "التفكير الجديد" في عهد غورباتشيف. وكما بيَّن أرنست غلنر، يخضع تفكك نظام الحزب الواحد إلى صيرورة في مرحلتين من التقسيم الداخلي. في عهد ستالين، ارتكز النظام على الخوف من تابعيه وعلى اعتقاد رسميّ لا تستطيع إلاّ قلة من الأشخاص تغييرها. في عهد خروتشيف، اختفى الخوف بشكل واسع. فالذين يؤمنون والذين يكتفون باتباع التعليمات الرسمية كانوا بمنحى نسبيًا من الإرهاب الذي انتشر في معظم الأحيان دون تمييز في عهد ستالين. بالنسبة لمعظم المواطنين السوفيات، حلّ الركود محلّ القمع. في نهاية عهد بريجنيف، وبعد الغياب المزيّف القصير الذي شكّله وصول أندروبوف إلى السلطة، اختفى الاعتقاد بالنظام مع الخوف الكبير الذي سبّبه. ولم يبق سوى ما سمّاه المؤرخ السوفياتي بانكين السيروقراطية ، "حكم الرماديّ": بيروقراطية دون وجه، كئيبة، راكدة وفاسدة.

رغم ذلك، فإن تحويل نظام يتحلّل وتبنّي سياسة خارجية أكثر "وعيًا" مرتبطان أيضًا بتغيير مفهوم العالم الخارجي وخاصة الغرب في الإدارة السوفياتية. فبين بداية

الدكتاتورية الستالينية وبداية عهد غورباتشيف، لم يفهم أيّ عضو في البوليتبورو أبدًا الغرب حقًا. فقدرتهم على إعطاء معنى للاستعلامات المُعطاة من الـ K.G.B كانت مشوّهة بسبب قِصَر نظرهم الأيديولوجي وبسبب تعلّقهم الميؤوس منه بنظرية المؤامرة. في علاقاتهم مع العالم الآخر، كانوا يعوّضون عن غياب الوعي ببحث احترابيّ قاسٍ وعنيد عن التفوّق، وبمعرفة - بفضل الدبلوماسيين وضباط الاستعلامات - بعض نقاط ضعيفة.

في جهوده ليصبح ثم ليبقى إجمالاً قوة عظمى، جمع الاتحاد السوفياتي بحزم جيشًا ضخمًا من الدبلوماسيين، من ضباط الاستعلامات، من الصحافيين ومن الجامعيين الذين كدّسوا تدريجيًا كمية ضخمة من المعلومات عن الغرب ممّا لغم ربّما بعض حقائق النظام قبل تحلّله الداخليّ.

في ميخائيل غورباتشيف، وجد الاتحاد السوفياتي أخيرًا قائدًا يعي تمامًا، رغم أنّه مقتنع بالكثير من المعتقدات التقليدية والمفاهيم الخاطئة عن العالم الخارجيّ، أنّ النظام الشيوعي يتوه وهو مستعدّ للاستماع إلىأفكار جديدة. فمستشاره ذو المكانة الأهم حين وصله إلى السلطة جامعيّ يعرف الغرب شخصيًا: ألكسندر نيقولافيتش إياكوفليف، سفير في كندا من ١٩٧٣ حتى ١٩٨٣، رجل ليست مفاهيمه مظلمة بسبب ضباب الماركسية - اللينينية. تأثّر "التفكير الجديد" لغورباتشيف أيضًا بشكل قويّ باتصالاته الكثيرة بالـ K.G.B والتي أصبحت أقل تشاؤمًا بشكل ملحوظ مع زوال نفوذ العملية RYAN. عام ١٩٨٧، رغم ذلك، أصبح امتداد "التفكير الجديد" والوجهة التي اتخذها صعب الاحتمال كثيرًا بالنسبة لفيكتور تشيبركوف. وتحجّج بالذكرى ١١٠ لولادة دزرجينسكي ليعيد إحياء نظرية المؤامرة القديمة والتواطؤ الضخم لمصالح الاستعلامات الغربية (وضمنها التروتسكية) من أجل نشر التخريب الأيديولوجي: "إنّ

أحد الأهداف الرئيسية للنشاط الهدّام للمصالح الخاصة للدول الإمبريالية هو دائمًا القدرة المعنوية والسياسية لمجتمعنا وللفلسفة السوفياتية.... لذلك لا يوفّر المخرّبون أيّ جهد لإفشال أعمال اللينينة وسياسة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، كما يشككون بوسائل مختلفة بالطريق التاريخي للدولة السوفياتية وبتطبيق بناء الاشتراكية. من أجل هذه النهاية، يجدّد الأيديولوجيون البورجوازيون عدّتهم القديمة مستقدمين غالبًا الحجج التي يحتاجونها من ترسانة التروتسكية ومذاهب أخرى انتهازية".

هاجم تشيبركوف بشكل خاصّ شكلين من "التخريب الأيديولوجي" تقوم بهما عادة "الوكالات الإمبريالية" للاستعلامات. الشكل الأول هو محاولة "تحطيم الوحدة المتراصة للحزب وللشعب" و"إقامة التعددية السياسية والأيديولوجية". الشكل الثاني هو نشر "جرثومة القومية" التي كانت في أساس "المناورات المحرِّضة الحديثة لقوميات الجمهوريات البلطيقية".

من المحتمل كثيرًا أن يكون تشيبريكوف مؤمنًا حقًا بالكثير من هذه النظريّات، لكنّ غورباتشيف يشعر على الأقلّ ببعض الإحراج منها.

عام ١٩٨٧، كان واضحًا أنّه أقرب من كريوتشكوف الأكثر مرونة الذي فهم أنّه يجب على الأقل تعديل نظريات المؤمرة من أجل التوافق مع متطلبات "التفكير الجديد". وقام غورباتشيف بحركة لا سابق لها فأخذ معه - سرًا - رئيس الـ PDG أثناء رحلته الأولى إلى واشنطن في كانون الأول - ديسمبر ١٩٨٧ من أجل توقيع اتفاق حول إلغاء الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى - كان الاتفاق الأول على التخفيف من الترسانات النووية للقوتين العظميين. لم يسبق أبدًا لقائد سوفياتي أن رافقه المسؤول عن الـ PDG أثناء زيارة إلى الغرب...

خلال عـام ١٩٨٨، حيّا غورباتشيف بحرارة "العمل الحازم" لإدارة الـ K.G.B والـ GRU، "الهادف إلى تحسين نشاط "هذه المؤسسات" في الظروف التي أوجدتها المرحلة الحالية من نموّ مجتمعنا من التطوّر الديمقراطي"...

كانت أيام تشيبريكوف كرئيس للـ K.G.B معدودة وخَلَفَه في تشرين الأول ــ أكتوبر ١٩٨٨ كريوتشكوف... بقي في البوليتبورو ١١ شهرًا أيضًا قبل أن يترك منصبه لكريوتشكوف نفسه. فتعيين المسؤول عن مصالح الاستعلامات الخارجية في رئاسة الـ K.G.B يدلّ على نفوذ الـ PDG في عهد غورباتشيف وعلى الأهمية التي يعطيها القائد السوفياتي نفسه لتقارير هذه المصلحة. ألقى كريوتشكوف خطابًا عنوانه "رؤية موضوعية للعالم" بمناسبة استلامه مهامه في رئاسة الـ PDG أثناء اجتماع في وزارة الشؤون الخارجية. كان هذا الخطاب مزيجًا عجيبًا من التفكير القديم والجديد يسمح بالشك في مدى التغيير الحاصل في رؤية الـ PDG للغرب منذ العهد المتشائم للغاية للعملية RYAN أي منذ خمس سنوات. فالرؤية المعتمدة متفائلة بشكل عامّ: فتطوّرات نزع السلاح، لا سيّما "استبعاد خطر صراع عسكريّ كبير"، أصبحت هدفًا "ممكن التحقيق". أضاف أنّ الصورة العالمية للاتحاد السوفياتي تحوّلت بسبب البيريسترويكا: "إنّ صورة "العدو"، صورة الدولة السوفياتية "التوتاليتارية"، صورة المجتمع النصف متطوّر هي على طريق الزوال، كما أنّ معارضينا الأيديولوجيين والسياسيين بدأوا يدركون الطبيعةِ العمية لإصلاحاتنا وأثرها الجيّد على السياسة الخارجيّة".

أضاف كريوتشكوف ملاحظة كنقد ذاتي للـ K.G.B ولإدراكه للغرب. اعترف أنّه، أثناء تحليل الأعمال في الدول الراسمالية، "كانت أحيانًا ملبّدة بالكلام المُعاد والأفكار المُسبقة". حدّد أيضًا أنّه. بشكل عام، "لم نتوصّل إلى التمييز بوضوح بين القوى

الاجتماعية والسياسة في المجتمع الرأسمالي المعاصر وبين الفروق العديدة والمذاهب السياسية في بلد أو منطقة معينة. فطالما ليست لدينا رؤية موضوعية للعالم غير مموّهة ومتحرّرة من كلّ الكلام المعاد والأفكار المسبقة، ستبقى التأكيدات على فعالية عملياتنا السياسية الخارجية كلامًا فارغًا من أيّ معنى". رغم ذلك، يُظهر هذا الخطاب بشكل واضح أنّ الشكوك القديمة ونظرية المؤامرة لا يزالان يقبعان في أعماق رأسه. فدون أن يذكر ابدًا العملية RYAN باسمها، انطلق في تبرير الماضي: "إنّ كثيرًا من المسؤوليات القديمة للـ PDG لم تختفِ. فمن الضروري عدم الاعتقاد بأنّ كلّ خطر صراع نوويّ قد أُلغِيَ".

بعد ذلك، راح مدير الـ PDG يقوم بهجوم تقليديّ ضدّ مصالح الاستعلامات الغربية "وخاصة الأميركية": "لقد احتفظوا بشكل كامل بدورهم كجُند صدام لقوى اليمين، كوسيلة عنيفة "للكبح" الإمبريالي لتحسّن الوضع العالمي. فمن غير المحتمل أن تكون في طريق النهاية حملة التجسّس والتحدّيات العنيفة في الغرب ضد مؤسسات سوفياتية في الخارج". أكّد أيضًا أنّه، في النصف الأوّل فقط من العام ١٩٨٨، جرت أكثر من ٩٠٠ "عملية تحدٍّ" ضد مهمات أو مواطنين سوفيات.

حين أصبح رئيسًا للـ K.G.B، هدأ قليلاً على الأقلّ علانيةً لأنّه انطلق في حملة علاقات عامة لا سابق لها، وأعلن: "يجب أن يكون للـ K.G.B، لا في بلادنا فقط بل في العالم أجمع أيضًا، صورة متناسبة مع الأهداف النبيلة التي نسعى إليها في عملنا، على ما اعتقد". في بداية ١٩٨٩، أصبح كريوتشكوف الرئيس الأوّل في تاريخ الـ K.G.B الذي يستقبل سفير الولايات المتحدة في مكتبه. خلال الأشهر التالية، أعطى، هو وضباط آخرون كبار في الـ K.G.B، مقابلات ومؤتمرات صحفية لمراسلين غربيين، وشارك في فيلم "الـ K.G.B اليوم" الذي بيعَ إلى التلفزيونات

الأجنبية. واستقبل رئيس الـ K.G.B عدة مرات الصحافة والتلفزيون من أجل الشعب السوفياتي ومَثَلَ أمام مجلس السوفيات لأعلى أثناء جلسات سبقت الانتخاب الذي سيثبّته في مهامه، من أجل الإجابة على ٩٦ سؤالاً طرحها عليه النواب (رغم أنّه ثبت في الرئاسة بأكثرية ساحقة، فقد كانت هناك ٢٦ ورقة بيضاء و٦ أصوات ضدّ).

رغم حملة "التدابير الفعّالة" الهادفة إلى إزالة اعتباره، انتُخب إيلتسين رئيسًا لمجلس السوفيات الأعلى في روسيا في أيار ـ مايو ١٩٩٠. بعد انتخابه، أخذ قرارًا لا سابق له برفضه حارسًا خاصًا من الـ K.G.B إلى جانبه. منذ ذلك الحين، أصبح أمنه مهمّة وحدة أنشئت حديثًا في سكرتاريا مجلس السوفيات الأعلى.

في البدء، كان التغيير الأكبر في الثمانينيات في العمليات الخارجية للـ K.G.B بلاغيًا فقط وتركّز علىالعلاقات العامّة. عام ١٩٩٠، أصبح ليونيد شيبارشين المسؤول الأوّل في الـ PDG المعروف شعبيًا، وللمرة الأولى، سُمِحَ لمراسل من البرافدا بالدخول إلى مجلس القيادة في إيازينيفو. فوجد مكتب شيبارشين أقلّ كآبة منه حين كان يشغله كريوتشكوف: فعلى أحد الرفوف صورة لحفيد السيد، وفي المكتبة كتب عن الـ K.G.B نُشرت في الغرب بالإضافة إلى أعمال لسولجنتسين وأدباء آخرين اعتُبروا سابقًا معادين للسوفيات. أعلن شيبارشين للبرافدا أنّه، "في الوقت الحاليّ، نحاول إظهار كلّ ما هو إيجابيّ في السياسة العالمية واغتنام جميع الفرص من أجل تحسين العلاقات العالمية والتوصّل إلى حلول مقبولة من الطرفين". رغم ذلك، لم يبدُ رئيس الـ K.G.B ليّنًا تجاه التفسيرات "الإصلاحية" لتاريخ الـ PDG: "أنا عاجز تمامًا عن الاتفاق مع الذين يحاولون إلقاء مسؤولية الحرب الباردة على عاتق الاتحاد السوفياتي". وأضاف أنّ التهديد الغربيّ لم ينته: "علينا أن نبقى متيقظين لمكائد ومؤامرات القوى المعادية".

رغم أنّ التغييرات في الـ PDG خلال الخمس سنوات الأولى من عهد غورباتشيف كانت " تجميلية"، جرى على الأقلّ تعديلان على المستوى العمليّاتي مع ذلك، يتعلق الأول بالتدابير الفعّالة، فحين أصبح غورباتشيف سكرتيرًا عامًا للحزب، تابع هذا القطاع عمله بشكل طبيعيّ ولم يُبدِ القائد الجديد أيّ رغبة في التدخّل. وبين ١٩٧٥ و١٩٨٥، ازداد عدد المصلحة "أ" من ٥٠ إلى ٨٠ ضابطًا في إيازينيفو بالإضافة إلى ٣٠ و٤٠ شخصًا في مكاتب وكالة الصحافة نوفوستي في ساحة يوشكين. كريوتشكوف نفسه كان نصيرًا مقتنعًا بالتدابير الفعّالة وكان لديه، حسب غورديفسكي، إيمان كبير بفعاليتها. وكان يناقش كثيرًا في الحملات الرئيسية اللتدابير الفعّالة مع المديرية العالمية للجنة المركزية التي تميل للاقتناع برأيه. في بداية عام ١٩٨٥، أعلن ل. ف. سوتسكوف، المعاون الأول لمدير المصلحة أ، لغورديفسكي أنّ المصلحة توجّه نشاطاتها على ٣ نقاط: معلومات تهدف إلى إزالة اعتبار كلّ مظاهر السياسة الأميركية؛ حملة تهدف إلى إبراز الخلافات بين الولايات المتحدة وحلفائها في الـ OTAN؛ دعم الحركات السلمية الغربية. في بداية عهد غورباتشيف، كان من أحد أكبر مفاخر المصلحة "أ" تنظيم مظاهرات ضد خطاب الرئيس ريغان في البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ في أيار ـ مايو ١٩٨٥. وأكّد ضابط كبير في الـ PDG يهتمّ بالتدابير الفعّالة لغورديفسكي أنّ الـ K.G.B أثّر في الشعارات التي رفعها المتظاهرون.

مبدئيًا، يجب أن يخصّص ضباط الخطّ PR في المراكز حوالي ربع وقتهم للتدابير الفعّالة رغم أنّ النسبة كانت أقلّ في الواقع. ولاحظ غورديفسكي تغييرات مهمّة في نوعية التزييفات والمواد الأخرى التي تصنعها المصلحة "أ" ممّا يدلّ على النوعية غير الجيدة لمِلاكه. وكان حوالي ٥٠٪ من الضباط متخصصين في التدابير الفعّالة أما الباقون فآتون من مديريات عديدة. قليلون من المجندين الأكثر قدرة وطموحًا في

الـ PDG من يتمنون وظيفة في المصلحة "أ"؛ فهي نادرًا ما تعطي إمكانيات عمل في الخارج، وتُعتبر بشكل عامّ طريق إيقاف. فشلت عدة تدابير فعّالة، بسبب ارتداد غورديفسكي، خاصة في مشروع من أجل تشويه سمعة Keston College ــ وهي مؤسسة تهتم بالنشاط الدينيّ في الشرق ـ و"تصنيع" إعلان للسيدة تاتشر إلى رؤوساء مجلس القيادة الأميركيين حول سياسة الدفاع.

في نهاية الثمانينيات، أصبحت عمليات التدابير الفعّالة في الغرب (لا في العالم الثالث) أقلّ عدوانية، فقد أُهملت تدريجيًا المقالات، الكتيّبات والخطابات التي تهاجم ريغان أو السيدة تاتشر ـ التي وضعتها المصلحة "أ" في بداية الثمانينات تحت تصرّف عملاء النفوذ الغربيين مثل آرن بيترسين. يمكن أن نلاحظ أيضًا مظاهر امتعاض سوفياتي متزايد تجاه منظمات تزداد قلة الثقة بها... عام ١٩٨٦، اضطرّ روميش شاندرا، رئيس المؤتمر العالمي للسلام منذ وقت طويل، إلى القيام بانتقاد ذاتيّ: "يجب الأخذ بعين الاعتبار الانتقادات المختصّة بعمل الرئيس ممّا يجعل الإصلاحات ضرورية". كان أهمّ هذه "الإصلاحات" تعيين سكرتير عامّ جديد هو الفنلنديّ جو هانس باكاسلاهتي. رغم ذلك، عجزت التغييرات في المِلاك عن تنشيط النفوذ الآفل للمؤتمر العالمي للسلام، وفي عام ١٩٨٨، أطلق رئيس اللجنة السوفياتية للسلام، هنريخ بوروفيك، صيهر كريوتشكوف، نداء من أجل أن يتحوّل المؤتمر إلى "منظمة أكثر تعدّدية". وفقَدَ المؤتمر العالمي للسلام الكثير ممّا تبقّى له من مصداقية عام ١٩٨٩ حين اعترف أنّ ٩٠٪ من موارده تأتي من الاتحاد السوفياتي[١].

---

١ - Romerstein Herbert, *Soviet Active Measures and Propaganda,* Mackenzie Institute Paper n° 17 (Toronto, 1989), pp. 14-15, 25-26.

رغم حدوث بعض التغييرات في الوسائل والأولويات منذ غورباتشيف، فلا شيء يشير إلى أنّ التدابير الفعّالة نفسها قد أُهملت. واستمرّت المديرية العالمية للجنة المركزية بمراقبة التدابير الفعّالة "الرمادية" و"النصف خفية" عبر منظمات عديدة وقنوات أخرى ليس الوجود السوفياتي ظاهرًا فيها إلاّ جزئيًا. وبالتعاون مع المديرية العالمية، قامت المصلحة "أ" بعمليات "سوداء" أو بتدابير فعّالة "خفية" لا يظهر أساسها السوفياتي.

كان العالم الثالث المكان الرئيسيّ للعمليات العادية للتدابير الفعّالة في المصلحة "أ". في نهاية الثمانينات، لفّقتْ المصلحة "أ" حوالي ١٠ إلى ١٥ مستندًا رسميًا أميركيًا في السنة. بعض هذه المستندات "صامت" يُعطى سريًا إلى شخصيات ذات نفوذ في العالم الثالث من أجل تحذيرهم من عمليات عدائية مزعومة من الـ CIA ومن وكالات أميركية أخرى. استُخدم البعض الآخر لتشجيع حملات غير مباشرة: من بينها، عام ١٩٨٧، رسالة مزيفة من مدير الـ CIA، ويليام كازي، حول برنامج من أجل الإطاحة برئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي؛ عام ١٩٨٨، رسالة مزيفة من وزير الشؤون الخارجية في جنوب أفريقيا بيك بوتا إلى مديرية الدولة تتعلق باتفاق سريّ من أجل تعاون عسكري، اقتصاديّ واستخباراتيّ مع الولايات المتحدة.

كانت محاولة إرجاع ظهور السيدا إلى الأبحاث الأميركية فيما يختص بالحرب البيولوجية التدبير الفعّال الأكثر نجاحًا في العالم الثالث خلال السنوات الأولى من عهد غورباتشيف، وقد تحقق مزيج من الدعاية الصريحة والعمل "الخفي" للمصلحة "أ". بدأت المسألة، خلال صيف ١٩٨٣، بمقال نُشر في الصحيفة الهندية الموالية للسوفيات Patriot يوقل إنّ الفيروس "رُكِّب" خلال التجارب الوراثية في Fort Detrick (ماريلاند)...

في البداية، كان للرواية أثر محدود لكنها أُعيدت في Literatournaîna Gazeta فـي الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٥. من أجل هذا الهجوم الجديد، أكّد رواية السيدا تقرير علمـيّ مزعوم لبيوفيزيـائي ألمـاني شـرقيّ مولـود فـي روسـيا هـو البروفسور المتقاعد جاكوب سيغال الذي حاول أن يثبت "ببراهين مفصّلة" أُثبت خطأهـا منذ أن رُكب الفيروس صناعيًـا فـي Fort Detrick انطلاقًـا مـن جرثومتيـن طبيعيتيـن موجودتين، الـ Visna والـ HTLV-1. هكذا، وبدعم مـن لغـة علميـة مشـوّهة، انتشـرت الأسطورة لا في العالم الثالث فقط بل في بعض وسـائل الإعـلام الغربيـة. فـي تشـرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٦، جعلت الصحيفـة البريطانيـة المحافظـة Sunday Express مـن مقابلة للبروفسور سيغال الموضوع الرئيسي في صفحتهـا الأولـى. فـي خـلال الأشـهر الستة الأُوَل فقط من عام ١٩٨٧، انتشرت الرواية بشكل واسع في وسائل إعـلام أكـثر من ٤٠ بلدًا في العالم الثالث...

في ذروة انتصاره، تعرّض التدبير الفعّـال "سيدا" رغـم ذلـك للخطـر مـن "التفكـير الجديد" المطبّق على السياسة الخارجية السوفياتية، هكذا أعلن غورباتشيف أثناء مؤتمر صحافيّ في تموز ـ يوليو ١٩٨٧: "نحن نقول كلّ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة". كـان يـرى فـي ذلـك بشـكل واضـح، هـو ومستشـاروه، أنّ تكذيـب الغربييـن للاسـتعلامات السوفياتية يسيء إلى الصورة الجديدة للبلاد في الغرب.

حيـن ووجِـهَ الكرملـن بالاعتراضـات الرسـميَّة الأميركيـة وبرفـض الجمعيـة العلميـة لأسـطورة السيدا، بالإضافـة إلـى رفـض الخبـير السـوفياتي الرئيسـي فـي هذا المرض، فيكتور م. جدانوف، الذي بدت عليه للمـرة الأولـى علائـم ارتبـاك علنيـة تجاه حملة تدابير فعّالة ناجحة... في آب ـ أغسطس ١٩٨٧، سمع رسـميّون أميركيون في موسكو أنّ رواية السيدا كُذِّبت رسميًا وتوقفت تغطيتهـا فـي الصحافـة السـوفياتية

بشكل كامل تقريبًا؛ لم تُذكر أبدًا في وسائل الإعلام السوفياتية حتى أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٨...

عام ١٩٩٠، رغم ذلك، كانت الرواية لا تزال منتشرة لا في العالم الثالث فقط بل أيضًا في وسائل الإعلام السوفياتية التي يسهل خداعها. وشغلت مكانًا مهمًا مقابلة للبروفسور سيغال مع صور من Fort Detrick، الأصل المزعوم للجرثومة، في فيلم وثائقي عن السيدا أنتجته شركة ألمانية غربية للتلفزيون في كانون الثاني - يناير ١٩٩٠ للقنال ٤ في بريطانيا وللـ Deutshe Rundfunk في كولونيا.

بعد التخلّي الرسميّ عن رواية السيدا في آب ـ أغسطس ١٩٨٧، أُجريت تدابير فعّالة أخرى معادية للأميركيين غير متقنة كذلك، كان لبعضها آثار أيضًا في الغرب. إحدى التدابير التي نجحت كثيرًا هي رواية "قطع الأطفال": يذبح الأميركيون أطفالاً من أميركا اللاتينية لإجراء زرْع أعضاء. خلال صيف ١٩٨٨، وضعت هذه الأسطورة منظمة يحرّكها السوفيات وقاعدتها في بروكسل هي الجمعية العالمية للقانونيين الديمقراطيين، وانتشرت الأسطورة بشكل واسع في الصحافة في أكثر من خمسين بلدًا. في أيلول ـ سبتمبر، قدم الشيوعي الفرنسي دانيال دي مارش، عضو البرلمان الأوروبي، اقتراحًا يستنكر هذه التجارة غير المشروعة "لقطع الأطفال"، وذكر دعمًا لأقواله تقريرًا للجمعية. قُبِلَ الاقتراح بالتصويت باليد المرفوعة أثناء دورة انعقاد لهذه الجمعية لم تُتابع بجدية...

من بين الذين أخذوا بجدية هذه البدعة مجموعات بعيدة للغاية عن الـ K.G.B مثل شهود يهوا الذين رووا هذه الحكاية عام ١٩٨٩ في مجلتهم Awake التي يقرؤها ١١ مليون شخص في ٥٤ لغة. أكّدت صحيفة يونانية أنّ في الولايات المتحدة قلوب بشريّة للبيع بسعر يتراوح بين ١٠٠ ألف ومليون دولار. من بين الإشاعات الأخرى للتدابير

الفعّالة التي انتشرة في العالم الثالث يومذاك، نجد أيضًا تأكيدًا يقول إنّ الولايات المتحدة تقوم بصنع ـ ربّما صنعت ـ "سلاح عِرقيّ" يقتل غير البيض. عام ١٩٩٠، قلّل "التفكير الجديد" بشكل ملحوظ مستوى المعلومات الكاذبة المعادية للغرب في الصحافة السوفياتية، لكنّها لم تؤثّر إلاّ بشكل خفيف على نشاطات المصلحة "أ" في العالم الثالث.

شهدت السنوات الأولى من حكم غورباتشيف أيضًا تغييرات كبيرة في موقف الـ K.G.B من الإرهاب. فابتعاد موسكو المتزايد عن بعض حلفائها الإرهابيين واضح بشكل خاصّ في حالة العقيد القذافي. كان التحوّل مظاهرة الليبيين المعادين للنظام في ١٧ نيسان ـ إبريل ١٩٨٤ أمام السفارة (مكتب الشعب) في لندن في سان جايمس سكوار؛ أطلق ضابط استخبارات ليبيّ النار بواسطة رشاس ستيرلنغ من شباك من الطابق الأوّل فقتل الشرطيّة إيفون فليتشر. قطعت بريطانيا العلاقات الدبلوماسية وطردت أكثر من ٦٠ دبلوماسيًا ليبيًّا وموالين آخرين للقذافي. وتحدثت البرافدا عن الجريمة بصراحة غير معتادة آنذاك: "انفجرت طلقات نارية فجأة... وقُتلت شرطية بريطانية كما جُرح أشخاص آخرون كثيرون... بالإضافة إلى ذلك، أعلَمت واشنطن أنّ أحد أقمارها الصناعية للتجسس اعترض رسالة مرموزة من طرابلس إلى لندن حيث تلقّى مكتب الشعب الليبيّ الأمر بإطلاق النار على المتظاهرين. تبع هذه المعلومة، في اليوم التالي، قرار للسلطات البريطانية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا". رغم أنّ التكذيب الرسميّ من طرابلس المتعلّق بهذه الرواية نُشر كما ينبغي في المجلة، فإنّ البرافدا لم تشكّك في مسألة ما إذا كان الرصاص قد أُطلق أم لا من "مكتب الشعب".

رغم ذلك كان الـ K.G.B يعرف عن مقتل إيفون فليتشر أكثر ممّا قالت البرافدا لقرّائها. في اليوم التالي من الحدث، أُعلم مقرّ لندن بواسطة برقية أنّ المركز تلقّى

معلومات موثوقة تقول إنّ القذّافي أمَرَ شخصيًا بإطلاق النار، وتكشف الرسالة أنّ مطلق نار ممتاز من محطة الاستخبارات الليبية في برلين الشرقية ركب طائرة لندن من أجل مراقبة العملية. في ما بعد، مال "المركز" لإظهار بعض التعاطف مع الرأي الذي أعطاه الرئيس ريغان بالقذافي: إنّه "همجي". واعتبر المركز خطاب القائد الليبيّ لمدة ٣ ساعات أمام مؤتمر الشعب في آذار ـ مارس ١٩٦٥ والذي يدعو فيه إلى التغلّب على "الكلاب الشاردة" دليلاً إضافيًا على أنّه أصبح مجنونًا... فقد قال القائد الليبيّ: "لنا الحقّ، الشرعيّ والمقدّس، بالعمل: إنّه شعب كامل يصفّى في وضح النهار معارضيه، في الداخل كما في الخارج". أعلن أيضًا عن إنشاء قوة من "المتربصين" مؤلفة من ١٥٠ إرهابيًا مدرّبين بشكل كبير ومستعدّين للقيام بتصفيات في العالم أجمع.

استاء المركز أيضًا من ميل القذافي إلى إعطاء أموال، متفجرات وأسلحة آتية من الكتلة السوفياتية إلى الفرع الموقّت للجيش الجمهوريّ الإيرلنديّ. في نهاية السبعينات، حين كتبت الصحافة البريطانية أنّ الجيش الجمهوري الإيرلنديّ الموقّت حصل على أسلحة سوفاتية، أجرى ضابط كبير في الـ K.G.B تحقيقًا طارئًا واكتشف أنّ العتاد جاء من ليبيا. عندئذٍ، تبنّى الكرملن وجهة النظر الشكلاويّة وبحسبها هو غير مسؤول عمّا يفعله القذافيّ بمشترياته الضخمة من الأسلحة. في وسط الثمانينات، اتخذ موقفًا أقلّ طلاقة، إذ قَلِقَ من الدعاية المضادة بسبب استعمال الإرهابيين لأسلحة سوفياتية.

في السبعينات والثمانينات، ولعدّة مرّات، قام الجيش الجمهوريّ الإيرلنديّ الموقت بمحاولات تقرّب من ضباط الـ K.G.B في دبلن ومن ضباط في مقرّ لندن يذهبون إلى بلفاست تحت تغطية صحافية. بعد أن تلقّى المركز تقريرًا عن هذه المحاولات، رفض متابعتها. بشكل عامّ، كان مقرّ دبلن غير مهيّأ للاتصال بمجموعة غير شرعية بسبب اقتناعه باستحالة المحافظة على الأسرار تقريبًا في جمهورية إيرلندا، ويؤكد ضباط

الـ K.G.B أنّه يكفي الإصغاء إلى المحادثات في عدد معيّن من الأماكن التي يؤمّها أنصار "سنّ فين" لمعرفة أشياء مذهلة. في شباط ـ فبراير ١٩٨٥، ذهب إلى دبلن المسؤول عن المديرية الثالثة، نيقولاي غريبين، الذي نشر كتابًا عن إيرلندا الشمالية منذ عدة سنوات، من أجل مراقبة مقرّ الـ K.G.B فيها وفَحْص نشاطه. واستخدم المركز بشكل متزايد إيرلندا كحقل تدريب للشباب غير الشرعيين الذين يتأقلمون مع الحياة الإيرلندية والبريطانية بفضل تدريبات لمدة ٦ أشهر أو أكثر قبل إرسالهم للعمل ضدّ أهداف يعتبرها الـ K.G.B أكثر أهمية.

في وسط الثمانينات، ازداد اشمئزاز الاتحاد السوفياتي أكثر فأكثر من التورّط مع مجموعات إرهابية وذلك جزئيًا بسبب خوفه المتعاظم من أن يصبح هو نفسه هدفًا جديدًا لها. في نيسان ـ إبريل ١٩٨٥، ذكرت برقية ـ منشور من المركز موقّعة من كريوتشكوف نفسه سلسلة من الانفجارات جرت في بلغاريا خلال شهري آب ـ أغسطس وأيلول ـ سبتمبر من السنة السابقة. ورغم معرفة الجناة، أكّد كريوتشكوف أنّ الطابع المتكامل للوسائل المستخدمة يضع إمكانية ضلوع "مصلحة خاصّة" غربية. فالميل الطبيعيّ لرئيس الـ PDG يدفعه نحو نظرية المؤامرة ويقوده إلى الشكّ بوجود مؤامرة غربية تهدف إلى استخدام الإرهاب من أجل زعزعة الكتلة السوفياتية. وخشي أن يُعتبر استعمال مهاجرين بلغاريين في أعمال إرهابية سابقة من أجل عمليات مشابهة في بلدان اشتراكية أخرى. واقترح أن تتصل المراكز بقوات الشرطة المحلّية للتأكيد على الحاجة إلى تضامن عالمي ضد الإرهاب.

في الواقع، كانت قد بدأت استشارة كهذه في خلال سنواته الأربع كسفير مقيم في لندن، من ١٩٨٠حتى ١٩٨٤، اتّصل غوك ١٢ مرة بالشرطة من أجل معلومات تتعلّق بالإرهابيين الشرق أوسطيين في معظم الأحيان. كان همّه الرئيسيّ إنذار البريطانيين

بتهديدات لأهداف سوفياتية لكنّه أعطى أيضًا معلومات عن هجومات محتملة ضد مواطنين غير سوفيات.

في نفس الوقت تقريبًا الذي وصلت فيه البرقية ـ المنشور من كريوتشكوف حول الانفجارات البلغارية، تلقّى غورديفسكي ايضًا التماسًا من إيوري إيفانوفيتش دنوزدوف، سفير سابق في نيويورك ومسؤول عن المجلس الإداريّ "س" (عمليات غير شرعية وخاصّة)، يتعلّق الأمر بسلسلة غريبة من الطلبات الخاصّة بالإرهاب وبالعمليات الخاصّة. كان الطلب الأكثر غرابة ربّما نسخة عن فيلم Who Dares Wins يعتقد دنوزدرف أنه يمكن أن يكشف بعض الوسائل العمليّانيّة لمصلحة العمليات الخاصة البريطانية. أمّا العناصر الأخرى المطلوبة فتتضمّن معلومات عن مجموعات إرهابية يسارية، وعن وحدات عسكرية بريطانية خاصّة، وعن بيْع الأسلحة وعن الجرائم التي جرت في ظروف خاصة أو غامضة. أراد المجلس الإداريّ "س" أيضًا تفاصيل عن الدروع الواقية من الرصاص التي تزن أقلّ من ٢ كلغ والمصنوعة على حدّ قوله في بريطانيا. ودنوزودوف قارئ مداوم لفريديريك فورسايت وقد أعلن لغورديفسكي أنّ رواية هذا الأخير "البروتوكول الرابع" "قراءة أساسية". ففي الواقع، يتصدّى الكتاب لِمَا يعتبره دنوزودوف نتيجة خيال متخصص في عمليات خاصّة في الـ K.G.B: انفجار قنبلة ذرية صغيرة وضعها عملاء سوفيات قرب قاعدة جويّة أميركية في بريطانيا قبل انتخابات تشريعية بهدف إيصال حكومة محايدة من اليسار إلى الحكم.

يشهد جدول لبعض المشتريات أعطاه دنوزدوف إلىغورديفسكي على الرغبة في الاستعلام عن العمليات الخاصّة والنشاط الإرهابيّ في بريطانيا. لكنه كان واضحًا أيضًا بالنسبة لغورديفسكي أنّ دنوزودوف بالمقابل ملتزم بالتحضير لعمليات خاصة

للـ K.G.B في بريطانيا. هكذا طلب من مقرّ لندن إعلامه عن إيجارات المخازن وأعطى لغورديفسكي الانطباع بأنّه يبحث عن أماكن لتخزين الأسلحة والتجهيزات. تهدف بعض المعلومات الأخرى التي طلبها إلى تجهيز تغطية لعملية للـ K.G.B.

مع ذلك، ليس هناك شك في أنّ خوف كريوتشكوف من امتداد الإرهاب إلى الاتحاد السوفياتي انتصر على جاذبية مشاريع دنوزدوف المتعلّقة بموجة جديدة ــ غير خالية من المخاطر ـ من العمليات الخاصة في الغرب. حين حلّ كريوتشكوف محلّ تشيبريكوف كرئيس للـ K.G.B في تشرين الأول ــ أكتوبر ١٩٨٨، أصبحت الحاجة للتعاون شرق ـ غرب ضد الإرهاب العالميّ الموضوع الأهم لسلسة لا سابق لها من الأحاديث والمقابلات.

قال الرئيس الجديد إنّ خطف طائرة إيليوشين من القوقاز نحو إسرائيل في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٨ "دشّن عهدًا جديدًا في عملنا". خلال الـ ١٥ سنة السابقة، جرت ٥٠ محاولة خطف في الاتحاد السوفياتي بقيت كلّها سريّة وأُفشلت بعد خسارات مهمّة في الحياة الإنسانية. حين طلب قراصنة الجوّ الأرمن الرحيل إلى إسرائيل، قال كريوتشكوف إنّ الـ K.G.B "شجّعهم على ذلك لأنّنا كنّا واثقين من التوصّل إلى اتفاق (مع الإسرائيليين). نتج عن ذلك أنّه، بدل حمّام آخر من الدم، لم يصب أيّ طفل، أيّ منقذ وحتى أيّ إرهابيّ بأيّ أذى". شكر وزير الشؤون الخارجية السوفياتي، ادوارد تشيفارنادزة ـ الـ K.G.B أيضًا ـ الإسرائيليين علانية لسماحهم بإنهاء عملية الخطف سلميًا ولإعادتهم قراصنة الجوّ. وقام الجنرال فيتالي بونوماروف، أحد معاوني كريوتشكوف، بمؤتمر صحافي لإعطاء بيان عن الخطف للمراسلين الغربيين، وهذا ما لم يحدث من قبل أبدًا. وأعلن: "ذلك هو المثل الأول عن تعاون بهذا الشكل بين الاتحاد السوفياتي ودول أخرى". وأعطى معاون آخر لرئيس الـ K.G.B هو الجنرال جيني

أجيف، تفاصيل إضافية لتاس، وكشف خاصّة أنّ الـ K.G.B أعطى مخدّرًا لزعيم القراصنة باڤل إياكشيانش وهو مدمن مخدرات، "لأننا اعتقدنا أنّه يمكن لذلك أن يهدأه".

عام ١٩٨٩، ألقى كريوتشكوف سلسلة من الخطابات دافع فيها عن التعاون بين الـ K.G.B والـ CIA ومصالح غربية أخرى من أجل النضال ضدّ الإرهاب: "إنّ فرعًا من الإرهاب موجّه ضدّ الولايات المتحدة، والفرع الآخر ضدّ الاتحاد السوفياتي. من مصلحتنا جميعًا الانتهاء من الظاهرة الأكثر فظاعة في هذا القرن. فإذا اتخذنا الإجراءات الأكثر تعسفًا، قضينا على هذا الشرّ بسرعة كبيرة، يمكن أن تستمرّ بعض بقايا الإرهاب لكنها البقايا وليست الإرهاب نفسه"...

أثناء مداخلة في مجلس السوفيات الأعلى في تموز ـ يوليو، وفي مقابلة لاحقة لصحيفة، ذَطَرَ أيضًا خطر الإرهاب النوويّ معتبرًا إيّاه سببًا طارئًا لإقامة تعاون شرق ـ غرب فيما يخصّ الاستعلامات: "أثناء جلسة أمام مجلس السوفيات الأعلى، أخطأت إذ قلت إنّ عدة أطنان من الأورانيوم الزائد قد اختفت في العالم. ليسوا عدة أطنان لكن عدة مئات من الأطنان، ولا نعرف أين هي موجودة، رغم أننا نخمّن. إنّ في عالم اليوم طاقة من المعلومات والتكنولوجيا تجعل من السهل صُنع سلاح نوويّ واستخدمامه لتدمير أمّة بكاملها، لا مدينة فقط. لذلك لا أستطيع استبعاد الاحتمال بأن يرغب هذا أو ذاك باستعمال أسلحة نووية. إن هناك مجرمون إلى هذا الحدّ! باختصار، نحن مستعدون للتعاون في ما يتعلّق بمكافحة وتجارة المخدرات".

في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٩، أعلن كريوتشكوف أيضًا إلغاء المجلس الإداريّ الخامس الذي راقب حتى الآن المفكّرين المنشقين (وقد استلم مهامه بشكل مخفّف المجلس الإداريّ الثاني العامّ) بالإضافة إلى إنشاء مجلس إداريّ جديد من أجل الدفاع عن النظام البنيوي السوفياتي لتنسيق الكفاح ضد "فُرَصِ الإرهاب الذي ينتشر

منذ بداية السبعينات". وكَشفَ أنّـه، خـلال السبعينات، اكتشـف الـ K.G.B فـي الاتحـاد السوفياتي "أكثر من ١٥٠٠ شـخص لهـم مشـاريع إرهابيـة". فـي نفـس الوقـت، أُرسـل ضابطين عامّين من الـ K.G.B متقاعدَيْن منذ فترة ـ جنرال الفيلـق فيـودور شـتيرباك، معـاون مدير سـابق فـي المجلـس الإداريّ الثـاني العـامّ، وجـنرال الفرقـة فـالنتين زفيزدينكوف، خبير سابق في مواجهة الإرهاب من نفس المجلس الإداريّ ـ للمشـاركة مع ضباط كبار سابقين في الـ CIA فـي مؤتمـر سـريّ فـي كاليفورنيـا لمناقشـة وسـائل كفاح ضد الإرهاب. وأوضح حدود هذا التعـاون الـذي لا سـابق لـه فـي زمـن السـلك: "المخابرات لعبة لا قواعد لها. وهي تتضمّن خصائص نوعية تمنعنا، مع الأسف، مـن الاتفاق حول الطريقة والقواعـد الواجـب اتباعهـا للقيـام بعمليـات ضـد الآخريـن. لكنـي أعتقد أنّ علينا البقاء دائمًا في حدود اللياقة حتى في عملنا".

أدّى هذا التعاون إلى نوع من زوال التشهير بمصالح الاستعلامات الغربيـة. فمنـذ وقت ليس ببعيد، في السنوات الأخيرة من عهد بريجنيف، أشارت الصحافة السـوفياتية، ضمن استنكارها للـ CIA، إلى "الاعوجاجـات المخيفـة للوحـش الـذي يتغذّى مـن مـال المكلّفين دون حـذر، الوحش الـذي يضـرب عـرض الحـائط بكـلّ الضوابـط الأخلاقيـة ويهيـن كرامـة أمّـة بأسـرها". مـن بيــن أنصــار الكفــاح ضــد التجسّـس ذي الطبيعـة النيوستالينية كان يوجد منافسو كريوتشكوف الأكثر لمعانًا وجذرية داخل الـ PDG فـي السبعينات وهما الخبير في المسائل البريطـانية ميخـائيل ليوبيمـوف (المُقـال مـن مهامـه عام ١٩٨٠)، والمتخصّص في الشؤون الأميركية، أوليغ كالوغين، أصغـر جنـرال فـي الـ PDG وقد نفاه كريوتشكوف إلى لينينغراد (عام ١٩٨٠ أيضًا).

مع بقائه حذرًا في نسبة الانتقادات الموجّهة إلى مصالح الشرق والغرب، لم يُخـفِ الأوّل احتقاره للرواية التي يعطيها الـ K.G.B تقليديًا لتاريخــه الخـاصّ: "إنّ أقـلّ نجـاح

يُضخّم عادة كثيرًا. ويمكن تشبيه المصالح السرية بحيوانات وعصافير لويس كارول الذين يجتمعون في دائرة ويجيبون معًا على السؤال: "من المنتصر؟" بالصرخة: "نحن!" مثل أشباهه الغربيين، نشرَ الـ K.G.B التجسّس، "قوّض الجهود الدبلوماسية البنّاءة" و"ساهم في إفساد الوضع العالمي". ويعتقد ليوبيموف أنّ للتجسّس بواسطة الأقمار الصناعية "أثر مثبّت" إذ يُطَمْئِن كل فريق حول مخاطر هجوم مفاجئ. لكنه أصبح عام ١٩٨٩ أوّل سفير سابق للـ K.G.B يدعو، في الصحافة السوفياتية، إلى التقليل من عدد أعضاء الـ PDG بالإضافة إلى جهاز الأمن الداخلي الضخم للـ K.G.B...

عام ١٩٨٩، نشر "أساطير حول أسطورة" وهو كتاب هزليّ يسخر من الحرب السرية المُكلِفة للغاية بين الـ K.G.B والـ CIA. واعتبرت جريدة "أنباء موسكو" أنّه يمكن لهذا الكتاب أنّ يشكّل "مسرحية هزلية موسيقية جيدة".

بدأ أوليغ كالوغين بانتقاد الـ K.G.B حين أُقيل من مهامه كرئيس للـ K.G.B في لينيغراد بعد أن حاول الاستقصاء عن بعض حالات الفساد المُحرجة سياسيًا. عام ١٩٨٨، أطلق هجومًا غامضًا بعض الشيء ضد نموّ جنون العظمة في الـ PDG خلال الـ ١٤ سنة الماضية برئاسة كريوتشكوف. "منذ عدة سنوات فقط، حاول أصحاب الأدوار الأولى إيهامنا أنّ أسباب المصاعب المختلفة لحياتنا (في الاتحاد السوفياتي) لا تعود إلى أخطاء النظام بل إلى محيط معادٍ، إلى الضغط المتزايد لقوى الإمبريالية على الاشتراكية، وأنّ نشاط بعض الأشخاص للمجتمع وجرائمهم ضد الدولة هما نتيجة الدعاية المعادية وتحريضات الـ CIA".

ولأنه عبّر عن آراء غير تقليدية عام ١٩٨٠ طرده كيروتشكوف من الـ PDG. انتقد كالوغين العمليات الأميركية "المخفية" بالإضافة إلى التشهير بالـ CIA الذي كان عنيفًا دائمًا. حين كان رئيسًا للخطّ KR (للجاسوسية المضادة والأمن) في واشنطن في

نهاية الستينات وبداية السبعينيات، تأثّر باستعلامات تثبت أنّ الـ CIA معني أكثر من البنتاغون بكثير نتيجة حرب الفيتنام: "لعدة مرات، تمكنت من الالتقاء بأعضاء في الـ CIA ـ لم يظهروا بهذه الصفة طبعًا. إنهم محدّثون لبقون ومثقفون ويتجنّبون الأحكام المتطرّفة. ورغم أنني لم أُخدَعَ بابتساماتهم الكبيرة، فلا أعتقد أنهم بالضرورة ضحية حقد طبقيّ تجاه كلّ ما يتّصل بالاتحاد السوفياتي". حيّا كالوغين أيضًا رئيس الـ CIA آنذاك ويليام وبستر، وهو رجل "لا يتردد في المخاطرة بأن تصبح علاقاته باردة مع البيت الأبيض إذا شعر أنّه يدافع عن قضية عادلة"... وكان يحمل رأيًا أقلّ حرارة بشكل واضح حول كريوتشكوف: عام ١٩٥٠، انتقد إصلاحات هذا الأخير معتبرًا أن الأمر لايعادل حتى تجميلاً بسيطًا: "تغمر ذراع أو ظلّ الـ K.G.B كلّ حقول الوجود. وكلّ الأحاديث عن صورته الجديدة ليست سوى تمويهًا[1]"...

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص ٦٨٨ ـ ٦٩٠، ٧٠٢ ـ ٧٢٣.

طوابيرُ الجواسيس الشرقيّين على أبواب السفارات الأميركيّة

ليس أدلّ على مظاهر التغييرات التي حدثت في انقلاب الموازين المخابراتيّة بالذات بعد بوادر انهيار الاتّحاد السوفياتيّ سوى هذه الطوابير الطويلة المنتظرة من رجال الاستخبارات في أوروبّا الشرقيّة على أبواب السفارات الأميركيّة في الخارج عارضين الكثير من المعلومات المخابراتيّة لبيعها لقاء حفنة من الدولارات.

ورد في بداية تسعينات القرن العشرين في إحدى النشرات الإخباريّة الخاصّة التي توزّع على دائرة ضيّقة من كبار المسؤولين في "البنتاغون" من العسكريّين والمدنيّين على السواء أنّ "مئات من ضبّاط القوّات المسلّحة ورجال الاستخبارات في أوروبّا الشرقيّة يعرضون الانضمام إلى صفوف وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA ساعين إلى الحصول على المال وفرص الانتقال للعيش في الولايات المتّحدة في مقابل معلومات على درجة عالية من السريّة".

ونسبت النشرة، في طبعة خاصّة تتعلّق كلّ موضوعاتها وأخبارها بمسائل الجاسوسيّة، وهي تحمل تاريخ نيسان - إبريل ١٩٩٠، إلى مصدر مسؤول لم تذكر هويّته أو منصبه أنّ "هناك عددًا كبيرًا إلى حدّ لا يمكن تصديقه يتقدّمون بهذه العروض... إنّهم يقفون في طوابير طويلة بانتظار الإدلاء بما لديهم من معلومات... والآن أصبح بإمكاننا أن نختار منهم وفق ما نريد". ويدلّ التصريح بحدّ ذاته على أنّ صاحبه من رجال الاستخبارات الأميركيّة.

ويضيف هذا المسؤول "إنّ مقدّمي طلبات الانخراط في خدمة وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة من العسكريّين ورجال الاستخبارات في أوروبّا الشرقيّة هم من مستويات المناصب المختلفة. ومنهم من هم على مستوى رفيع، ومنهم على مستوى متوسّط". كذلك قالت النشرة إنّه "بالإضافة إلى طلب اللجوء السياسيّ عبر القنوات الحكوميّة، هناك مسؤولون من أوروبّا الشرقيّة يطرقون أبوابًا أخرى للانتقال للحياة في الولايات المتّحدة". وذكرت على سبيل المثل أنّ أعدادًا كبيرة منهم تتقدّم للالتحاق ببعض مراكز الدراسات والبحوث الأميركيّة، ومنها "مستودعات الأفكار"، مثل "مؤسّسة جيمس تاون" ومقرّها واشنطن. وهي مؤسّسة تساعد، "وفق معلومات النشرة البنتاغونيّة"، كلاً من وزارة الدفاع الأميركيّة ووكالة الاستخبارات المركزيّة في مجال تقديم العون اللازم للفارّين إليهما على التكيّف السريع مع أساليب الحياة الأميركيّة.

ويقول "وليم غايمر"، رئيس مؤسّسة "جيمس تاون"، إنّ "هناك زيادة في أعداد رجال الاستخبارات في أوروبّا الشرقيّة الذين يريدون الالتحاق بخدمة الوكالات الحكوميّة الأميركيّة". وتقول النشرة إنّ "مارك مانسفيلد"، الناطق الرسميّ باسم الـCIA، رفض التعليق على هذه المعلومات، ولكنّ الأدميرال "ستانسفيلد تيرنر" الذي كان مديرًا للوكالة المركزيّة في عهد الرئيس الأسبق "جيمي كارتر" قال "إنّ موجة الهروب بين رجال الاستخبارات في بلدان أوروبّا الشرقيّة ستكون عونًا إلى أقصى درجة للولايات المتّحدة". وقال الأدميرال، الذي شغل المنصب من أوائل ١٩٧٧ إلى أوائل ١٩٨١، إنّ "هؤلاء الهاربين يمكن أن يلقوا أضواء على نقاط الضعف في الاستخبارات الأميركيّة، وأن يساعدوا أيضًا على كشف الأميركيّين الذين يمارسون التجسّس لحساب دول أخر".

وأضاف الأدميرال تيرنر أنّه "على الرغم من ضرورة معاملة الهاربين من أجهزة الاستخبارات بقدر كبير من الشكّ، إلاّ أنّ ميزة وجود عدد كبير منهم أنّه بالإمكان دائمًا

مضاهاة أقوال كلّ منهم في ضوء أقوال الآخرين للتحقّق من صدقها". كما قال "إنّ هؤلاء الهارين يمثّلون حصادًا كبيرًا، وستستنزف وكالة الاستخبارات المركزيّة كلّ ما لديهم، ثمّ تجد لهم وظائف مناسبة كميكانيكيّين وكتبة وإداريّين أو تنفيذيّين". واستطلعت النشرة المذكورة رأي مدير سابق آخر للـ CIA هو "وليم كولبي"، الذي شغل هذا المنصب في الأعوام من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧، وقد ذكر أنّ تدفّق الهاربين من استخبارات أوروبّا الشرقيّة بهذه الأعداد الكبيرة على الولايات المتّحدة "لا بدّ من أن يساعد على حلّ منازعات وألغاز استخباريّة طال أمدها"... مثل قضيّة تورّط السوفيات أو البلغار في محاولة اغتيال البابا يوحنّا بولس الثاني في أيّار - مايو ١٩٨١، وقبلها قضيّة اكتشاف "غونتر غيويوم" المساعد الخاصّ لمستشار ألمانيا الغربيّة "فيلي برانت" عام ١٩٧٤ كجاسوس لألمانيا الشرقيّة". كما قال وليم كولبي "إنّ هؤلاء الهاربين سيوفّرون للاستخبارات الأميركيّة أساسًا أفضل لتحليل التطوّرات الساسيّة الأخيرة في الاتّحاد السوفياتي وفي بلدان أوروبّا الشرقيّة".

لكنّ خبيرًا آخر بشؤون الاستخبارات، هو "آلن غودمان" العميد المشارك في معهد الدراسات الأجنبيّة في جامعة جورج تاون الأميركيّة، أعرب عن اعتقاده بأنّ هؤلاء الجواسيس الفارّين من Wفوف استخبارات أوروبّا الشرقيّة إلى الاستخبارات الأميركيّة "انخفضت قيمتهم كثيرًا بسبب انهيار النظم السياسيّة التي كانوا يعملون لها". وقال غودمان "إنّ المسألة الآن هي: ما الذي سيحدث بعد هذا... وهذا ما لا يستطيع هؤلاء الهاربون أن يقدّموا شيئًا بشأنه".

لكنّ الخبير "جورج دو"، أحد المسؤولين عن شعبة التخطيط والتنسيق في الـCIA صرّح بأنّ "أهميّة وجود هذا الكمّ من رجال الطوابير، تساعد بالدرجة الأولى على كشف الاختراقات التي كانت موجودة ضدّ الـ CIA والعناصر التي كانت توصل الكثير

من المعلومات الحسّاسة وبالذات ما يتعلّق بجهاز الأمن القومي إلى السوفيات وتحديدًا فضيحة "رونالد بيلتون" الذي عمل في وكالة الأمن القومي من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧٩ واستطاع من خلال مهمّته ضمن هذا الجهاز نتيجة لقدرته على الدخول إلى الأماكن السريّة ضمن غرف الجهاز أن يوصل للسوفيات معلومات على قدر كبير من السريّة والأهميّة، وبقي طيّ الكتمان بعد تركه العمل ضدّ الوكالة حتّى كشف عنه "يورتشنكو" رئيس ضبّاط أمن المخابرات السوفياتيّة في السفارة بواشنطن بعد أن ارتدّ عن المخابرات السوفياتيّة وسلّم نفسه وكلّ معلوماته للـ CIA".

أمّا كيف تمّ اكتشاف "بيلتون" رغم عدم معرفة "يورتشنكو" به وجهل الـ CIA لشرائه من قبل السوفيات، فيعود إلى أنّ مدير المخابرات المركزيّة الأميركيّة من بداية عام ١٩٨١ ولغاية بداية عام ١٩٨٧ "كيسي"، ظلّ لمدّة أكثر من ستّة أشهر منهوكًا ومتعبًا وحائرًا في كيفيّة اكتشاف جاسوس يعمل ضمن الوكالة أدلى بمعلومات عنه رئيس أمن الـ KGB في واشنطن من عام ١٩٧٥ ولغاية عام ١٩٨٠، ويدعى "يورتشنكو" والذي ارتدّ وانقلب يعمل لصالح الـ CIA. والواقع أن يورتشنكو لم يكن قد واجه جاسوس الوكالة وجهًا لوجه، وليس هناك من معرفة باسمه ولا بشكله الحقيقيّ، وكلّ معرفته انحصرت بواسطة مكالمة هاتفيّة تلقّاها يورتشنكو منذ ستّ سنوات من جاسوس الوكالة، ولم يعرف عن شخصيّته شيئًا، أنّما ذكر له أنّ لديه معلومات هامّة ومستعدّ لإعطائها للـ KGB مقابل مبلغ من المال، وتتعلّق هذه المعلومات بإشارات الشيفرة السوفياتيّة وكذلك بوصلات الاتّصالات.

بعد الحصول على هذه المعلومات، تبيّن للسوفيات بعد التدقيق بصحّتها أنّها عبارة عن كنز حقيقيّ، واستمرّ تواصل المعلومات، بالسريّة المطلقة، وكذلك تمّ دفع الثمن بالسريّة ذاتها أيضًا لصاحبها.

تدخّل مكتب التحقيق الفدرالي FBI لمساعدة الـ CIA في كشف هويّة هذا الجاسوس، وتمّ نبش التسجيلات الهاتفيّة القديمة للسفارة السوفياتيّة، وأحضر كلّ الموظّفين العاملين ضمن المجموعة السوفياتيّة في وكالة الأمن القوميّ والبالغ عددهم ٨٠٠ موظّف. ومن خلال مراقبة وسماع أشرطة التسجيل هذه، سمعوا متّصلاً يقول: "إنّ لديه معلومات هامّة وحسّاسة حدًّا يريد ثمنها". ثمّ عُرض هذا التسجيل على الموظّفين الذين حدّدوا أنّ هذا الصوت هو صوت زميل سابق لهم ويدعى "رونالد بيلتون"، وكان موظّفًا في الوكالة من عام ١٩٦٥ ولغاية عام ١٩٧٩، وعندما ترك عمله في الوكالة كان دخله يوازي الخمسة وعشرين ألف دولار سنويًّا رغم أنّه كان موظّفًا بسيطًا".

تمّ إلقاء القبض على بيلتون معترفًا بتهمة التجسّس مقرًّا أثناء التحقيق بوجود رفاق له مع عدم الإدلاء بأيّ معلومات عنهم ولا بمواقعهم، وكذلك بأسمائهم، ولم تستطع الوكالة ولا مكتب التحقيقات الفدراليّ كشف الشبكة التي عمل ضمنها بيلتون. وقد أملت الوكالة من خلال عروض المعلومات المقدّمة لها من قبل طوابير الجواسيس أن تصل إلى حلّ لهذه الشبكة لكشفها والقضاء عليها[١].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص١٢ ـ ١٦.

المَراجع والفهرس

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟ دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨)

زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

مجلّة "المحرّر العربيّ"

هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢)

وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف لناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠)

Alexandres M. Haigir, *Caveat,* Weidenfled et Nicolson, (London,1984)

Ascherson Neal ,*The Struggles for Poland,* Michel Joseph (London,1987)

Ash Timothy Garton , *The Polish Revolution: Solidarity 1980-1982,* Jonathan Cape (London,1983)

Dimbley David et Reynolds David, *An Ocean Apart,* BBC/Hodder & Stoughton (Londron,1988)

Hersh Saeymour M., *The Target is Destroyed,* Faber (London,1986)

Johnson R. W., *Shootdown: The Verdict on KAL 007,* Chatto and Windus (London,1986)

Karjalainen Ahti,Tarkka Jukka, *Presidentin Mimisteri.*Otava (Helsinki, 1989)

Pastor Robert A., *Condemned to Repetition: The United States and Nicaragua,* Princeton University Press (Princeton,1987)

Romerstein Herbert, *Some Insghets Derived From the Grenada Documents,* in Bark, (ed.). Red Orchestra, vol. I: *Instruments of Soviet Policy in latin American and the Caribbean,* Hoover Institution Pres (Stanford, 1986)

Romerstein Herbert, Soviet Active Measures and Propaganda, Mackenzie Institute Paper n• 17(Toronto, 1989)

Ruane Kevin, The Polish Challenge, BBC (London,1982)

Szulc, *Field A Critical Portrait,* Hutchinson (London,1987)

Woodward Robert, Veil: The Secret Wars of the CIA 1981-1987, simon and Schuster (New york,1987)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

